

فوائد قرآنية
دقائق تفسيرية منتقاة
إعداد
دكتور/ هشام عبد الجواد الزهيري
العالمية
الدار العالمية للنشر والتوزيع



الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم تسليماً كثيراً.

ثمّ أمّا بعد: فهذه فوائد قرءانية منتقاة من كتب التفسير المختلفة، وفيه جمعت الفوائد اللغوية والإيمانية من الكتب الآتية:

- **«الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي»**.
- **«التحرير والتنوير لابن عاشور»**.
- **«أضواء البيان للشنقيطي»**.
- **«في ظلال القرءان لسيد قطب»**.
- **«بلاغة الكلمة في التعبير القرءاني للدكتور فاضل السامرائي»**.
- **«لمسات بيانية في نصوص التنزيل للدكتور فاضل السامرائي»**.
- **«معاني الأبنية في العربية للدكتور فاضل السامرائي»**.
- **«كتاب تدبر» ـ المجموعة الأولى.**

وربما انتقيت بعض الفوائد من الكشاف للزمخشري، ومفاتيح الغيب للرازي، والبحر المحيط لأبي حيان، وروح المعاني للألوسي، والتبيان في الأقسام القرءانية لابن القيم، والله المسئول أن ينفعني بهذا الكتاب أنا وجميع المسلمين والمسلمات في الدنيا والآخرة.

وكتبه

د/ هشام عبد الجواد الزهيري

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ (الفَاتِحَةِ: ١-٧).

قال د. فاضل: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

معنى ﴿الْحَمْدُ﴾: الثناء على الجميل من نعمةٍ أو غيرها مع المحبة والإجلال. فالحمد: أنْ تذكر محاسنَ الغير، سواء كان ذلك الثناءُ على صفةٍ من صفاتهِ الذاتية كالعلم والصبر والرحمة والشجاعة، أم على عطائه وتفَضُّلهِ على الآخرين. ولا يكون ﴿الْحَمْدُ﴾ إلا للحَيِّ العاقل. وهذا من أشهر ما فُرِّقَ بينه وبين المدح. فإنك قد تمدح جماداً، وقد تمدح حيواناً ولكن لا تحمده، فقد تقولُ كلاماً في مدح الديك، وفي مدح البقر، وفي مدح الكلب، وفي مدح الذهب، وفي مدح اللؤلؤ وغير ذلك، ولكن لا تحمده.

ومما ذكر في الفرق بينهما أيضاً:

«إنَّ المدحَ قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، أما الحمد فإنه لا يكونُ إلا بعد الإحسان». فإن الحمد يكون لما هو حاصلٌ من المحاسن في الصفات، أو الفعل، فلا يُحمَدُ مَنْ ليس في صفاته ما يستحق الحمد، ولا يُحمَدُ مَنْ لم يفعل جميلاً. أما المدح، فقد يكون قبل ذلك، فقد تمدح إنساناً ولم يفعل شيئاً من المحاسن والجميل ولذا كان المدح مَنْهياً عنه، بخلاف الحمد، فإنه مأمورٌ به، فقد قال ﷺ: «**احثُوا الترابَ في وجوه المَدَّاحين**». في حين قال: «**مَنْ لم يَحمدِ الناسَ لم يحمدِ الله**».

وهناك فرقٌ آخر بين الحمد والمدح، وهو أنَّ في الحمد تعظيماً وإجلالاً ومحبة، ما ليس في المدح. فكان اختيار «الحمد» في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أولى من اختيار «المدح».

وفَرَّقُوا بين الحمد والشكر، فقالوا: «إنّ الحمد يعمُّ ما إذا وصل ذلك الإنعامُ إليكَ أو إلى غيرك، وأما الشكر، فهو مختصٌّ بالإنعام الواصل إليك».

فأنتَ تشكر الشخص إذا أوصلَ إليك نعمةً، وأما الحمدُ فإنه لا يختص بذاك، فإنك تحمدهُ على إنعامه لك، أو لغيرك.

ومن جهة أخرى، إنَّ الشكرَ لا يكون إلا على النعمة، ولا يكون على صفاته الذاتية، فإنك لا تشكرُ الشخصَ على عِلْمِه، أو على قدرته وقد تحمده على ذاك. جاء في «لسان العرب»: «والحمد والشكر متقاربان والحمدُ أعمّهما، لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية، وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته».

فكان اختيار الحمد أولى أيضاً من الشكر، لأنه أَعَمُّ، فإنك تُثني عليه بنعمه الواصلة إليك، وإلى الخلق أجمعين، وتثني عليه بصفاته الحسنى الذاتية، وإن لم يتعلق شيء منها بك. فكان اختيار «الحمد» أولى من المدح والشكر.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أنه قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولم يقل: «أحمدُ الله»، أو: «نَحمدُ الله»، وما قاله أولى من وجوه:

منها: أنَّ قولنا «أَحمدُ الله» أو «نحمد الله» مختصٌّ بفاعل معين. ففاعل «أحمد» هو المتكلم، وفاعل: «نحمد» هم المتكلمون، في حين أن عبارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مطلقة لا تختصُّ بفاعلٍ معين وهذا أولى. فإنك إذا قلت: «أَحمدُ الله» أخبرت عن حمدك أنتَ وحدك، ولم تُفِدْ أن غيركَ حَمِدهُ، وإذا قلت: نحمد الله، أخبرت عن المتكلمين ولم تفد أن غيركم حمده، في حين أن عبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لا تختص بفاعل معين فهو المحمودُ على وجه الإطلاقِ، منكَ ومِنْ غيركَ.

ومنها: أنك إذا قلت: أحمدُ فلاناً، لا يعني أنه يستحقُّ الحمدَ فقد تُثني على شخصٍ لا يستحقُّ الثناء، وقد يهجو شخصٌ شخصاً، وهو لا يستحق الهجو، ذلك أن الشخص قد يضع المدح في غير موضعه، ويضع الهجو في غير موضعه، ويفعل أفعالاً لا ينبغي أن يفعلها، فأنتَ إذا قلت: أحمدُ الله، أخبرتَ عن فعلك، ولا يعني ذلك أنَّ مَنْ تحمده يستحقُّ الحمد في حين أنك إذا قلت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أفاد ذلك استحقاق الله للحمد وليس ذلك مرتبطاً بفاعلٍ معين.

ومنها: أن قولك: «أَحمد الله»، أو: «نحمد الله»، مرتبطٌ بزمن معين، لأن الفِعْلَ له دلالة زمنية معينة، فالفعل المضارع يدل على الحال، أو الاستقبال، ومعنى ذلك أن الحمد لا يحدث في غير هذا الزمان الذي تحمده فيه ولا شك أن الزمن الذي يستطيع الشخص أو الأشخاص الحمدَ فيه محدود، وهكذا كلُّ فِعْلٍ يقوم به الشخصُ محدود الزمن، فإن أقصى ما يستطيع أن يفعله، أن يكون مؤتبطاً بعمره، ولا يكون قبل ذاك وبعده فِعْلٌ فيكون الحمد أقل مما ينبغي، فإنَّ حمدَ الله لا ينبغي أن ينقطع ولا يُحَدَّ بفاعل، أو بزمان في حين أن عبارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مُطلقة غير مقيدة بزمن معين، ولا بفاعل معين، فالحمد فيها مستمرٌّ غير منقطع.

ومن ذلـك أن: «أَحمد الله»، جملة فعلية، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملة اسمية، والجملة الفعلية دالة على الحدوث والتجدد، في حين أن الجملة الاسمية دالة على الثبوت، كما هو معلوم، وهي أقوى وأدوم من الفعلية، فقولك: «متبصّر»، أقوى وأثبت من: «يتبصّر»، و: «مثقف»، أقوى وأثبت من: «يتثقف»، و: «متدرب» أقوى وأثبت من: «يتدرب»، فاختيار الجملة الاسمية أوْلى من اختيار الجملة الفعلية ههنا، إذ هو أدلُّ على ثبات الحمد واستمراره.

ومنها: «أن الحمدَ عبارة عن صفة القلب، وهي اعتقاد كون ذلك المحمود مُتفضِّلاً منعماً مستحقاً للتعظيم والإجلال. فإذا تَلفَّظَ الإنسانُ بقوله: «أَحمدُ الله»، مع أنه كان قلبه غافلاً عن معنى التعظيم اللائقِ بجلال الله، كان كاذباً لأنه أخبر عن نفسه بكونه حامداً مع أنه ليس كذلك. أما إذا قال: الحمد لله، سواء كان غافلاً أو مستحضراً لمعنى التعظيم، فإنه يكونُ صادقًا لأن معناه: أن الحمد حقٌّ لله، وملكه، وهذا المعنى حاصل سواء كان العبد مشتغلاً بمعنى التعظيم والإجلال، أو لم يكن. فثبت أن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَوْلى من قوله: أحمد الله. ونظيره قولنا: «لا إله إلا الله»، فإنه لا يَدْخلُه التكذيبُ بخلاف قولنا: «أشهدُ أن لا إله إلا الله»، لأنه قد يكون كاذباً في قوله: «أشهد». ولهذا قال تعالى

في تكذيب المنافقين: ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (المنافقون: ١)». فثبت أن: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ أولى من: «أحمد الله» أو: «نحمد الله».

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إنّ عبارة الحمد هذه يمكن أن تُقالَ بالرفع، أي: «الحمدُ لله»، ويمكن أن تقال بالنصب، أي: «الحمدَ لله»، فأي العبارتين أَوْلى بالاختيار؟

والجواب: أن قراءة الرفع، أولى من قراءة النصب، ذلك أن قراءة الرفع تدل على أن الجملة اسمية، في حين أن قراءة النصب، تدل على أن الجملة فعلية بتقدير: نحمد، أو أحمد، أو احمدوا، بالأمر. والجملة الاسمية أقوى وأثبت من الفعلية، لأنها دالةٌ على الثبوت كما مر إيضاحه.

جاء في (**الكشاف**): «والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء، للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ومنه قوله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ ﴾ (الذاريات: ٢٥)، رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم، عليه السلام، حَيَّاهُمْ بتحيةٍ أحسن من تحيتهم، لأن الرفع دالٌّ على معنى ثبات السلام لهم، دون تجدده وحدوثه».

قال **د. فاضل**: «الحمد لله»، أَوْلى من: «حمداً لله».

ذلك أن: «الحمدُ لله»، جملة اسمية، كما ذكرنا، و: «حمداً لله»، فعلية، والجملة الاسمية، أقوى وأثبت من الفعلية، كما ذكرنا قبل قليل.

وإن «الحمد» مُعَرَّفةٌ بأل في حين أن «حمداً» نكرة، والتعريف ههنا يفيد ما لا يفيدهُ التنكير، ذلك أن «ال» قد تكون لتعريف العهد، فيكون المعنى: أن الحمدَ المعروفَ بينكم هو لله. وقد تكون لتعريف الجنس على سبيل الاستغراق، فيدل على استغراق الأحمدة كلها. ورَجَّحَ بعضهم المعنى الأول، ورجح بعضهم المعنى الثاني، بدليل قوله ﷺ: «**اللهم لك الحمدُ كلُّه**». فدل على استغراق الحمد كله.

والراجحُ فيما يبدو لي، أن المعنيين مرادان، ذلك أن التعبيرَ يحتملهما معاً، فعلى هذا يكون المعنى: أن الحمد المعروف بينكم، هو لله على سبيل الاستغراق والإحاطة، فلا يخرج عنه شيء من أفراد الحمد ولا أجناسه.

جاء في (**روح المعاني**): «إن الحمد إخبار عن محاسن الغير، مع المحبة والإجلال. والمدح إخبار عن المحاسن ولذا كان الحمد إخباراً يتضمن إنشاء، والمدح خبراً محضاً».

وهذا هو الراجح في رأيي، فإنها تحتمل الخبر وإنشاء التعظيم، فتجمع المعنيين معاً. وعبارة الحمد الواردة في السورة أعني: «الحمد لله» أولى من: «إن الحمد لله»، مِن أكثر مِن وجه، ذلك لأنه ليس المقام مقام شَكٍّ أو إنكار، فيحتاج إلى التوكيد، فإنها توجيه للمؤمنين الذين يُقِرُّونَ ذلك ولا ينكرونه. وهذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن عبارة: «الحمد لله»، تحتمل الخبر وإنشاء التعظيم كما ذكرنا فتجمع المعنيين معاً، ولو قلت: «إن الحمد لله» لأصبحت خبراً محضاً لا تحتمل الإنشاء. ونظير ذلك الدعاء فإنه إنشاءٌ فإذا أدخلت عليه «إن» خرج من الدعاء إلى الخبر فإن قولك: «رحمة الله عليه»، و: «الله يغفر له»، دعاء فإذا أدخلت «إن» عليه، فقلت: «إن رحمة الله عليه» و«إن الله يغفر له»، كان الكلامُ خبراً لا دعاء.

فـ «الحمدُ لله» أولى من «إن الحمد لله» لِمَا فيها من جمع مَعْنيي الخبر والإنشاء.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الفَاتِحَة : ٢).

قال د. **فاضل**: و﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى واختلف في دلالة الجمع هذه فرجح بعضهم أنها تفيد ذوي العلم خاصة أو المكلفين من الخلق بدليل قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفُرْقَان : ١) وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ (الرُّوم : ٢٢) ولا يكون نذيراً للبهائم والجمادات وقال بعضهم: إن العالمين هم الإنس بدليل قوله: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الشُّعَرَاء : ١٦٥) وقوله: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (المَائِدَة : ٢٠)، وقيل: جمع العالم يشمل كل جنس مما سمّي به، فإن للعالمين آحاداً كل منها يسمى عالماً، فهناك عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم الحشرات وكل صنف وكل جنس يسمى عالماً أيضاً.

وقال د. **فاضل** أيضاً: إنّ «العالم» يُجمَعْ على العوالم وعلى العالمين، والذي يبدو لي أن العوالم يطلق على جميع العوالم من المكلفين وغيرهم من جمادات وحيوانات وغير ذلك وإن «العالمين» لا تطلق إلا على ذوي العلم خاصة أو على ما اجتمع فيه العقلاء وغيرهم فيغلب العقلاء ولا يطلق «العالمون» على غير العقلاء وحدهم فلا يقال للحشرات والطيور «عالمين» بل عالم أو عوالم ولكن يقال للبشر أو لجماعة من البشر أو لجيل من البشر أو للمكلفين من خلق الله من الإنس والجن على مر العصور «عالمين» كما ورد ذلك في القرآن الكريم؛ ذلك أن الجمع بالياء والنون خاص بالعقلاء فعلى هذا يكون قوله ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إما أن يعني: رب البشر أو المكلفين أو رب الخلق كلهم وغلب العقلاء منهم ولهذا التخصيص أو التغليب سببه؛ ذلك أن الكلام في سورة الفاتحة خاص بالعقلاء فالعبادة والاستعانة وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم وتصنيف الخلق إلى مُنعم عليهم ومغضوب عليهم وضالين هو خاص بالمكلفين فكان هذا الاختيار أنسب شيء ولو قال رب العالم أو رب العوالم لم يحسن هذا الحُسْنَ لأنه يشمل غير المكلفين.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ٣).

قال د. **فاضل**: قوله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ فعلان من الرحمة و﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾: فعيل منها وصيغة «فعلان» تفيد الدلالة على الحدوث والتجدد وذلك نحو عطشان وجوعان وغضبان ولا تفيد الدلالة على الثبوت وتفيد أيضاً الامتلاء بالوصف جاء في «التفسير القيم» «ألا ترى أنهم يقولون غضبان للمتلئ غضباً وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك. وصيغة «فعيل» تدل على الثبوت في الصفة نحو طويل وجميل وقبيح أو التحول في الوصف إلى ما يقرب من الثبوت نحو: خطيب وبليغ وكريم فجاء بالوصفين للدلالة على أن صفته الثابتة والمتجددة هي الرحمة للاحتياط في الوصف، فإنه لو وصف نفسه بأنّه «رحيم» فقط لوقع في النفس أن هذا وصفه الثابت ولكن قد يأتي وقت لا

يرحم فيه كالكريم والخطيب ولو قال «رحمن» فقط لظُنَّ أن هذا وصف غير ثابت كالغضبان والعطشان وهذا الوصف يتحول فيذهب الغضب ويزول العطش وكذلك الرحمة فجمع بينهما ليدل على أن وصفه الثابت والمتجدد هو الرحمة».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة : ٥).

قال د. **فاضل**: فإن قلت: كان قياس الكلام أن يقول: «إياه نعبد وإياه نستعين» فَلِمَ قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بالخطاب؟

والجواب: أن هذا يُسمَّى التفاتاً في علم البلاغة والالتفاتُ قد يكون عدولاً من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ (يونس : ٢٢) فعدل من الخطاب إلى الغيبة. وللالتفات فائدة عامة وفوائد يقتضيها المقام. أما الفائدة العامة فهي «أن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطريةً لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، ومن فوائده التي اقتضاها المقام «أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلمُ بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة به في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذا صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ليكون الخطاب أدل عن أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به. ومنها أن الكلام من أول السورة إلى هنا ثناء والثناء في الغيبة أولى، ومن هنا إلى الآخر دعاء وهو في الحضور أولى والله تعالى حييٌ كريم.

قال في (**فتح القدير**): والمجيء بالنون في الفعلين «نعبد، نستعين» لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد. وقيل: إن المقام لما كان عظيماً لم يستقل به الواحد استقصاراً لنفسه واستصغاراً لها فالمجيء بالنون لقصد التواضع لا لتعظيم النفس.

قال د. **فاضل**: ثم لننظر من ناحية أخرى، كيف أطلق فعل الاستعانة ولم يقيده بشيء فإنه قال ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ولم يقل نستعين على كذا أو على كذا فلم يقل مثلاً «نستعين على العبادة» أو نستعين على الطاعة أو ما إلى ذلك، وذلك أنه أراد إطلاق الإستعانة لتشمل كل شيء يريده الإنسان ولا يخصها بشيء، فهو يستعينُ بالله على العبادة وعلى طلب الرزق وعلى النصر على الأعداء وعلى أن ييسر له أموره وعلى أن يقضي له حوائجه فتشمل كل أمور الدنيا والآخرة.

جاء في «روح المعاني» في سر إطلاق الاستعانة فقيل ليتناول كل مُستعان فيه. فالحذف هنا مثله في قولهم «فلان يعطي» في الدلالة على العموم. وأيضاً لو كان المراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة لبقي حكم الاستعانة في غيرها غير معلوم في أمّ الكتاب.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة : ٦).

قال د. **فاضل**: جاء في تفسير ابن كثير «وقد تُعدى الهداية بنفسها كما هنا ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد : ١٠) أي بيَّنّا له الخير والشر وقد تعدى بإلى كقوله تعالى: ﴿ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل : ١٢١)، ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الصافات : ٢٣) وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة وكذلك قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى : ٥٢) وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ (الأعراف : ٤٣) أي: وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً» اهـ.

قال **ابن برى**: يقال هديته إلى الطريق بمعنى عرفته فيعدى إلى مفعولين ويقال: هديته إلى الطريق وللطريق على معنى أرشدته إليها، فيعدى بحرف الجر كأرشدت. قال: ويقال: هديت له الطريق على معنى بينت له الطريق ويبدو أن الهداية على مراتب، فالبعيدُ الضال عن الطريق يحتاج إلى هاد يدله على الطريق ويوصله إليه فهنا نستعمل «يهدي إلى» أي: يوصل إلى ويرشد إلى. والذي يصل إلى الطريق يحتاج إلى هاد يعرفه

بأحوال الطريق ومراحلها، وما فيها من مخاوف وأماكن الهلكة والأمن ويعرّفه بما يحتاجه السالك في هذه الطريق، وهنا نستعمل «هداه الطريق».

أما اللام فإنها تستعمل في اللغة للتعليل، أي: لبيان الغاية من الحدث، وقد تستعمل لانتهاء الغاية أيضاً كأن تقول «جئتُ لطلبِ العلم» أي إنَّ طَلَبَ العلم غاية المجيء وعِلَّته، و «جئت للدار» بمعنى: جئت إليها. وقد تستعمل اللام مع الهداية لبيان الغاية من الحدث، فسالك السبيل يريد الوصول إلى غاية وليس الطريق غاية في نفسه، فيؤتى باللام عند هذه الغاية فيقال: «هداه لكذا» أي: أبلغه لها، فكانت غاية سلوكه وسيره. والإنسان محتاج إلى هذه الهدايات كلها، فإن ضلَّ احتاج من يهديه إلى الطريق، وإن وصل احتاج مَنْ يُعرّفهُ بالطريق، وإن سلك احتاج الوصول إلى الهدف، وألّا ينقطع في الطريق، وإن قطع الطريق، احتاج إلى من يبلغه غايته، وأن ينيله مرامه ويهديه له.

وعند ذلك يقول كما قال أصحاب الجنة، بعد أن قطعوا الطريق وبلغوا مرادهم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ (الأعراف : ٤٣). أي: وفقنا لهذا في خاتمة المطاف، وهي خاتمة الهدايات. ولذا لم نجد استعمال «هدى» مُعَدًّى باللام في القرآن الكريم مع السبيل أو الصراط فلا تجد مثل «هداه لصراط مستقيم» أو «هداه لسبيل مستبين» لأن الصراط ليس هو الغاية؛ بل هو طريقٌ يُوصِلُ إلى الغاية فهو مطلوب لغيره فيقال: هداه إلى الصراط وهداه الصراط. قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ (الحجرات : ١٧). فجعل الإيمان غاية، ذلك أن الإيمان من الأمن، وهو استقرار النفس وطمأنينتها، وأكثر ما يرهق الإنسان فَقْدُ أمنه النفسي فبلوغه غاية من أعظم الغايات.

وقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ (يونس : ٣٥). وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء : ٩). وقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ (الأعراف : ٤٣). وقال: ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (النور : ٣٥). ولم يَرِدْ ذِكْرٌ للسبيل أو نحوه مع اللام كما ترى بل هذه كلها غايات، فالإيمان والحق والتي هي أقوم والنورُ والجنة، كلها غاياتٌ مُرادةٌ مطلوبة، وقد استعملت اللام معها.

والملاحظ أيضاً أن هذه الهداية، وهي الهداية للغاية والانتهاء إليها اختصَّها اللهُ لنفسه أو لقرآنه، فلم يستعمل «هدى لكذا» إلّا له سبحانه أو لكتابه فهو المبلغ للغايات بخلاف هواه كذا أو هداه إلى كذا، فقد استعمله له ولغيره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢). وقال: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ٤٣).

وقد تقول: لكن القرآن استعمل تعبيرين أحياناً في سياق واحد، مما يدل على أنهما بمعنى واحد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥-١٦)، فقال: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

ثم قال: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فعدَّاه بالحرف «إلى» مما يدل على أنهما بمعنى واحد.

ونحو قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ (يونس: ٣٥)، فعداه مرة بإلى ومرة باللام فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، فعدّاه بإلى ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ فعداه باللام، ثم قال: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ فجعلها بمعنى واحد.

والحق أنها ليست بمعنى واحد، وأن هناك ما يقتضي هذا الاختلاف، فبالنسبة إلى الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فإن الذي اتَّبعَ رضوانَ الله ليس ضالاً ولا مبتعداً عن الصراط بل هو فيه، فهو محتاج إذن إلى مَنْ يهديه الطريق ويعرّفه إياه، وليس محتاجاً إلى من يوصله إليه، وأما الذي في الظلمات فيحتاج إلى من يخرجه منها ويدلّه على الطريق ويوصله إليه فهو

ليس في الطريق الصحيح؛ ولذا قال: ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: يوصلهم إليه.

فاقتضى كلُّ موضعٍ التعبيرَ الذي ورد فيه. وهكذا الأمر بالنِّسبة إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾ (يونس: ٣٥). فإن الشركاء لا يستطيعون الدلالة على الحق والإرشاد إليه أصلاً. ولكن الله يهدي إلى الحق وللحق، فالله يرشد إليه ثم يوصلك إلى المنتهى ويُبلِّغك المراد فهو لا يكتفي بأن يقول لك إنّ الطريق من هنا بل يعرّفك به ويوصلك إلى طلبتك، إنك قد تسأل شخصاً عن الطريق فيرشدك إليه ويقول لك: الطريق من هنا، أو ذلك هو الطريق، ولكنه لا يعرف مراحل الطريق ولا يدري ما فيه بَلْه إيصالكَ إلى المنتهى وتنويلك المبتغى، فآلهتهم لا تهدي إلى الحق، أي: لا تُرشد إليه لأنها لا تعرف أين هو بَلْه التعريفَ به والإيصال إلى خاتمته لحين تنويل المراد.

إن الله سبحانه وتعالى لا يهدي إلى الحق فقط، بل يعرّفك إياه ويبيّنه لك، ويبلّغك إياه، وأما شركاؤهم فلا يدرون الحق أين هو؟ وفرقٌ بعيد بين الحالين فشركاؤهم لا يعرفون مبتدأ الطريق، والله يوصلك إلى الخاتمة ويبلغك المراد. فالفرق واضح بين التعبيرين.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فقد عَدَّى فِعْلَ الهداية بنفسه، ولم يُعَدِّهِ بالحرف وذلك ليجمع عدة معانٍ في آن واحد، ذلك أن التعديةَ من دون حرفٍ تُقال لمن يكون فيه ولمن لا يكون فيه، فهنا نطلب الهداية لمن كان في الطريق فيعرّفه به ويبصّره بشأنه، ولمن ضل وانحرف من المؤمنين عن الجادّة فيرده إلى الجادة فشمل القسمين. ولما كان هؤلاء من الموحدين الحامدين لله كان المعنى علاوةً على ما مَرَّ طلب استمرار الهداية على الطريق المستقيم، والتثبيت على الهدى والزيادة فيه كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ (محمد: ١٧). «فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهدى ورسوخه فيها، وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها».

فيكون معنى ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ عرِّفنا الطريقَ الحق وردّنا إليه ردّاً جميلاً إذ ما ضللنا أو انحرفنا، وثبِّتنا على الهدى وزِدْنا هدى.

جاء في (**البحر المحيط**): «ومضمون هذه الجملة طلب استمرار الهداية إلى طريق مَنْ أنعم الله عليهم، لأن مَن صَدَر منه حمد الله وأخبر بأنه يعبده ويستعينه، فقد حصلت له الهداية، لكن يسأل دوامها واستمرارها».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ (الفاتحة: ٦-٧).

قال د. **فاضل**: قد تقول: ولِمَ لَمْ يقدم المفعول مع الهداية كما فعل مع العبادة والاستعانة؟ لِمَ لم يقل: «إيَّانا اهدِ» كما قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾؟

والجواب: أنه لا يصح التقديم لأنه لا يصلح طلب التخصيص بالهداية دون سائر الناس فلا يصح أن تقول: «اللهم اهدني ولا تهدِ أحداً سواي» أو: «اللهم ارحمني ولا ترحم أحداً غيري» بل لكَ أنْ تسأل الهداية لنفسك ولا تَقْصرها عليكَ، فلو قلت: «إيانا اهد» لكان المعنى: اهدنا ولا تهدِ أحداً سوانا، وهذا لا يصح.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قال: «اهدنا» ولم يقل: «اهدني»؟

وذلك لأكثر من سبب:

منها: أنه مناسبٌ للجمع في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، «لأنه لما أخبر المتكلم أنه هو ومن معه يعبدون الله ويستعينونه سأل له ولهم الهداية إلى الطريق الواضح، لأنهم بالهداية إليه تَصحُّ منهم العبادة. ألا ترى أن من لم يهتد إلى السبيل الموصلة لمقصوده لا يصح له بلوغ مقصوده».

وجاء في (**تفسير الرازي**): «كأن العبد يقول: سمعت رسولك يقول: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب» فلما أردت تحميدك ذكرت حمد الجميع فقلت: «الحمد لله»، ولما

ذكرت العبادة ذكرت عبادة الجميع فقلت: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ولما ذكرت الاستعانة ذكرت استعانة الجميع فقلت: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فلا جرم لما طلبت الهداية طلبتها للجميع فقلت: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، ولما طلبت الاقتداء بالصالحين طلبت الاقتداء بالجميع فقلت: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، ولما طلبت الفرار من المردودين فررت من الكل فقلت: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾».

ومنها: «أن الدعاء كلما كان أعم كان إلى الإجابة أقرب». **ومنها**: أن فيه أن تحب للآخرين ما تحب لنفسك فيغسل ما في النفس من درن الأَثَرة ونوازع الانفراد بالخير، ويشيع عند المسلم حب التعاون. **ومنها**: إشاعة الروح الجماعية بين الأفراد. **ومنها**: أن الاجتماع على الهدى، تثبيتٌ وقوة، وأن كثرة السائرين على الطريق تورث الأُنس وتهوِّن مشقة السير بخلاف الانفراد في السير فإنه يورث الوحشة ويستجلب الملل، إن الإنسان إذا كان معه سالكون لم يستوحش، وكلما كثر السالكون شاع الأمن ورسخت الطمأنينة، أما السالك وحده فإنه قد يستوحش وقد يضعف وقد يسقط، وقد تأكله الذئاب، ويد الله مع الجماعة وإنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصية.

وهذا الأمر حاصل لمن سلك سبل الدنيا ولمن سلك سبل المبادئ والقيم سواء بسواء، وهو في الثانية أظهر وأخطر.

ثم انظر من ناحية أخرى، كيف ارتبط قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ بأول السورة ووسطها وآخرها. فارتبط بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ في أول السورة، لأن من معاني الرب المربي، وأول مهامّ المربي هي الهداية كما ذكرنا.

وارتبط بقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لأن مَنْ هداه الله فقد رحمه، فإنك تطلبُ من الرحمن الرحيم أن لا يتركك ضالًّا لا تهتدي إلى الطريق، فإن الحق لذاته والخير لأجل العمل به، فهؤلاء هم المرادون بقول: ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فإن اختلّ قيدُ العمل فهم الفَسَقة،

وهم المغضوب عليهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ (النساء: ٩٣).

وإن اختلّ قيدُ العلم، فهم الضالون لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ (يونس: ٣٢). ثم لننظر من ناحية أخرى كيف قال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فعبر عن المنعم عليهم بالفعل الماضي، ثم قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فعبر عنهم بالصورة الاسمية. أما جعل فعل الإنعام فعلاً ماضياً فذلك ليتعيَّنَ زمانُه، وليبين أن المقصود صراط الذين ثَبتَ إنعامُ الله عليهم وتَحقَّقَ وهم الأنبياء والصِّدِّيقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩).

ولو قال: «صراطَ الذين تُنعِمُ عليهم» لأغفلَ كُلَّ مَنْ مضى من رسل الله والصالحين، لأن الفعل المضارع أكثر ما يدل على الحال. بل لم يدل على أنه أنعم على أحدٍ فيما مضى، ونحو ذلك أن تقول: «أعطني ما أعطيت أمثالي» أو تقول: «أعطني ما تُعطي أمثالي» فإن العبارة الأولى تفيد أنه أعطى قبله من أعطى، وأما الثانية، فلا تفيد أنه أعطى أحداً من قبل، بل قد يكون ذلك العطاء ابتداء، ولاحتمل أن يكون صراط الأولين غير صراط الآخرين ولم يُفِد التواصلَ بين زمر المؤمنين من لدن آدم ، إلى قرب الساعة، ولم يفهم أن هذا الطريق، إنما هو طريقٌ مسلوكٌ سلكه من قبلنا الرسل وأتباعهم، ولكان صراط الذين ينعم عليهم، أقل شأناً من صراط الذين أنعم عليهم، لأن الذين أنعم عليهم، فيهم أولو العزم من الرسل، وفيهم الأنبياء وأتباعهم، وأما من ينعم عليهم بعد ذلك، فليس فيهم نبيٌّ ولا رسول.

ثمّ إنّ الإتيان بالفعل الماضي، يدل على أنه كلما مر الزمن كثر عددُ الذين أنعم الله عليهم، لأن الحاضر يلتحق بالماضي، وهكذا تتسع دائرة المنعَم عليهم بمرور الزمن بخلاف قولنا: «صراط الذين ينعم الله عليهم»، فقد يخص الوقت الذي طلب فيه

الداعي الهداية، ولربما كان عدد المهديين آنذاك قليلاً. فانظر الفرق بين قوله: «أنعمت عليهم» والقول: «تنعم عليهم».

وأما قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بالاسم، فليشمل سائر الأزمنة. فإن قلت: ولِمَ لمْ يقل: «صراط المنعَمِ عليهم» ليشمل سائر الأزمنة أيضاً؟

فالجواب: أن كل تعبير في مكانه أمثل وأحسن. فلو قال: «المنعَم عليهم» لم يبيّن المُنعِم الذي أنعم عليه، والنعمة إنما تقدر بقدر المنعِم، فإن كان المنعم صديقاً يختلف عما إذا كان أميراً أو سلطاناً، وذلك من حيث مقدار النعمة، ومن حيث التكريم لمن نالها. فإن كان المنعِم عظيماً عَظُمتْ نعمتهُ، وإن كان أدنى من ذلك كانت على قدر صاحبها، وكذلك من حيث التكريم، فالذي ينعم عليه السلطان غير الذي ينعم عليه أحد أفراد الرعية، فإن قولك: «فلان أنعم عليه الخليفة» فيه من التعظيم والتكريم ما ليس في قولك: فلان أنعم عليه رئيس البلدية أو المحافظ. ففي قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ من التكريم وعظم النعمة ما ليس في «المنعَم عليهم».

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنّ الله سبحانه ينسب الخير أو الفضل إلى نفسه، ولا ينسب إلى نفسه الشر والسوء، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ (الجن: ١٠). فبنى الشرَّ للمجهول ونسبَ الخيرَ إلى ذاته الكريمة.

كما قال: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ (الإسراء: ٨٣). فنسب النعمة إلى نفسه ولم ينسب إلى نفسه الشر، فلم يقل: «وإنا مسسناه بالشر» وكما قال ﷺ: «**والخيرُ كلُّه في يديك، والشر ليس إليك**».

والنعمة تَفضُّلٌ وخير، فهو ينسبها إلى نفسه وليس أحدٌ مُولي نعمة على الحقيقة إلا الله كما قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣). ولذلك ينسب النعم كلها إلى نفسه، ولم يَرِدْ فِعْلُ النعمة مسنداً إلى غير الله في القرآن الكريم قال: ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ (النساء: ٧٢). وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا

لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ (القصص : ١٧). وقال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ (الزخرف : ٥٩). ولم يسند فعل النعمة إلى غير الله، إلا في قوله: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ ﴾ (الأحزاب : ٣٧). فقد أسنده إلى الرسول بعد أن أسنده إلى الله أولاً، وهي نعمةٌ خاصة أنعم بها رسول الله على زيد بن حارثة الذي رباه، وجعله بمنزلة ابنه. فنسبة النعمة والفضل إلى الله أمثلُ وأكمل.

وأما المغضوب عليهم، فقد بناه للمفعول ليعم الغضب عليه: غضب الله وغضب الغاضبين لله ولا يتخصص بغاضبٍ معين، فهم مغضوبٌ عليهم من كل الجهات. بل إن هؤلاء سيغضب عليهم أخلصُ أصدقائهم وأقرب المقربين إليهم، يوم ينقطع حبلُ كل مودّة في الآخرة غير حبل المودّة في الله. ثم انظر من ناحية أخرى كيف جعل كلاً من المغضوب عليهم دائماً ثابتاً لا يزول واتصافهم بالضلال على وجه الثبوت أيضاً فلا يرجى لهم خير ولا هدى فلم يقل: «صراط الذين غضب عليهم وضلوا» فيجعل الغضب أو الضلال في زمن دون زمن. بل إن هذا الوصف لازم لهم إلى يوم القيامة ثابت لا يزول فهم مغضوب عليهم في الدنيا والآخرة وضالون في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ (الإسراء : ٧٢).

وقال د. **فاضل** أيضاً: وقد تقول: ولِمَ قدّم الغضبَ على الضلال، فقال: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ولِمَ لَمْ يقدم الضالين على المغضوب عليهم؟

والجواب: إن المقام يقتضي تقديم المغضوب عليهم من أوجه: منها: أن المغضوب عليه أشد ضلالاً وجرماً وعقوبة لأنه علم وجحد، وليس من علم كمن لا يعلم.

فهو أولى بالسؤال بالمباعدة عنه، فإنَّ الضالَّ إذا علم الحق، فربما اتبعه وربما خالفه فيكون من المغضوب عليهم.

ومنها: أنه جاء في الحديث الصحيح أن المغضوب عليهم اليهود والضالين النصارى. واليهود أسبق من النصارى فناسب أن يبدأ بهم.

ومنها: أن صفة المغضوب عليهم هي أول معصية ظهرت في الوجود وأقدمها على الإطلاق، وهي معصية إبليس، ذلك أنه كان عالماً بالحق عارفاً له، فعصى ربه وخالف أمره، فغضب الله عليه ولعنه، ثم قطع إبليس عهداً على نفسه أن يُضلَّ بني آدم فقال: ﴿ **وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ** ﴾ (النساء: ١١٩) فناسب أن يبدأ بذكر أولى المعاصي على الإطلاق وأن يتبعها بما قطع إبليس على نفسه أن يفعله وهو الإضلال.

ومنها: أن هذه الصفة، أعني صفة المغضوب عليهم، هي أول معصية ظهرت على الأرض، وهي قتل ابن آدم أخاه، بعد أن قَرَّبا قرباناً، فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر، فقتله متعمداً ظالماً له. وبذا تبين أن صفة المغضوب عليهم، هي أقدم صفة من صفات المعاصي، ظهرت في الوجود في الملأ الأعلى، وبعدها على الأرض، فناسبَ أن يبدأ بها.

ومنها: أن المغضوب عليه، يقابل الـمُنْعَم عليه، ولا يقابل الضال، فإنك تقول: «فلان أنعم عليه الخليفة، وفلان غضب عليه» ولا تقول: «فلان أنعم عليه الخليفة وفلان ضل». فناسب أن يضع بجنب الذين أنعم الله عليهم، المغضوب عليهم.

ومنها: أن تقديم المغضوب عليهم، هو المناسب لِـمُفْتَتَحِ السورة وما بعده، ذلك أن الحامد لله العارف بصفاته الخاصَّ إياهُ بالعبادة والاستعانة إذا زاغ كان من المغضوب عليهم، لأنه علم وخالف، فكان من المناسب أن يسأل الله المباعدة عن ذلك أولاً بخلافِ مَنْ لا يعلم، وكان ضالاً، وأما سؤال الهداية بعد ذلك وهو قوله: ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴾ فهو المناسب للسؤال بالمباعدة عن الضلال. فلما قَدَّم الحمدَ وما إليه ناسب السؤال بالمباعدة عن الغضب، ولما طلب بعد ذلك الهداية، ناسب أن يذكر بعد ذلك، المباعدة عن الضلال.

تنبيه: قال د. **فاضل**: اختيار كلمة ﴿ صِرَٰطَ ﴾ دون كلمة «طريق» أو«سبيل» له سببه، ذلك أن ﴿ صِرَٰطَ ﴾ على وزن «فعال» من صرط وهو من الأوزان الدالة على

الاشتمال كالرباط والشداد فيشتمل على كل السالكين ولا يضيق بهم فهو واسع رحب بخلاف كلمة «طريق» فإنها «فعيل» بمعنى «مفعول» من «طرق» بمعنى «مطروق» وهذا لا يدل في صيغته على الاشتمال، فقد يضيق بالسالكين ولا يستوعبهم. وكذلك كلمة «السبيل» فهي كأنها «فعيل» بمعنى «مفعول» من أسبلت الطريق إذا كثرت سابلتها كالحكيم بمعنى المُحكم.

فوائد إيمانية :

١- قال **مزاحم بن زفر**: صلى بنا سفيان الثوري المغرب فقرأ حتى بلغ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة : ٥) بكى حتى انقطعت قراءته ثم عاد فقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. وقال **محمد بن عوف الحمصي**: رأيت أحمد بن أبي الحواري قام يصلي العشاء فاستفتح بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فطفت الحائط كله ثم رجعت فإذا هو لا يجاوزها ثم نمت ومررت في السحر وهو يقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلم يزل يرددها إلى الصبح. وقال **د. عبد العزيز العويد**: صليت خلف الشيخ عبد الرحيم الدوسري رحمه الله كثيراً فما أذكر أنه استقامت له قراءة الفاتحة بدون بكاء خصوصاً عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . وقال **الطحاوي**: أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة : ٦) فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصبه شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة. «انظر كتاب تدبر المجموعة (١)»

٢- سر اختيار كلمة «آمين» بعد دعاء الفاتحة ولم يقل مثلاً «استجب»، أنّ «آمين» مشتقة من الأمن، ومدلولها أنّ المدعو سبحانه مأمون منه أن يردّ من دعاه بلا سببٍ، فهو لا يعجزه شيء ولا يمنعه، نقله البقاعي عن الحرالي.

❁❁❁

سُورَةُ البَقَرَةِ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة : ٨).

فقال ﴿مَن يَقُولُ﴾ بالمفرد ولم يقل «يقولون» لأنّ الإيمان يلزم منه إقرار كل واحدٍ على حدته بالشهادة وأحكام الإسلام، وأمّا «يقولون» فقد تطلق على قول الأكثر دون قول الجميع.

۞ قَالَ تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (البقرة : ١٤) فتأمل كيف قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بالتأكيد مع أن مقتضى الظاهر أن يكون كلامهم بعكس ذلك لأن المؤمنين يشكون في إيمان المنافقين وقومهم لا يشكون في بقائهم على دينهم، لأنه لما بدا من إبداعهم في النفاق عند لقاء المسلمين ما يوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر وتتطرق به التهمة إلى قلوبهم احتاجوا إلى تأكيد ما يدل على أنهم باقون على دينهم! (أفاده ابن عاشور).

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا﴾ (البقرة : ٢٢)، أتى في الثمر بجمع القلة، ونكر الرزق مع المشاهدة بأنهما بالغان في الكثرة إلى حدٍ لا يُحصى تحقيراً لهما في جنب قدرته إجلالاً له سبحانه، أفاده البقاعي.

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (البقرة : ٢٥).

قال **ابن عاشور**: فإن قلت لماذا لم يقل «وعملوا الصالحة» بالإفراد فقد قالوا إن استغراق المفرد أَشْمَلُ من استغراق المجموع؟ قلت: تلك عبارة سرت إليهم من كلام صاحب الكشاف في هذا الموضوع من تفسيره؛ إذ قال: إذا دخلت لام الجنس على المفرد كان صالحاً لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه وإذا دخلت على المجموع صلح أن يراد به جميع الجنس وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه.

قال **ابن عاشور**: ولعل سائلاً يسأل عن وجه إتيان العرب بالجموع بعد أل الاستغراقية إذا كان المفرد مغنياً غناءها فأقول: إن أل المعرفة تأتي للعهد وتأتي للجنس مراداً به الماهية وللجنس مراداً به جميع أفراده التي لا قرار له في غيرها فإذا أرادوا منها الاستغراق نظروا فإن وجدوا قرينة الاستغراق ظاهرة من لفظ أو سياق نحو ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ ، ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ اقتنعوا بصيغة المفرد لأنه الأصل الأخف وإن رأوا قرينة الاستغراق خفية أو مفقودة عدلوا إلى صيغة الجمع لدلالة الصيغة على عدة أفراد لا على فرد واحد ولما كان تعريف العهد لا يتوجه إلى عدد من الأفراد غالباً تعين أن تعريفها للاستغراق نحو ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لئلا يتوهم أن الحديث على محسن خاص نحو قولها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ لئلا يتوهم أن الحديث عن خائن معين تعني نفسها فيصير الجمع في هذه المواطن قرينة على قصد الاستغراق.

قلتُ: ويصح أن يقال هاهنا: قوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يدل على أنّ النجاة التامّة تكون بفعل عدد من الأعمال الصالحة مع الإيمان ولا يكفي فعل عمل صالحٍ واحد، ولم تأتِ «الصالحة» لتدل على عدم اشتراط فعل جميع الصالحات.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة : ٣٤).

قال **ابن عاشور**: والذي أراه أحسن الوجوه في معنى ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أن مقتضى الظاهر أن يقول «وكفر» كما قال: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ فعدل عن مقتضى الظاهر إلى ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لدلالة كان في مثل هذا الاستعمال على رسوخ معنى الخبر في اسمها والمعنى أبى واستكبر وكفر كفراً عميقاً في نفسه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ (الأعراف : ٨٣) وكقوله تعالى: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل : ٤١) دون أن يقول أن لا تهتدي لأنها إذا رأت آية تنكير

عرشها ولم تهتد كانت راسخة في الاتصاف بعدم الاهتداء، وأما الإتيان بخبر كان ﴿ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ دون أن يقول وكان كافراً، فلأن إثبات الوصف لموصوف بعنوان كون الموصوف واحداً من جماعة تثبت لهم ذلك الوصف أدل على شدة تمكن الوصف منه لو أثبت له الوصف وحده بناء على أن الواحد يزداد تمسكاً بفعله إذا كان قد شاركه فيه جماعة لأنه بمقدار ما يرى من كثرة المتلبسين بمثل فعله تبعد نفسه عن التردد في سداد عملها، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (النَّمل : ٢٧) وقوله الذي ذكرناه آنفاً ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ وهو دليل كنائي واستعمال بلاغي جرى عليه نظم الآية وإن لم يكن يومئذ جمع من الكافرين بل كان إبليس وحيداً في الكفر، وهذا منزع انتزعته من تتبع موارد مثل هذا التركيب في هاتين الخصوصيتين خصوصية زيادة «كان» وخصوصية إثبات الوصف لموصوف بعنوان أنه واحد من جماعة موصوفين به.

وقال **ابن عاشور** أيضاً: وغير أسلوب إسناد القول إلى الله فأتى به مسنداً إلى ضمير العظمة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ وأتى به في الآية السابقة مسنداً إلى رب النبي ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ (البَقَرَة : ٣٠) للتفنن ولأن القول هنا تضمن أمراً بفعل فيه غضاضة على المأمورين فناسبه إظهار عظمة الآمر وأما القول السابق فمجرد إعلام من الله بمراده ليظهر رأيهم. ولأنّ الكلام عن خلقة آدم، وفي ظهره نبوة، فناسب الإسناد إلى الموصوف بالربوبية المؤذنة بتدبير شأن المربوبين، وأُسند إلى ضمير النبي لكونه أشرف المربوبين.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البَقَرَة : ٣٨).

قال **ابن عاشور**: والإتيان في قوله تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم ﴾ بحرف الشرط الدال على عدم الجزم بوقوع الشرط إيذان ببقية من عتاب على عدم امتثال الهدى الأول

وتعريض بأن محاولة هديكم في المستقبل لا جدوى لها، كما يقول السيد لعبده إذا لم يعمل بما أوصاه به فغضب عليه ثم اعتذر له فرضي عنه: إن أوصيتك يوماً آخر بشيء فلا تعد لمثل فعلتك يعرض له بأن تعلق الغرض بوصيته في المستقبل أمر مشكوك فيه؛ إذ لعله قليل الجدوى، وهذا وجه بليغ فات صاحب الكشاف.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿**قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا**﴾ (البقرة : ٣٨)، فأعاد قوله ﴿ **ٱهْبِطُواْ** ﴾ بعد قوله ﴿**وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ** ﴾ (البقرة : ٣٦). قال **ابن عاشور** مبيناً وجه ذلك: ويحتمل أن تكون لحكاية أمر ثان لآدم بالهبوط كيلا يظن أن توبة الله عليه ورضاه عنه عند مبادرته بالتوبة عقب الأمر بالهبوط قد أوجبت العفو عنه من الهبوط من الجنة، فأعاد له الأمر بالهبوط بعد قبول توبته ليعلم أن ذلك كائن لا محالة لأنه مراد الله تعالى وطور من الأطوار التي أرادها الله تعالى من جعله خليفة في الأرض وهو ما أخبر به الملائكة، وفيه إشارة أخرى وهي أن العفو يكون من التائب في الزواجر والعقوبات، وأما تحقيق آثار المخالفة وهو العقوبة التأديبية فإن العفو عنها فساد في العالم لأن الفاعل للمخالفة إذا لم ير أثر فعله لم يتأدب في المستقبل، فالتسامح معه في ذلك تفويت لمقتضى الحكمة، فإن الصبي إذا لوث موضعاً وغضب عليه مربيه ثم تاب فعفا عنه فالعفو يتعلق بالعقاب، وأما تكليفه بأن يزيل بيده التلويث الذي لوث به الموضع فذلك لا يحسن التسامح فيه؛ ولذا لما تاب الله على آدم رضي عنه ولم يؤاخذه بعقوبة ولا بزاجر في الدنيا ولكنه لم يصفح عنه في تحقق آثر مخالفته وهو الهبوط من الجنة ليرى أثر حرصه وسوء ظنه. هكذا ينبغي أن يكون التوجيه إذا كان المراد من اهبطوا الثاني حكاية أمر ثان بالهبوط خوطب به آدم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿**يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ**﴾ (البقرة : ٤٠).

قال **ابن عاشور**: ومن لطائف القرآن في اختيار لفظ العهد للاستعارة هنا لتكليف الله تعالى إياهم أن ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف عندهم في كتبهم فإن التوراة المنزلة

على موسى تلقب عندهم بالعهد لأنها وصايات الله تعالى لهم، ولذا عبر عنه في مواضع من القرآن بالميثاق وهذا من طرق الإعجاز العلمي الذي لا يعرفه إلا علماؤهم وهم أشح به منهم في كل شيء بحيث لا يعرف ذلك إلا خاصة أهل الدين، فمجيئه على لسان النبي العربي الأمي دليل على أنه وحي من العلام بالغيوب. والعهد قد أخذ على أسلافهم بواسطة رسلهم وأنبيائهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ (آل عمران : ٨١) الآية، وإذ قد كان المخاطبون بالآية قد تلقوا الشريعة من أسلافهم بما فيها من عهد فقد كان العهد لازماً لهم وكان الوفاء متعيناً عليهم لأنهم الذين جاء فيهم الرسول الموعود به.

وبيّن سرّ قوله ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ بالفاء، فقال: والتقديم إذا اقترن بالفاء كان فيه مبالغة لأن الفاء كما في هذه الآية مؤذنة بشرط مقدر، ولما كان هذا الشرط لا دليل عليه إلا الفاء تعين تقديره عاماً نحو إن يكن شيء أو مهما يكن شيء كما أشار له صاحب الكشاف في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر : ٣) حيث قال: «ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل مهما كان فلا تدع تكبيره»، فالمعنى هنا: وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ومهما يكن شيء فإياي ارهبوني.

فائدة: قال **ابن عاشور**: نقل عن صاحب الكشاف أنه قال: إن في قوله تعالى ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ وجوهاً من التأكيد: تقديم الضمير المنفصل وتأخير المتصل والفاء الموجبة معطوفاً عليه ومعطوفاً تقديره إياي ارهبوا فارهبون أحدهما مقدر والثاني مظهر وما في ذلك من تكرار الرهبة وما فيه من معنى الشرط بدلالة الفاء كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئاً فارهبون أ. هـ. يريد أن في تقديم الضمير إفادة الاختصاص والاختصاص تأكيد. قال صاحب المفتاح: ليس الحصر والتخصيص إلا تأكيداً على تأكيد. وأما تأخير الضمير المتصل فلما في إعادة الإسناد من التقوي. ومراد الزمخشري بقوله معطوفاً عليه

ومعطوفاً العطف اللغوي أي معقباً ومعقباً به لا العطف النحوي إذ لا يستقيم هنا، فتحصل أن في التعبير عن مثل هذا الاختصاص في كلام البلغاء مراتب أربع: مجرد التقديم للمفعول نحو إياك نعبد، وتقديمه على فعله العامل في ضميره نحو زيد ارهبته، وتقديمه على فعله مع اقتران الفعل بالفاء نحو ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، وتقديمه على فعله العامل في ضميره مع اقتران الفعل بالفاء نحو ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾، فالثانية والثالثة والرابعة أوكد منهما.

۞ **قال تعالى** لبني إسرائيل: ﴿**وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ**﴾ (البقرة: ٤١).

قال **ابن عاشور:** والمراد بما معهم كتب التوراة الأربعة وما ألحق بها من كتب الأنبياء من بني إسرائيل كالزبور وكتاب أشعياء وأرمياء وحزقيال ودانيال وغيرها، ولذا اختير التعبير بما معكم دون التوراة مع أنها عبر بها في مواضع غير هذا، لأن في كتب الأنبياء من بعد موسى بشارات ببعثة محمد أصرح مما في التوراة فكان التنبيه إليها أوقع.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿**أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ **(البقرة: ٤٤)**

قال في (الدر المنثور): وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي قلابة في الآية قال: قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً.

وأخرج وكيع وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبزار وابن أبي داود في البعث وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت ليلة أُسريَ بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت، فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون**».

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: «**يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقَى في النار، فتندلق به أقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان مالك، ما أصابك، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر....؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**».

وأخرج الخطيب في اقتضاء العلم بالعمل وابن النجار في تاريخ بغداد عن جابر عن النبي ﷺ قال: «**اطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فقالوا: بم دخلتم النار، وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم؟! قالوا: إنا كنا نأمركم ولا نفعل**».

وأخرج الطبراني والخطيب في اقتضاء العلم بالعمل وابن عساكر بسند ضعيف عن الوليد بن عقبة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ أناساً من أهل الجنة يتطلعون إلى أناس من أهل النار فيقولون: بم دخلتم النار، فوالله ما دخلنا الجنة إلا بتعليمكم؟! فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل**».

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الوليد بن عقبة أنه خطب الناس، فقال في خطبته: ليدخلن أمراء النار ويدخلن من أطاعهم الجنة، فيقولون لهم وهم في النار: كيف دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بطاعتكم؟ فيقولون لهم: إنا كنا نأمركم بأشياء نخالف إلى غيرها.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال: يشرف قوم في الجنة على قوم في النار فيقولون: ما لكم في النار، وإنما كنا نعمل بما تعملون ....؟! قالوا: كنا نعلمكم ولا نعمل به.

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن الشعبي قال: يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار، فيقولون: ما أدخلكم النّار وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ قالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله.

وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء والأصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل العالم الذي يُعلِّم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه**».

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن جندب البجلي قال: إنّ مثل الذي يعظ الناس وينسى نفسه كمثل المصباح يضيء لغيره ويحرق نفسه.

وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الذي يعلم الناس وينسى نفسه كمثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها**».

وأخرج ابن قانع في معجمه والخطيب في الاقتضاء عن سليك قال: سمعت النبي يقول: «**إذا علّم العالم ولم يعمل كان كالمصباح يضيء للناس ويحرق نفسه**».

وأخرج الأصبهاني في الترغيب بسند ضعيف عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجاء بالعالم السوء يوم القيامة فيقذف في جهنم فيدور بقصبه ـ قلت: وما قصبه؟ قال: أمعاؤه ـ كما يدور الحمار بالرحى، فيقال: يا ويله، بم لقيت هذا وإنما اهتدينا بك؟! قال: كنت أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه**».

وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل بما قال ودعا إليه**».

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال: يا ابن عباس اني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل. قال: قوله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثاني قال قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث قال قول العبد الصالح شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك.

وأخرج ابن المبارك في الزهد والبيهقي في شعب الإيمان عن الشعبي قال: ما خطب خطيب في الدنيا إلا سيعرض الله عليه خطبته ما أراد بها.

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال: ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات.

وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن مسعود قال: ويل للذي لا يعلم ولو شاء الله لعلمه، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل سبع مرات.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٥).

قال **محمد الخضر حسين** في أسرار التنزيل: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٥) المعنى: أن الصلاة صعبة إلا على الخاضعين الذين أسلموا وجوههم لله. والصلاة من حيث إنها قيام وركوع وسجود وجلوس ليس فيها صعوبة. والصعوبة من جهة أن الصلاة بحق هي التي يدخلها المصلي بقلب حاضر فيؤديها مبتغياً رضا الله تالياً القرآن بتدبر ناطقاً بالدعوات والأذكار التي تشتمل عليها عن قصد إلى كل معنى دون أن تجري على لسانه وهو في غفلة عن معانيها التي هي روح العبادة.

فائدة: قال **البقاعي** مبيناً سر قوله ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ عقب قوله: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٤٢): ولما أنكر عليهم اتباع الهوى أرشدهم إلى دوائه بأعظم أخلاق النفس وأجل أعمال البدن فقال عاطفاً على ما مضى من الأوامر ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ .

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ (البقرة: ٤٩).

قال **ابن عاشور**: والأهل والآل يراد به الأقارب والعشيرة والموالي وخاصة الإنسان وأتباعه. والمراد من آل فرعون وزعته ووكلاؤه. ويختص الآل بالإضافة إلى ذي شأن وشرف دنيوي ممن يعقل فلا يقال آل الجاني ولا آل مكة. ولما كان فرعون في

الدنيا عظيماً وكان الخطاب متعلقاً بنجاة دنيوية من عظيمٍ في الدنيا أطلق على أتباعه آل فلان، فلا توقف في ذلك حتى يحتاج لتأويله بقصد التهكم كما أُوِّل قوله تعالى: ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ ، لأنّ ذلك حكاية لكلام يقال يوم القيامة وفرعون يومئذ محقر هلك عنه سلطانه. فإن قلت إنّ كلمة أهل تطلق أيضاً على قرابة ذي الشرف لأنها الاسم المطلق فلماذا لم يؤت بها هنا حتى لا يطلق على آل فرعون ما فيه تنويه بهم؟ قلت: خصوصية لفظ آل هنا أن المقام لتعظيم النعمة وتوفير حق الشكر والنعمة تعظم بما يُحفُّ بها، فالنجاة من العذاب وإن كانت نعمة مطلقاً إلا أن كون النجاة من عذاب ذي قدرة ومكانة أعظم لأنه لا يكاد ينفلت منه أحد. وإنما جعلت النجاة من آل فرعون ولم تجعل من فرعون مع أنه الآمر بتعذيب بني إسرائيل تعليقاً للفعل بمن هو من متعلقاته على طريقة الحقيقة العقلية، وتنبيهاً على أن هؤلاء الوزعة والمكلفين ببني إسرائيل كانوا يتجاوزون الحد المأمور به في الإعنات على عادة المنفذين فإنهم أقل رحمة وأضيق نفوساً من ولاة الأمور كما قال الراعي يخاطب عبد الملك بن مروان:

إن الـــذين أمـــرتهم أن يعـــدلوا ... لم يفعلـــوا ممـــا أمـــرت فتـــيلا

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (البقرة : ٥٠).

لما كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة جعله الله تعالى نكالاً لمن ادّعى الربوبية وعلى قدر الذنب يكون العقاب ويناسب دعوى الربوبية والاعتلاء انحطاط المدَّعي وتغييبه في قعر الماء. **أفاده الألوسي.**

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (البقرة : ٥١).

قال **ابن عاشور**: فائدة ذكر ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ لزيادة التشنيع بأنهم كانوا جديرين بانتظارهم الشريعة التي تزيدهم كمالاً بدلاً من النكوص على أعقابهم عما كانوا عليه من

التوحيد والانغماس في نعم الله تعالى وبأنهم كانوا جديرين بالوفاء لموسى فلا يحدثوا ما أحدثوا في مغيبه بعد أن رأوا معجزته وبعد أن نهاهم عن هاته العبادة لـما قالوا له: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٨) الآية. وفائدة ذكر ﴿ مِنْ ﴾ للإشارة إلى أن الاتخاذ ابتدأ من أول أزمان بعدية مغيب موسى وهذه أيضاً حالة غريبة لأن شأن التغير عن العهد أن يكون بعد طول المغيب على أنه ضعف في العهد ففي قوله ﴿ مِنْ بَعْدِهِۦ ﴾ تعريض بقلة وفائهم في حفظ عهد موسى.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (البقرة: ٥٥).

قال **ابن عاشور**: ووجه العدول عن أن يقول «عيانًا» إلى قوله ﴿ جَهْرَةً ﴾ لأن جهرة أفصح لفظاً لخفته فإنه غير مبدوء بحرف حلق. والابتداء بحرف الحلق أتعب للحلق من وقوعه في وسط الكلام ولسلامته من حرف العلة، وكذلك يجتبي البلغاء بعض الألفاظ على بعض لحسن وقعها في الكلام وخفتها على السمع وللقرآن السهم المعُلَّى في ذلك وهو في غاية الفصاحة.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ (البقرة: ٥٨، ٥٩).

قال **ابن عاشور**: فائدة إظهار لفظ القول فقال ﴿ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ دون أن يقال: فبدلوه، لدفع توهم أنهم بدلوا لفظ ﴿ حِطَّةٌ ﴾ خاصة وامتثلوا ما عدا ذلك لأنه لو كان كذلك لكان الأمر أهون.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ (البقرة: ٦٠).

قال **ابن عاشور**: وقوله ﴿ لِقَوْمِهِۦ ﴾ مؤذن بأن موسى لم يصبه العطش وذلك لأنه خرج في تلك الرحلة موقناً أن الله حافظهم ومبلغهم إلى الأرض المقدسة؛ فلذلك

وقاه الله أن يصيبه جوع أو عطش وكلل. وكذلك شأن الأنبياء فقد قال النبي ﷺ في حديث وصال الصوم: «**إني لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة: ٦٠) بينما قال في الأعراف: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٠). فقال في البقرة: ﴿ فَٱنفَجَرَتْ ﴾ وقال في الأعراف: ﴿ فَٱنۢبَجَسَتْ ﴾.

قال د. **فاضل**: إنه عُبِّر بالانفجار في سورة البقرة والانبجاس في سورة الأعراف لجملة أسباب منها ـ والله أعلم ـ:

١ـ أن موسى هو الذي استسقى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ فناسب إجابته بانفجار الماء في حين ذكر في سورة الأعراف أن قومَه هم الذين استسقوا موسى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ ﴾ والحالةُ الأولى أكملُ، فناسب إجابته بانفجارِ الماء دونَ الثانية.

٢ـ قال في سورة البقرة: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ أي: أنَّ الله قال ذلك لموسى قولاً، في حين ذكر في الأعراف أن اللهَ أوحى إلى موسى بذلك وحياً ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ والحالةُ الأولى أكملُ وأتمُّ فإن القولَ الصريحَ من الله أكملُ وأقوى من الوحْي، فناسب ذلك ذكرَ الانفجار في البقرة والانبجاس في الأعراف.

٣ـ قال في سورة البقرة: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ﴾ فجمع لهم بين الأكل والشُّرب، ولم يَرِد في الأعراف ذكرُ الشرب، فناسب ذلك أن يُبَالِغَ بذكر الانفجار بالماء في البقرة.

٤ – أن الله أسند القول إلى نفسه في سورة البقرة فقال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ في حين بنى القولَ للمجهول في الأعراف، فقال: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ .

وإسناد القول إلى نفسه يكون في مقام التكريم والتشريف، بخلاف البناء للمجهول، فناسب في مقام التكريم ذكر الانفجار بالماء دون الانبجاس.

٥ – إن القصة في البقرة وردت في مقام تعداد النعم على بني إسرائيل، وفي مقام تكريمهم ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

في حين أن المقامَ في سورة الأعراف، مقامُ تقريعٍ وتأنيبٍ على ما فعلوه وارتكبوه من مآثِمَ، فَنَاسَبَ في مقام تعداد النعم والتكريم ذكرُ حالةِ الانفجار دونَ الحالةِ الأخرى، والله أعلم.

قال تعالى في البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . وقال في النساء: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ . في حين قال في الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

قال د. **فاضل**: فاستعمل ﴿ ٱلطُّورَ ﴾ في آيتي البقرة والنساء، واستعمل ﴿ ٱلْجَبَلَ ﴾ في آية الأعراف، ذلك أن التهديدَ في آية الأعراف أشدُّ فاستعمل لفظَ ﴿ٱلْجَبَلَ﴾ لذلك فإن ﴿ٱلْجَبَلَ﴾ اسم لما طال وعَظُمَ من أوتاد الأرض. ولا يشترط في الطور ذلك.

«فالجبل أعظم من الطور، ولذلك يجيء في مقام الشدة والهول وبيان المقدرة العظيمة اسم (الجبل) وذلك نحو قوله تعالى في قول موسى: ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ

﴿لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف: ١٤٣). فانظر كيف اختار لفظ الجبل على الطور للدلالة على عظم التجلي وأثره.

ولذلك أيضاً ذكر لفظ الجبال دون الأطوار في مقام التهويل والتعظيم والدلالة على القدرة التي لا تحد، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٦، ٧)،وقال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ (النازعات: ٣٢، ٣٣)، وقال في يوم القيامة: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (التكوير: ٣)، وقال: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية: ١٩). ففيها من الدلالة على العظم ما ليس في اسم الطور».

ولذلك استعمَلَ ﴿نَتَقْنَا﴾ مع ﴿ٱلْجَبَلَ﴾ ولم يستعملْ «رَفَعْنا»، لما في النَّتْق من التَّهديد الشّديد والتَّخويف «فإن النَّتْقَ أشدُّ وأقوى من الرَّفْع، ذلك أن معنى النَّتْق: هو الجَذْبُ والزَّعْزَعَةُ والاقتلاعُ، ومعناه أيضاً: هو أن يَقْلَعَ الشيءَ، فيرفَعَهُ من مكانِهِ لِيَرْمِيَ به، هذا هو الأصل في حين أن الرفعَ ضدُّ الوضعِ». كما في لسان العرب.

فأنت ترى أن في نَتْق الجبل من الغرابة والقوة والإخافة والتهديد ما ليس في رَفْع الطور. فأَنْ يُزَعْزَعَ الجبلُ ويُقْلَعَ من مكانِه ويُرْفَعَ لِيُرْمَى به كأن هناك قاذِفاً يقذفُ به عليهم، أمرٌ مرعِبٌ ومخيفٌ وفيه من القوة والشِّدَّة ما ليس في رفعه.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ (البقرة: ٦١)، فقالوا ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ دون ﴿يُخْرِجْ﴾ ليدل على طلبهم لشيء يختصون به دون غيرهم، فهم يطلبون رزقاً من هذه الأشياء يختصون به دون غيرهم، فما أشدهم أنانيتهم!!

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٦١).

قال **ابن عاشور**: والضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة يقال: ضرب بعصا وبيده وبالسيف وضرب بيده الأرض إذا

ألصقها بها. وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق، فمنه ضرب في الأرض وسار طويلاً وضرب قبة وبيتاً في موضع كذا بمعنى شدها ووثقها من الأرض. وضرب الطين على الحائط ألصقه فقوله ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ استعارة مكنية إذ شبهت الذلة والمسكنة في الإحاطة بهم واللزوم بالبيت أو القبة يضربها الساكن ليلزمها، ويجوز أن يكون ضربت استعارة تبعية وليس ثمة مكنية بأن شبه لزوم الذلة لهم ولصوقها بلصوق الطين بالحائط.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة : ٧٢).

قال في (الدر المنثور): أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن المسيب بن رافع قال: ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك كتاب الله ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أنّ رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا باب فيها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائناً ما كان**».

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي عن عثمان بن عفان قال: من عمل عملاً كساه الله رداءه، وإن خيراً فخيراً وإن شراً فشر.

وأخرج البيهقي من وجه آخر عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به**». قال البيهقي: «الموقوف أصح».

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي وضعفه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**مَن المؤمن؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**المؤمن الذي لا يموت حتى يملأ الله مسامعه مما يحب، ولو أن عبداً اتقى الله في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث به الناس**

ويزيدون». قالوا: وكيف يزيدون يا رسول الله؟ قال: «**لأنّ التقي لو يستطيع أن يزيد في بره لزاد**». ثم قال رسول الله: «**مَن الكافر؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**الكافر الذي لا يموت حتى يملأ الله مسامعه مما يكره، ولو أن فاجراً فجر في جوف البيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث به الناس ويزيدون**». قالوا: وكيف يزيدون يا رسول الله؟ قال: «**لأن الفاجر لو يستطيع أن يزيد في فجوره لزاد**».

وأخرج ابن عدي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله مُرْدٍ كل امرئ رداء عمله**». وأخرج البيهقي عن ثابت قال: كان يقال لو أن ابن آدم عمل بالخير في سبعين بيتاً لكساه الله تعالى رداء عمله حتى يعرف به.

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن سعيد بن المسيب قال: الناس يعملون أعمالهم من تحت كنف الله، فإذا أراد الله بعبدٍ فضيحةً أخرجه من تحت كنفه فبدت عورته. وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي إدريس الخولاني رفعه قال: لا يهتك الله عبداً وفيه مثقال حبة من خير. وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم قال: لو أن عبداً اكتتم بالعبادة كما يكتتم بالفجور لأظهر الله ذلك منه.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة: ٧٤).

فائدة: تشبيه قسوة القلب بالحجارة مع أن في الموجودات ما هو أشد صلابة منها هي أن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الحجارة. أفاده **ابن سعدي** في تفسيره.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (البقرة: ٩٠).

قال **ابن عاشور**: وجيء بصيغة المضارع في قوله ﴿ أَن يَكْفُرُواْ ﴾ ولم يؤت به على ما يناسب قوله ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ ﴾ المقتضي أن الاشتراء قد مضى للدلالة على أنهم صرحوا بالكفر بالقرآن من قبل نزول الآية فقد تبين أن اشتراء أنفسهم بالكفر عمل استقر ومضى ثم لما أريد بيان ما اشتروا به أنفسهم نبه على أنهم لم يزالوا يكفرون ويعلم أنهم كفروا فيما مضى أيضاً إذ كان المبين بأن يكفروا معبر عنه بالماضي بقوله ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ ﴾ .

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ (البقرة : ١٢٤).

قال **ابن عاشور**: قوله ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ جيء فيه بالفاء للدلالة على الفور في الامتثال، وذلك من شدة العزم. والإتمام في الأصل الإتيان بنهاية الفعل أو إكمال آخر أجزاء المصنوع.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٢٤).

قال **ابن عاشور**: ومن دقة القرآن اختيار هذا اللفظ هنا لأن اليهود زعموا أن الله عهد لإبراهيم عهداً بأنه مع ذريته، ففي ذكر لفظ العهد تعريض بهم وإن كان صريح الكلام لتوبيخ المشركين. والمراد بالظالمين ابتداءً المشركون أي الذين ظلموا أنفسهم إذ أشركوا بالله؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ والظلم يشمل أيضاً عمل المعاصي الكبائر كما وقع في قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ وقد وصف القرآن اليهود بوصف الظالمين في قوله ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فالمراد بالظلم المعاصي الكبيرة وأعلاها الشرك بالله تعالى. وفي الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشركين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بأنواع من الظلم كالشرك وتحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم والانهماك في المعاصي حتى إذا عرضوا أنفسهم على هذا الوصف علموا انطباقه عليهم. وإناطة الحكم بوصف الظالمين إيماء إلى علة نفي أن ينالهم عهد الله فيفهم من العلة أنه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (البقرة : ١٢٥) فقال ﴿ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ ، بينما قال في سورة الحج: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الحج : ٢٦)، فقال ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ ، ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ سورة البقرة مدنية وسورة الحج مكية، فلما قال في البقرة ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ (البقرة : ١٢٦)، وهي متأخرة في النزول، ناسب أن يقول الله ﴿ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ لأنّ العكوف إقامة، فكأنّه بذلك ثانيةً، وأما سورة الحج فهي مكية، وقد نزلت قبل البقرة فناسب عدم ذكر العكوف، فكأنّه أُمر بذلك أولاً، والله أعلم.

فائدة: قال **الألوسي**: لعل التعبير عن الصلاة بأركانها من القيام والركوع والسجود في قوله ﴿ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الحج : ٢٦)، للدلالة على أنّ كل واحدٍ منها مستقل باقتضاء التطهير أو التبرئة.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ (البقرة : ١٢٦).

قال **ابن عاشور**: ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوءة، فإنّ أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة. وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام.

والتعريف في الثمرات تعريف الاستغراق وهو استغراق عرفي أي من جميع الثمرات المعروفة للناس. ودليل كونه تعريف الاستغراق مجيء من التي للتبغيض. وفي هذا دعاء لهم بالرفاهية حتى لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه.

۞ **قَالَ تَعَالَى**: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧،١٢٨).

قال ابن عاشور: فائدة تكرير النداء بقوله ﴿ رَبَّنَا ﴾ إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى، فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل والثانية لطلب الاهتداء، فجملة النداء معترضة بين المعطوف هنا والمعطوف عليه في قوله الآتي ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا ﴾ .

۞ **قَالَ تَعَالَى**: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (البقرة :١٣٨). فسمّى الدين صبغة استعارة ومجازاً حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر أثر الصبغ في الثوب. أفاده **القرطبي**.

وقال **ابن عاشور**: والصبغة هنا اسم للماء الذي يغتسل به اليهود عنواناً على التوبة لمغفرة الذنوب. والأصل فيها عندهم الاغتسال الذي جاء فرضه في التوراة على الكاهن إذا أراد تقديم قربان كفارة عن الخطيئة عن نفسه أو عن أهل بيته. والاغتسال الذي يغتسله الكاهن أيضاً في عيد الكفارة عن خطايا بني إسرائيل في كل عام. وعند النصارى الصبغة أصلها التطهر في نهر الأردن وهو اغتسال سنة النبي يحيى بن زكريا لمن يتوب من الذنوب فكان يحيى يعظ الناس بالتوبة فإذا تابوا أتوه فيأمرهم بأن يغتسلوا في نهر الأردن رمزاً للتطهر الروحاني وكانوا يسمون ذلك معمو ذيت بذال معجمة وبتاء فوقية في آخره ويقولون أيضاً ممعوذيتا بألف بعد التاء، وهي كلمة من اللغة الآرامية معناها الطهارة وقد عربه العرب فقالوا معمودية بالدال المهملة وهاء تأنيث في آخره وياؤه التحتية مخففة، وكان عيسى بن مريم حين تعمد بماء المعمودية أنزل الله عليه الوحي بالرسالة ودعا اليهود إلى ما أوحى الله به إليه وحدث كفر اليهود بما جاء به عيسى، وقد آمن به يحيى فنشأ الشقاق بين اليهود وبين يحيى وعيسى فرفض اليهود التعميد وكان عيسى قد عمَّد

الحواريين الذين آمنوا به فتقرر في سنة النصارى تعميد من يدخل في دين النصرانية كبيراً، وقد تعمد قسطنطين قيصر الروم حين دخل في دين النصرانية أما من يولد للنصارى فيعمدونه في اليوم السابع من ولادته. وإطلاق اسم الصبغة على المعمودية يحتمل أن يكون من مبتكرات القرآن ويحتمل أن يكون نصارى العرب سموا ذلك الغسل صبغة ولم أقف على ما يثبت ذلك من كلامهم في الجاهلية. وظاهر كلام الراغب أنه إطلاق قديم عند النصارى إذ قال: «وكانت النصارى إذا ولد لهم ولد غمسوه بعد السابع في ماء معمودية يزعمون أن ذلك صبغة لهم». أما وجه تسمية المعمودية «صبغة» فهو خفي إذ ليس لماء المعمودية لون فيطلق على التلطخ به مادة ص ب غ. وفي دائرة المعارف الإسلامية أن أصل الكلمة من العبرية ص ب ع أي غطس فيقتضى أنه لما عرب أبدلوا العين المهملة غيناً معجمة لعله لندرة مادة صبع بالعين المهملة في المشتقات. وأيّاً ما كان فإطلاق الصبغة على ماء المعمودية أو على الاغتسال به استعارة مبنية على تشبيه وجهه تخييلي إذ تخيلوا أن التعميد يكسب المعمَّد به صفة النصرانية ويلونه بلونها كما يلون الصبغ ثوباً مصبوغاً وقريب منه إطلاق الصبغ على عادة القوم وخلقهم وأنشدوا:

وكل أناس لهم صبغة ... وصبغة همْدانَ خير الصِّبَغْ

صبغنا على ذلك أبناءنا ... فأكرم بصبغتنا في الصبغ

وقد جعل النصارى في كنائسهم أحواضاً صغيرة فيها ماء يزعمون أنه مخلوط ببقايا الماء الذي أهرق على عيسى حين عمده يحيى وأن ما تقاطر منه جمع وصب في ماء كثير ومن ذلك الماء تؤخذ مقادير تعتبر مباركة لأنها لا تخلو عن جزء من الماء الذي تقاطر من اغتسال عيسى حين تعميده كما قال في أوائل الأناجيل الأربعة.

فقوله ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ ﴾ رد على اليهود والنصارى معاً أما اليهود فلأن الصبغة نشأت فيهم وأما النصارى فلأنها سنة مستمرة فيهم ولما كانت المعمودية مشروعة لهم لغلبة تأثير المحسوسات على عقائدهم رد عليهم بأن صبغة الإسلام الاعتقاد

والعمل المشار إليهما بقوله ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ أي إن كان إيمانكم حاصلاً بصبغة القسيس فإيماننا بصبغ الله وتلوينه. اهـ.

قلتُ: هذا الذي نقله إنما هو ما أخذه عن كتب أهل الكتاب، والله أعلم هل هذا التعميد من أصل دينهم أم هو من ابتداعهم؟!!

قال تعالى لنبيه: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ ﴾ (البقرة: ١٤٤) دون قول: تحبها أو تهواها فيه دلالة على أن ميل الرسول إلى الكعبة ميل لقصد الخير لا لهوى النفس؛ وذلك أن الكعبة أجدر بيوت الله بأن يكون قبلة فهو أول بيت وضع للناس بالتوحيد. وفي استقبال بيت المقدس أولاً ثم التحول إلى الكعبة إشارة إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب. أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٤٥) بينما قال: ﴿ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: ١٢٠)، فقال في الأولى ﴿ مَا ﴾ وفي الثانية ﴿ ٱلَّذِي ﴾، وقال في الأولى ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ ﴾ وفي الثانية ﴿ بَعۡدَ ﴾ دون ﴿ مِنَ ﴾، قال ابن عاشور: ﴿ ٱلَّذِي ﴾ و﴿ مَا ﴾ وإن كانا مشتركين في أنهما اسماً موصول إلا أنهما الأصل في الأسماء الموصولة. ولما كان العلم الذي جاء النبي في معرض الآية الأولى هو العلم المتعلق بأصل ملة الإسلام وببطلان ملة اليهود وملة النصارى بعد النسخ وبإثبات عناد الفريقين في صحة رسالة محمد، وذلك ابتداءً من قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ إلى قوله ﴿ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ ﴾، فلا جرم كان العلم الذي جاء في ذلك هو أصرح العلم وأقدمه وكان حقيقياً بأن يعبر عنه باسم الموصول الصريح في التعريف. وأما الآية الثانية التي نحن بصددها فهي متعلقة بإبطال قبلة اليهود والنصارى لأنها مسبوقة ببيان ذلك ابتداءً

من قوله ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ ، وذلك تشريع فرعي فالتحذير الواقع بعده تحذير من اتباع الفريقين في أمر القبلة وذلك ليس له أهمية مثل ما للتحذير من اتباع ملتهم بأسرها فلم يكن للعلم الذي جاء النبي في أمر قبلتهم من الأهمية ما للعلم الذي جاء في بطلان أصول ملتهم؛ فلذلك جيء في تعريفه باسم الموصول الملحق بالمعارف وهو «ما» لأنها في الأصل نكرة موصوفة نقلت للموصولية وإنما أدخلت «من» في هذه الآية الثانية على «بعد» بقوله ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ لأن هذه الآية وقعت بعد الآية الأولى في سورة واحدة وليس بينهما بعيد فصل، فكان العلم الذي جاءه فيها من قوله ﴿ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ وهو جزئي من عموم العلم الذي جاء في إبطال جميع ملتهم فكان جديراً بأن يشار إلى كونه جزئياً له بإيراد من الابتدائية.

فائدة: ذكر البقاعي وجه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤ - ١٥٦) بعد الكلام على تحويل القبلة والطاعنين فيها، فقال: والتفاتاً إلى ما أشار به إلى صيرورة الأمر إلى الحرب حيث عاب المانعين للمسجد وأخبر بأنه سيحصل لهم خزي في الدنيا بالفعل والأسر وعذاب عظيم في الآخرة بالنار والسخط، وإيماءً إلى أنه سيأذن لهم في مقارعة من أمرهم بالصبر على أذاهم من أهل الكتاب حتى يمحقهم السيف ويسكنهم الذل والخوف، فالمعنى: اصبروا على كل ما يقوله أهل الكتاب وغيرهم في أمر القبلة وغيره وعلى كل ما يغير به الشيطان في وجه الإيمان وصلوا إلى البيت الذي وجهتكم إليه وجاهدوا كل من خالفكم حتى يكون الدين لله صابرين على كل ما ينوب في ذلك من القتل والنهب وغيره، ولا تقولوا إذا قاتلتم الكفار المناصبين لكم من العرب وغيرهم من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ لِمَن يُقْتَلُ﴾ منكم ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال بأن يقاتلوا لتكون

كلمة الله هي العليا لا شيء غير ذلك من دنيا أو عصبية، فإنا سنكتب عليكم الجهاد ونستشهد منكم شهداء: إنهم ﴿ أَمْوَٰتٌۢ ﴾ بل قولوا إنهم شهداء فإنهم ليسوا بأموات ﴿بَلْ﴾ هم ﴿ أَحْيَآءٌ ﴾ .

وفي هذا إشارة إلى أن كون الله معهم لا يمنع أن يستشهد منهم شهداء بل ذلك من ثمرات كون الله معهم حيث يظفر من استشهد منهم بسعادة الآخرة ومن بقي بسعادة الدارين. وتلخيص ذلك أن يقال: إنه لما كان حاصل ما تقدم في هذه السورة أن أهل الأرض كلهم قريبهم وبعيدهم وثنيهم وكتابيهم مطبقون على عداوة أهل هذا الدين وكان كثيراً ما يأمرهم بالصبر على أذاهم اشتد تشوق النفوس إلى أنه هل بعد هذا الكف من فعل، فأشار إلى أنه سيأمر بعد الصبر على أذى اللسان بالصبر على جلاد السيف والسنان أمراً عاماً فقال عاطفاً هذا النهي على الأمر بالصبر: أي اصبروا الآن على هذا الأذى ثم اصبروا إذا أمرتكم بالجهاد على وقع السيوف واقتحام الحتوف وفقد من يقتل منكم ولا تصفوهم بالموت.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (البَقَرَة : ١٥٥). قال البقاعي: لما كان «الجوع» ربما يكون رياضةً لا عن حاجة، قال ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ ليفيد حاجتهم، ولما كان نقص المال عن الحاجة ربما يكون لفرط الكثرة العددية لا لقلة في نفسه، فقال ﴿ وَٱلْأَنفُسِ ﴾ ، لأنه ربما يُظنّ أن نقص عدد الأفراد سيترتب عليه كفاية الثمرات، فقال ﴿ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ، والله أعلم.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (البَقَرَة : ١٥٨)، فقال ﴿ أَن يَطَّوَّفَ ﴾ ولم يقل «ألّا يطوف»، أخرج البخاري ومسلم عن عروة أنه قال لعائشة «أرأيت قول الله عزّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾، فما أرى على أحدٍ شيئاً ألّا يطوف بهما»، فقالت عائشة: بئس ما قلت يا ابن

أختي إنها لو كانت على أوَّلتها عليه كانت: فلا جناح عليه ألّا يطوف بهما. ثمّ بينت له سبب نزولها من أنّ الأنصار كانوا يهلون لمناة بين الصفا والمروة فتحرجوا في الإسلام من ذلك.

قلتُ: ولكن يشكل على كلامها قراءة من قرأ «فلا جناح عليه ألّا يطوف بهما»، والجواب عن ذلك ـ إذا قلنا بصحة سند هذه القراءة ـ أنّ الفاء في قوله تعالى ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ ﴾ تربط هذه الجملة بما قبلها ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ ولو كان المعنى من الآية رفع الجناح عمن لم يطف بالصفا والمروة لقال «إنّ الصفا والمروة من شعائر الله. ومن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه .. إلخ»، وأمّا الربط بالفاء مع كون المراد من الجملة بعدها نفي الجناح عمّن لم يطف فلا يصح معنىً، وعليه فالربط بالفاء يدل على أنّ قوله بعد الفاء ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ سيق لبيان نفي الحرج النفسي عند من تحرج ـ في الإسلام ـ من السعي، وعليه فقراءة «فلا جناح عليه ألّا يطوف»، تحمل على أنّ «لا» زائدة، وتكون هذه القراءة بنفس معنى قراءة ﴿ أَن يَطَّوَّفَ ﴾ ، وهذا نظير ما قيل في قوله تعالى ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ ومعناها «أن تسجد»، وقوله ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ومعناها «أقسم بيوم القيامة».

فائدة: قال **البقاعي** مبيناً مناسبة ذكر الحج والعمرة ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ ﴾ (البقرة : ١٥٨) بعد قوله ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (البقرة : ١٥٥)، فقال: ومن أعظم المناسبات أيضاً كون سبيل الحج إذ ذاك كان ممنوعاً بأهل الحرب فكأنها علة لما قبلها، وكأنه قيل: ولنبلونكم بما ذكر لأن الحج من أعظم شعائر هذا البيت الذي أمرتم باستقباله وهو مما يفرض عليكم وسبيله ممنوع بمن تعلمون فلنبلونكم بقتالهم لزوال مانع الحج وقتال غيرهم من أهل الكتاب وغيرهم لإتمام النعمة بتمام الدين وظهوره على كل دين، ومن أحسنها أيضاً أنه تعالى لما ذكر البلايا بنقص الأموال بسبب الذنوب

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ (الشورى : ٣٠) أتبعها الدواء الجابر لذلك النقص ديناً ودنيا.. فإن الحج والعمرة ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الذهب والفضة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ** ﴾ (**البقرة** : ١٦٤).

قال **ابن عاشور**: والاختلاف افتعال من الخلف وهو أن يجيء شيء عوضاً عن شيء آخر يخلفه في مكانه والخلفة بكسر الخاء الخلف. وقد أضيف الاختلاف لكل من الليل والنهار لأن كل واحد منهما يخلف الآخر فتحصل منه فوائد تعاكس فوائد الآخر بحيث لو دام أحدهما لانقلب النفع ضرراً ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾. وللاختلاف معنى آخر هو مراد أيضاً وهو تفاوتهما في الطول والقصر فمرة يعتدلان ومرة يزيد أحدهما على الآخر وذلك بحسب أزمنة الفصول وبحسب أمكنة الأرض في أطوال البلاد وأعراضها كما هو مقرر في علم الهيئة وهذا أيضاً من مواضع العبرة لأنه آثار الصنع البديع في شكل الأرض ومسامتتها للشمس قرباً وبعداً، ففي اختيار التعبير بالاختلاف هنا سر بديع لتكون العبارة صالحة للعبرتين.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ** ﴾ (**البقرة** : ١٦٧)

قال **ابن عاشور**: وقوله ﴿ **وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ** ﴾ حال أو اعتراض في آخر الكلام لقصد التذييل لمضمون ﴿ **كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ** ﴾ لأنهم إذا كانوا لا يخرجون من النار تعين أن تمنيهم الرجوع إلى الدنيا وحدوث الخيبة لهم من صنع رؤسائهم لا فائدة فيه إلا إدخال ألم الحسرات عليهم وإلا فهم يلقون في النار على كل حال. وعدل عن الجملة الفعلية بأن يقال «وما يخرجون» إلى الاسمية للدلالة على

أن هذا الحكم ثابت أنه من صفاتهم. وليس لتقديم المسند إليه هنا نكتة إلا أنّه الأصل في التعبير بالجملة الاسمية في مثل هذا إذ لا تتأتى بسوى هذا التقديم فليس في التقديم دلالة على اختصاصٍ لما علمت. ولأن التقديم على المسند المشتق لا يفيد الاختصاص عند جمهور أئمة المعاني بل الاختصاص مفروض في تقديمه على المسند الفعلي خاصة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ** ﴾ (البقرة : ١٦٨). فتسمية استدراج الشيطان ﴿ **خُطُوَٰتِ** ﴾ فيه إشارتان:

١- الخطوة مسافة يسيرة وهكذا الشيطان يبدأ بالشيء اليسير من البدعة أو للمعصية حتى تألفها النفس.

٢- قوله ﴿ **خُطُوَٰتِ** ﴾ دليل على أن الشيطان لن يقف عند أول خطوة في المعصية.

أفاده فهد العيبان «انظر كتاب تدبر المجموعة (١)».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ** ﴾ (البقرة : ١٧٨)

قال د. **فاضل السامرائي**: وجاء في «معاني القرآن» للفراء: «وأما قوله تعالى ﴿ **فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ** ﴾ فإنه رفع وهو بمنزلة الأمر في الظاهر كما تقول: (من لقى العدو فصبراً واحتساباً)، فهذا نصبه ورفعه جائز. وإنما كان الرفع وجه الكلام، لأنه عامة فيمن فعل، ويراد بها من لم يفعل، فكأنه قال: فالأمر فيها على هذا فيرفع. وينصب الفعل إذا كان أمراً عند الشيء يقع ليس بدائم، مثل قولك للرجل: إذا أخذت في عملك فجدّاً جدّاً وسيراً سيراً. نصبتَ لأنك لم تنوِ به العموم فيصير كالشيء الواجب على مَنْ أتاه وفعله... وأما قوله ﴿ **فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ** ﴾ (محمد : ٤) فإنه حَثَّهم على القتل إذا لقوا العدو، ولم يكن الحث كالشيء الذي يجب بفعل قبله، فلذلك نصب، وهو بمنزلة قولك: إذا لقيتم العدو فتهليلاً تهليلاً وتكبيراً وصِدقاً عند تلك الوقعة .. كأنه حث لهم».

وجاء في «شرح ابن يعيش» أن: «الفرق بين النصب والرفع، أنك إذا رفعتها فكأنك ابتدأت شيئاً قد ثبت عندك واستقر وفيها ذلك المعنى.. وإذا نصبت كنت ترجّاه في حال حديثك وتعمل في إثباته».

❁ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٌ طَعَامُ مِسۡكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٤)، فقال ﴿ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ وفي ذلك دقة بالغة؛ لأن كلمة ﴿ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ يصح حملها لغةً على معنى القدرة، فيكون في الآية بيان جواز الفطر لمن سهل عليه الصيام ولكن يطعم عن كل يوم مسكيناً ـ وهكذا كان الحكم في أول الإسلام ـ كما أنّ كلمة ﴿ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ يصح حملها لغةً على معنى المشقة، فيكون في الآية بيان لرحمة الله بمن شق عليه الصيام كالشيخ الكبير والمرأة العجوز وصاحب المرض المزمن، فرخص لهم بالفطر مع إطعام مسكين عن كل يوم، فعلى القول الأصح في هذه الآية وأنها نزلت ابتداءً ـ في أول تشريع الصيام ـ بإباحة الفطر لكل من أراد ولكن مع الإطعام، كما في الصحيحين «لمّا نزلت ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٌ طَعَامُ مِسۡكِينٍ ﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها» وأنّ حكمها ثبت للشيخ الكبير والمرأة العجوز اللذين يشق عليهما الصيام، كما روى البيهقي وابن الجارود ورواه أبو داود مختصراً ـ وصححه الألباني ـ عن ابن عباس «وثبت للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة إذا كانا لا يطيقان الصوم والحبلى والمرضع إذا خافتا أفطرتا وأطعمتا كلَّ يوم مسكيناً»، فوجه الدقة هنا أنّ الله قال ﴿ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ لتشمل بظاهر لفظها قبل نسخها الجميع ولتشمل بلفظها أيضاً بعد النسخ الشيخ الكبير وأصحاب الأعذار الدائمة، ولو قال «يسهل عليهم الصيام» لكان لفظها صالحاً لما كان عليه الأمر قبل النسخ فقط، فأكرم بدقة القرآن!!

❁ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ
١٩٣ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ

عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٣ - ١٩٥)، فذكر فيها آيات الجهاد ثم أعقبها بآيات الحج ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ (البقرة: ١٩٦)، وما بعدها، ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ كون الحج نوعاً من أنواع الجهاد، ففي الحديث أنّ الحج والعمرة جهاد الضعيف والمرأة والكبير، كما أنّ فيه ترك الوطن وبذل المال وفراق الأهل، فأشبه الجهاد، وبدأ بالجهاد لأنه هو الأصل وهو أعظم أجراً، ففي الحديث أيّ العمل أفضل؟ فقال ﷺ: «**إيمانٌ بالله ورسوله**». قيل: ثمّ أيّ؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**». قيل: ثمّ أيّ؟ فقال: «**حجة مبرورة**»، ولأنّ المرء إذا أذعنت نفسه للجهاد بإخلاصٍ وصدقٍ، هان عليها البذل في أيّ عملٍ صالحٍ آخر.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة: ١٩٦).

جاء لفظ القرآن في بيان الرخصة بالأسهل فالأسهل ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ ولما أمر النبي كعب بن عجرة بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال: «**انسك شاة أو أطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام**». متفق عليه، فكل شيء حَسَنٌ في مقامه. أفاده **ابن كثير**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (البقرة: ١٩٦). من بلاغة القرآن في قوله تعالى عن الهدي ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ أنه لم يحدد ما الذي لم يوجد ليشمل من لم يجد الهدي ومن لم يجد ثمنه فاستفدنا زيادة المعنى مع اختصار اللفظ. أفاده **الشيخ ابن عثيمين**.

فائدة: قال **البقاعي** مبيناً وجه قوله في آيات الحج ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٠٣)، فقال: قال الحرالي: وكلية الحج ومناسكه مطابق في الاعتبار لأمر يوم الحشر ومواقفه من خروج الحاج من وطنه متزوداً كخروج الميت من الدنيا

متزوداً بزاد العمل. ووصوله إلى الميقات وإهلاله متجرداً كانبعاثه من القبر متعرياً. وتلبيته في حجه كتلبيته في حشره ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ (القمر: ٨) كذلك اعتباره موطناً إلى غاية الإفاضة والحلول بحرم الله في الآخرة التي هي الجنة. والشرب من ماء زمزم التي هي آية نزل الله لأهل الجنة على وجوه من الاعتبارات يطالعها أهل الفهم واليقين؛ فلأجل ذلك كان أتم ختم لأحكام الحج ذكر الحشر ـ انتهى.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (البقرة: ٢١٢).

قال **ابن عاشور**: وجيء في فعل التزيين بصيغة الماضي وفي فعل السخرية بصيغة المضارع قضاءً لحقي الدلالة على أن معنى فعل التزيين أمر مستقر فيهم لأن الماضي يدل على التحقق، وأن معنى يسخرون متكرر متجدد منهم لأن المضارع يفيد التجدد ولْيعلمْ السامع أن ما هو محقق من الفعلين هو أيضاً مستمر لأن الشيء الراسخ في النفس لا تفتر عن تكريره ويعلم أن ما كان مستمراً هو أيضاً محقق لأن الفعل لا يستمر إلا وقد تمكن من نفس فاعله وسكنت إليه، فيكون المعنى في الآية: زين للذين كفروا وتزين الحياة الدنيا وسخروا ويسخرون من الذين آمنوا. على هذا فإنما اختير لفعل التزيين خصوص المضي ولفعل السخرية خصوص المضارعة إيثاراً لكل من الصفتين بالفعل التي هي به أجدر لأن التزيين لما كان هو الأسبق في الوجود وهو منشأ السخرية أوثر بما يدل على التحقق ليدل على ملكة واعتمد في دلالته على الاستمرار بالاستتباع. والسخرية لما كانت مترتبة على التزيين وكان تكررها يزيد في الذم إذ لا يليق بذي المروة السخرية بغيره أوثرت بما يدل على الاستمرار. واعتمد في دلالتها على التحقق دلالة الالتزام لأن الشيء المستمر لا يكون إلا متحققاً.

وأمّا وجه التخصيص ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾، فهو لأنّ يوم القيامة هو مبدأ أيام الجزاء، وغير المتقين لا يظهر لهم التفوق يومئذٍ، ولا يدركه الكفار بالحس، ولكن تظهر مزيتهم بعد انقضاء ما قُدر لهم من العذاب على الذنوب، وأما الذين اتقوا فتظهر مزيتهم

بالإيمان والتقوى في ذلك اليوم، كما أنّ تقييدها بيوم القيامة فيه التنصيص على دوامها، لأنّ ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة :٢١٧)، فجعل العقوبة معلقةً على شرطين: الردة والموت على الكفر بخلاف غيرها من الآيات كقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة : ٥)، وقوله لرسوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الزمر : ٦٥)، وقوله عن الأنبياء: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام : ٨٨). قال **ابن عاشور**: فإن قلت ما السر في اقتران هذين الشرطين في هذه الآية مع خلو بقية نظائرها عن ثاني الشرطين؟

قلتُ: تلك الآي الأخر جاءت لتهويل أمر الشرك على فرض وقوعه من غير معين كما في آية ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أو ووقوعه ممن يستحيل وقوعه منه كما في آية ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وآية ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ فاقتصر فيها على ما ينشأ عن الشرك بعد الإيمان من حبط الأعمال ومن الخسارة بإجمال. أما هذه الآية فقد وردت عقب ذكر محاولة المشركين ومعالجتهم ارتداد المسلمين المخاطبين بالآية فكان فرض وقوع الشرك والارتداد منهم أقرب لمحاولة المشركين ذلك بقتال المسلمين، فذكر فيها هذا الشرط الزائد مع زيادة تهويل وهو الخلود في النار.

فائدة: قوله ﴿ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ بالفاء المفيدة للتعقيب فيه إشارة إلى أنّ الموت يعقب الارتداد، وقد علم كل أحد أنّ معظم المرتدين لا تحضر آجالهم عقب الارتداد فيعلم السامع حينئذٍ أنّ المرتد يعاقب بالموت عقوبة شرعية، فتكون الآية بهذه الإشارة دليلاً على وجوب قتل المرتد. أفاده **ابن عاشور**.

قلتُ: بل فيها دلالة على جواز قتله عقب الردة مباشرةً وأنّ الاستتابة ثلاثة أيام مستحبٌ فقط وليس بواجب، فما أجلّها من فائدة!!!

فائدة: قال **البقاعي** في قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ٢١٧): فهو من وادي الاحتباك. وسر ما صنع في هذا الموضع من الاحتباك أنه لما كان القتال في الشهر الحرام قد وقع من المسلمين حين هذا السؤال في سرية عبد الله بن جحش أبرز السؤال عنه والجواب ولما كان القتال في المسجد الحرام لم يقع بعد وسيقع من المسلمين أيضاً عام الفتح طواه وأضمره. ولما كان الصد عن سبيل الله الذي هو البيت والكفر الواقع بسببه لم يقع وسيقع من الكفار عام الحديبية أخفى خبره وقدّره، ولما كان الإخراج قد وقع منهم ذكر خبره وأظهره.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (البقرة: ٢١٩، ٢٢٠).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة، يعني في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة. قال: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن حزن التميمي قال: شهدت الحسن وقرأ هذه الآية من البقرة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة. قال: هي والله لمن تفكرها، ليعلمن أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وليعلمن أن الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: من تفكر في الدنيا عرف فضل إحداهما على الأخرى، عرف أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وأن الآخرة دار بقاء، ثم دار جزاء، فكونوا ممن يصرم حاجة الدنيا لحاجة الآخرة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ

ﵟٱلۡمُتَطَهِّرِينَﵞ (البقرة: ٢٢٢)، فقال ﵟٱلۡمُتَطَهِّرِينَﵞ بينما قال ﵟوَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَﵞ (التوبة: ١٠٧، ١٠٨)، فقال ﵟٱلۡمُطَّهِّرِينَﵞ، ووجه ذلك أنّ الأولى في الطهارة بدليل قوله قبله ﵟإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَﵞ، فالأظهر التأسيس لا التأكيد، فيكون التطهر هنا هو الحسي، فقال ﵟٱلۡمُتَطَهِّرِينَﵞ من «تطَهَّر» بوزن «تفعّل» التي تدل على التكرر والتطاول، وأمّا الثانية فهي في الطهارة الحسية والقلبية معاً فإنّها نزلت في أهل قباء الذين جمعوا بين الطهارتين، فناسب أن يأتي بهذا اللفظ ﵟٱلۡمُطَّهِّرِينَﵞ من «طهَّر» بوزن «فعّل» التي تدل على المبالغة، قال د. **فاضل**: إن الآية الأولى في عموم المؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدين وأن الثانية في صحابة رسول الله فاستعمل الأبلغ للصحابة لأنهم أكمل الناس طهارة في الظاهر والباطن واستعمل الصيغة الطويلة في المدة المتطاولة.

فائدة: قلتُ في قوله تعالى: ﵟوَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُﵞ(البقرة: ٢٢٢)، دقة بالغة إذ قال أولاً ﵟفَٱعۡتَزِلُواْﵞ لبيان ضرورة الهجر التام ثمّ قال ﵟوَلَا تَقۡرَبُوهُنَّﵞ لبيان النهي عن الاقتراب نفسه مبالغةً في الهجر ثمّ قال ﵟفَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّﵞ ولم يقل «فاقربوهنّ» لبيان أنّ المراد باعتزاله وعدم قربانه إنما هو الفرج، ولو قال أولاً «فلا تأتوهنّ في المحيض» لفهم النهي عن الإتيان فقط مع أنّ محل الختان «أعلى فرج المرأة» والشفرين «جانبي الفرج» يحرم قربانهما من غير حائل، فما أحلاه وأجمله من كلام!!

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﵟلِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞﵞ (البقرة: ٢٢٦)

قال **البقاعي**: قال **الحرالي**: وفي مورد هذا الخطاب بإسناده للأزواج ما يظافر معنى إجراء أمر النكاح على ستره ولم يتعرض لذكر حكم الحكام بل جعل التربص للزوج والفيء منه فكأن الحكم من الحاكم إنما يقع على من هتك حرمة ستر أحكام الأزواج التي يجب أن تجري بين الزوجين من وراء ستر كما هو سر النكاح الذي هو سبب جمعهما ليكون حكم السر سراً وحكم الجهر جهراً. انتهى.

قلتُ: يعني طالما كانا متفقين، ولم يكن في اتفاقهما ما يخالف أحكام الشرع.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ **ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ** ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

قال **ابن عاشور**: قدم الإمساك على التسريح إيماءً إلى أنه الأهمّ، المرغب فيه في نظر الشرع.

فائدة: قال **البقاعي**: وقال تعالى: ﴿ **مَرَّتَانِ** ﴾ دون «طلقتان» تنبيهاً على أنه ينبغي أن تكون مرةً بعد مرة؛ كل طلقة في مرة لا أن يجمعهما في مرة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ **وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ** ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، قال **البقاعي**: فأنبأ سبحانه أنّ أمر ما بين الزوجين مؤخر حكمه إلى لقاء الله عز وجل حفيظةً على ما بين الزوجين ليبقى سراً لا يظهر أمره إلا الله تعالى. وفي إشعاره إبقاء للمروة في أن لا يتحاكم الزوجان عند حاكم في الدنيا، وأن يرجعه كل واحد منهما إلى تقوى الله وعلمه ببصر الله. انتهى.

قلتُ: وكذا ليحذر الظالم منهما لصاحبه، فإنّه وإن حكم له الحاكم في الدنيا بمقتضى الظاهر، فإنّ الله يعلم الحقيقة، وهم ملاقوه وسيفصل بينهما الحق.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ **حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ** ﴾. (البقرة: ٢٣٨)

أعقب آيات النساء في البقرة آية الصلاة ﴿ **حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ** ﴾؛ للدلالة على أنّ الذي يعين العبد على القيام بحقوق النساء التي شرعها الله إنما هو محافظته على الصلاة، وفي ذلك أيضاً دلالة على أنّ هذا الدين متكامل، فكما يجب الالتزام

بالصلاة والمحافظة عليها، كذلك يجب التزام أحكام الشريعة في حسن معاشرة النساء وإعطاءهنّ حقوقهنّ. وذكر **البقاعي**: أنّ وجه ذلك أنّ الاشتجار المذكور في الآيات السابقة بين الأزواج فيما يقع من تكره في الأنفس وتشاح في الأموال إنما وقع من تضييع المحافظة على الصلوات لأنّ الصلاة بركة في الرزق وسلاح على الأعداء وفيها توهين لسلطان الشيطان؛ فهي دافعةٌ للأمور التي منها تتضايق الأنفس وتقبل الوسواس ويطرقها الشح.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٣ – ٢٤٦).

قال **البقاعي** مبيناً سر ترتيب الآيات: أراه في الأولى حال أهل الحذر من الموت بما في الأنفس من الهلع الذي حذرت منه هذه الأمة، ثم أراه في الآية الأخيرة مقابل ذلك من الترامي إلى طلب الحرب وهما طرفا انحراف في الأنفس.

قال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموه فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

قال **البقاعي**: وفي إفراد اليد إيذان بأنها غرفة اليد اليمنى لأنها اليد الخاصة للتعريف، ففي اعتباره أن الأخذ من الدنيا إنما يكون بيد لا بيدين لاشتمال اليدين على جانبي الخير والشر.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٤).

قال **البقاعي** مبيناً سر مجيء هذه الآية بعد قوله ﴿ **تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴾ (البقرة: ٢٥٣): ولما كان الاختلاف على الأنبياء سبباً للجهاد الذي هو حظيرة الدين وكان عماد الجهاد النفقة أتبع ذلك قوله رجوعاً إلى أول السورة من هنا إلى آخرها وإلى التأكيد بلفظ الأمر لما تقدم الحث عليه من أمر النفقة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي أقروا بألسنتهم بالإيمان ﴿ أَنفِقُواْ ﴾ تصديقاً لدعواكم في جميع أبواب الجهاد الأصغر والأكبر لا تبخلوا فأي داء أدوأ من البخل ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ** ﴾ (الحشر: ٩).

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ** ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

قال **البقاعي** مبيناً سر تقديم قوله ﴿ سِنَةٞ ﴾ على ﴿ نَوۡمٞ ﴾: ثم بين قيوميته وكمال حياته بقوله ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ ﴾ قال الحرالي: هي مجال النعاس في العينين قبل أن يستغرق الحواس ويخامر القلب ﴿ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ وهو ما وصل من النعاس إلى القلب فغشيه في حق من ينام قلبه وما استغرق الحواس في حق من لا ينام قلبه. انتهى.

ولما قال ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ ﴾، والأخذ بمعنى القهر والغلبة وجب تقديم السنة كما لو قيل فلان لا يغلبه أمير ولا سلطان.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡ** ﴾ (البقرة: ٢٧١).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج أحمد في الزهد عن سالم بن أبي الجعد قال: كان رجل في قوم صالح قد آذاهم، فقالوا: يا نبي الله ادع الله عليه. فقال: اذهبوا فقد كفيتموه،

وكان يخرج كل يوم فيحتطب، فخرج يومئذ ومعه رغيفان فأكل أحدهما وتصدق بالآخر، فاحتطب ثم جاء بحطبه سالماً، فجاؤوا إلى صالح فقالوا: قد جاء بحطبه سالماً لم يصبه شيء، فدعاه صالح فقال: أي شيء صنعت اليوم؟ فقال: خرجت ومعي قرصان تصدقت بأحدهما وأكلت الآخر. فقال صالح: حل حطبك. فحله فإذا فيه أسود مثل الجذع عاض على جذل من الحطب، فقال: بها دفع عنه. يعني بالصدقة.

وأخرج أحمد عن سالم بن أبي الجعد قال: خرجت امرأة وكان معها صبي لها، فجاء الذئب فاختلسه منها، فخرجت في أثره وكان معها رغيف، فعرض لها سائل فأعطته الرغيف، فجاء الذئب بصبيها فرده عليها.

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله، فأما الذين يحبهم الله فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة فتخلف رجل في أعقابهم فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحبّ إليهم من كذا وكذا نزلوا فوضعوا رؤوسهم فقام رجل يتملقني ويتلو آياتي، ورجل كان في سرية فلقي العدو فهزموا فأقبل بصدره حتى يُقتَل أو يُفتح له. وثلاثة يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم**».

وأخرج أبو يعلي عن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لكعب بن عجرة: «**يا كعب بن عجرة الصلاة قربان، والصيام جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار. يا كعب بن عجرة الناس غاديان فبائع نفسه فموبق رقبته، ومبتاع نفسه في عتق رقبته**».

وأخرج أحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل امرئ في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس**».

وأخرج ابن خزيمة والحاكم وصححه عن عمر قال: ذكر لي أن الأعمال تباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم.

وأخرج أحمد والبزار وابن خزيمة والطبراني والحاكم وصححه البيهقي عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يخرج رجل بشيء من الصدقة حتى يفك عنها لحيي سبعين شيطاناً**». وأخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**باكروا بالصدقة فإنّ البلاء لا يتخطى الصدقة**». وأخرج الطبراني عن ميمونة بنت سعد أنها قالت: يا رسول الله أفتنا عن الصدقة؟ قال ﷺ: «**إنّها فكاك من النار لمن احتسبها يبتغي بها وجه الله**».

وأخرج الترمذي وحسنه وابن حبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الصدقة لتطفيء غضب الرب وتدفع ميتة السوء**».

وأخرج الطبراني عن رافع بن خديج قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصدقة تسد سبعين باباً من السوء**». وأخرج الطبراني عن عمرو بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ صدقة المسلم تزيد في العمر وتمنع ميتة السوء، ويذهب الله بها الكبر والفخر**».

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن أبي ذر قال: ما خرجت صدقة حتى يفك عنها لحيى سبعين شيطاناً كلهم ينهى عنها.

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة**».

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن ابن مسعود: أن راهباً عبد الله في صومعة ستين سنة، فجاءت امرأة فنزلت إلى جنبه، فنزل إليها فواقعها ست ليال، ثم سقط في

يده فهرب، فأتى مسجداً فأوى فيه ثلاثاً لا يطعم شيئاً، فأتي برغيف فكسره فاعطى رجلاً عن يمينه نصفه، وأعطى آخر عن يساره نصفه، فبعث الله إليه ملك الموت فقبض روحه، فوضعت الستون في كفة ووضعت الستة في كفة فرجحت الستة، ثم وضع الرغيف فرجح. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى الأشعري. نحوه.

وأخرج البيهقي عن رجل من أصحاب النبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هل تدرون ما الشديد؟**». قلنا: الرجل يصرع الرجل! قال: «**إنّ الشديد كل الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، تدرون ما الرقوب؟**». قلنا: الرجل لا يولد له! قال: «**إنّ الرقوب الرجل الذي له الولد ولم يقدم منهم شيئاً، ثم قال: تدرون ما الصعلوك؟**». قلنا: الرجل لا مال له! قال: «**الصعلوك كل الصعلوك الذي له المال لم يقدم منه شيئاً**».

وأخرج مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «**يصبح على كل سُلامي من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**».

وأخرج البزار والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ تبسمك في وجه أخيك يكتب لك به صدقة، وإنّ إفراغك من دلوك في دلو أخيك يكتب لك به صدقة، وإماطتك الأذى عن الطريق يكتب لك به صدقة، وإرشادك للضال يكتب لك به صدقة**».

وأخرج البزار عن أبي جحيفة قال: دهم رسول الله ﷺ ناس من قيس مجتابي النمـار متقلدي السيوف، فساءه ما رأى من حالهم، فصلى ثم دخل بيته، ثم خرج فصلى وجلس في مجلسه، فأمر بالصدقة أو حض عليها فقال ﷺ: «**تصدق رجل من ديناره، تصدق رجل من درهمه، تصدق رجل من صاع بره، تصدق رجل من صاع**

ثمره». فجاء رجل من الأنصار بصرة من ذهب فوضعها في يده، ثم تتابع الناس حتى رأى كومين من ثياب وطعام، فرأيت وجه رسول الله تهلل كأنه مذهبة.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «**تصدقوا فإنّه يوشك أن يخرج الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها**».

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سلمة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال قط فتصدقوا**».

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة قالت: أهديت لنا شاة مشوية فقسمتها كلها إلا كتفها، فدخل علي رسول الله فذكرت ذلك له فقال ﷺ: «**كلها لكم إلا كتفها**».

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥ - ٢٨١)، وفيها المنهج الرباني في تبيين أحكام وشرائع هذا الدين، ألا وهو ربط قلوب المأمورين بشرع الله بالتقوى وتذكيرهم بالجنة ليطمعوا في الأجر فيتمثلوا، وترهيبهم من النار لئلا يخالفوا، فذكر سبحانه في معرض سياق تحريم الربا ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا

خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وقال أيضاً: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٧٩)، ورغبهم في الامتثال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٧)، وأمرهم بالتقوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٧٨)، وقال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٨١)، فذكَّرهم بيوم الحساب، وفي هذا أعظم السبب لامتثال الناس لشرائع الله، ولعلّ كثرة هذه المواعظ في مسألة الربا لكونها تتعلق بالمال المحبوب إلى النفس، ممّا يشق على النفس بذله، وكذا لتبيين عظيم إثم وجرم من تعامل بالربا. فعلى الفقهاء والمعلمين للفقه أن يسلكوا هذا المنهج في تدريسهم لمسائل وأحكام الشرع، خاصة في زمننا هذا الذي ربما أتقن فيه طلاب العلم المسائل وهم أبعد ما يكون عن تقوى الله وخشيته، وذكر الجنة والنار.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦).

قال **البقاعي** مبيناً سر تعقيب آيات الصدقة بآيات الربا: ولما كان سبحانه وتعالى قد ذكر النفقة مما أفاض عليهم من الرزق من أول السورة إلى هنا في غير آية ورغَّب فيها بأنواع من الترغيب في فنون من الأساليب، وكان الرزق يشمل الحلال والحرام وكان مما يسترزقون به قبل الإسلام الربا وهو أخذ مجاناً وهو في الصورة زيادة وفي الحقيقة نقص وعيب، ضد ما تقدم الحث عليه من الإعطاء مجاناً وهو في الظاهر نقص وفي الباطن زيادة وخير، نهاهم عن تعاطيه ونفرهم منه وبين لهم حكمه وأنه خبيث لا يصلح لأكل ولا صدقة وجعل ذلك في أسلوب الجواب لمن قال هل يكون النفقة المحبوبة المحثوث عليها من كل مال؟ فأجاب بهذه الآيات وقال **الحرالي**: ولما كان حال المنفق لا

سيما المبتغي وجه الله سبحانه وتعالى أفضل الأحوال وهو الحال الذي دُعوا إليه نظم به أدنى الأحوال وهو التوسل إلى الأموال بالربا فأفضل الناس المنفق وشر الناس المرابي فنظم به خطاب الربا فقال ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ولما كان من الصحابة من أكل الربا عبر بالمضارع إشارة إلى أن هذا الجزاء يخص الـمُصِر فقال: ﴿يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ وعبر بالأكل عن التناول لأنه أكبر المقاصد وأخوها ويجري من الإنسان مجرى الدم كالشيطان.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة : ٢٧٨)

قال **البقاعي** مبيناً سر مجيء هذه الآية بعد الكلام على الربا: ولما كانت نتيجة الآية الماضية في الاعتماد على ما عند الله سبحانه وتعالى من الأجر وعدم الحزن على ما فات من ربا وغيره والخوف من شيء آت من فقر أو غيره هو ترك كل شيء ينسب إلى الربا. وكان بين أهل الإسلام وأهل الجاهلية وبين بعضهم وبعض معاملات في الجاهلية ربوية لم تتم بعدُ بيَّن أمرها نفياً لما قد يتوهم من قوله سابقاً ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ من تحليل بقايا الربا وأن النهي خاص بما تجدد منه فقال مخاطباً لأقرب من ذكره ممن تلبس بالإيمان ولم يلتفت إلى غيرهم تشريفاً لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي أقروا بالتصديق بألسنتهم. ولما كان الربا قد يكون مؤجلاً فيكون صاحبه قد مضت عليه مدد وهو موطن نفسه على أخذه فيصير الكف عنه يعدل الموت عنده أبلغ سبحانه وتعالى في التشديد في هذه المواعظ فقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي الذي له جميع العظمة تصديقاً لإقراركم ﴿وَذَرُوا۟﴾ أي اتركوا أي ترك كان ﴿مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ أي الذي كنتم تتعاملون به فلا تستحلوه ولا تأكلوه.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ٢٨٠)، فقال: ﴿تَصَدَّقُوا۟﴾ ولم يقل «تتصدقوا»؛ ليدل على أنّ الصدقة بأي مقدار ـ ولو قلّ ـ خيرٌ، فقال: ﴿تَصَدَّقُوا۟﴾ بحذف التاء.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة : ٢٨٢).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج أبو يعقوب البغدادي في كتاب رواية الكبار عن الصغار عن سفيان قال: من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم**».

وأخرج الترمذي عن يزيد بن سلمة الجعفي إنه قال: يا رسول الله إني سمعت منك حديثاً كثيراً أخاف أن ينسيني أوّله آخره، فحدثني بكلمة تكون جماعاً قال ﷺ: «**اتق الله فيما تعلم**» (ويزيد الجعفي ضعيف).

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من معادن التقوى تعلمك إلى ما علمت ما لم تعلم. والنقص والتقصير فيما علمت قلة الزيادة فيه، وإنما يزهد الرجل في علم ما لم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم**».

وأخرج الدرامي عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون بما يعلمون. قال: فما ينفي العلم من صدور الرجال؟ قال: الطمع.

وأخرج البيهقي عن جابر قال: تعلموا الصمت ثمّ تعلموا الحلم ثمّ تعلموا العلم ثمّ تعلموا العمل به ثم انشروا.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن زياد: ما فقه قوم لم يبلغوا التقى.

۞ **قال تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ

صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٨٢).

قال **البقاعي** مبيناً وجه تعقيب آيات الربا بآية الدين: ولما نهى سبحانه وتعالى عن الربا وكان أحد مداياناتهم وكان غيره من الدين مأذوناً فيه وهو من أنواع الإنفاق مع دخوله في المطالبة برؤوس الأموال عقب ذلك بآية الدين. وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى لما ذكر في المال أمرين ينقصانه ظاهراً ويزكيانه باطناً: الصدقة وترك الربا وأذن في رؤوس الأموال وأمر بالإنظار في الإعسار وختم بالتهديد فكان ذلك ربما أطمع المدين في شيء من الدين ولو بدعوى الإعسار لـمّـا كان كذلك اقتضى حال الإنسان لما به من النقصان الإرشاد إلى حفظ المال الحلال وصونه عن الفساد والتنبيه على كيفية التوثق فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ كالذي تقدمه ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم ﴾ من التداين تفاعل بين اثنين من الدين.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٨٦).

قال **ابن عاشور**: وقوله ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ لم يؤت مع هذه الدعوات بقوله ﴿ رَبَّنَا ﴾، إما لأنه تكرر ثلاث مرات، والعرب تكره تكرير اللفظ أكثر من ثلاث مرات إلا في مقام التهويل، وإما لأن تلك الدعوات المقترنة بقوله ﴿ رَبَّنَا ﴾ فروع لهذه الدعوات الثلاث، فإذا استجيب تلك حصلت إجابة هذه بالأولى، فإن العفو أصل لعدم المؤاخذة، والمغفرة أصل لرفع المشقة، والرحمة أصل لعدم العقوبة الدنيوية والأخروية، فلما كان تعميماً بعد تخصيص، كان كأنه دعاء واحد.

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ (آل عمران : ٨)

قال في **الدر المنثور**: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». ثم قرأ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء! فقال: «**ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه، أما تسمعين قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾**». ولفظ ابن أبي شيبة: «**إذا شاء أن يقلبه إلى هدى قلبه، وإذا شاء أن يقلبه إلى ضلال قلبه**».

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد والبخاري في الأدب المفرد والترمذي وحسنه وابن جرير عن أنس قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». قالوا: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم. إنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها**».

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي عبيدة بن الجراح أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ قلب ابن آدم مثل قلب العصفور يتقلب في اليوم سبع مرات**».

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص عن أبي موسى قال: إنما سمي القلب قلباً لتقلبه، وإنما مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض.

وأخرج أحمد وابن ماجة عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**إن هذا القلب كريشة بفلاة من الأرض تقيمها الريح ظهراً لبطن**».

وأخرج مالك والشافعي وابن أبي شيبة وأبو داود والبيهقي في سننه عن أبي عبد الله الصنابحي. أنه قدم المدينة في خلافة أبي بكر الصديق، فصلى وراء أبي بكر المغرب، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن، وسورة من قصار المفصل. ثم قام في الركعة الثالثة، فقرأ بأم القرآن، وهذه الآية ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ** ﴾ .

وأخرج ابن جرير والطبراني في السنة والحاكم وصححه عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». قلنا: يا رسول الله تخاف علينا وقد آمنا بك؟ فقال: «**إنّ قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يقول به هكذا**». ولفظ الطبراني: «**إنّ قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**».

وأخرج أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن النوّاس بن سمعان سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الميزان بيد الرحمن. يرفع أقواماً ويضع آخرين إلى يوم القيامة، وقلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن. إذا شاء أقامه، وإذا شاء أزاغه**». وكان يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**».

وأخرج الحاكم وصححه عن المقداد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمع غلياناً**».

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا** ﴾ أي لا تمل قلوبنا وإن ملنا بأجسادنا.

وأخرج ابن سعد في طبقاته أن أبا هريرة كان يقول: أي رب لا أزنين، أي رب لا أسرقن، أي رب لا أكفرن. قيل له: أو تخاف؟ قال: آمنت بمحرِّف القلوب ثلاثاً.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي الدرداء قال: كان عبد الله ابن رواحة إذا لقيني قال: اجلس يا عويمر فلنؤمن ساعة، فنجلس فنذكر الله على ما يشاء. ثم قال: يا عويمر هذه مجالس الإيمان، إن مثل الإيمان ومثلك كمثل قميصك بينا أنت قد نزعته إذ لبسته، وبينا أنت قد لبسته إذ نزعته. يا عويمر للقلب أسرع تقلباً من القِدر، إذا استجمعت غلياناً.

وأخرج الحكيم الترمذي من طريق عتبة بن عبد الله بن خالد بن معدان عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّما الإيمان بمنزلة القميص، مرة تقمصه ومرة تنزعه**». وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي أيوب الأنصاري قال: ليأتين على الرجل أحايين وما في جلده موضع إبرة من النفاق، وليأتين عليه أحايين وما في جلده موضع إبرة من إيمان.

وأخرج أبو داود والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: «**لا إله إلا أنت سبحانك اللهم إني أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**».

وأخرج مسلم والنسائي وابن جرير والبيهقي عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء**». ثم قال رسول الله: «**اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك**».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ (آل عمران: ٩)، فقال ﴿جَامِعُ﴾ ولم يقل «تجمع الناس»، قال د. **فاضل:** أحياناً يُعبَّر عن الحدث بالاسم بدلاً من الفعل

للدلالة على الثبوت، كأن تقول لصاحبك: أتنجح هذا العام؟ فيقول: أنا ناجح، فهو لشدة وثوقه بنفسه يجيب وكأنّ الأمر قد تمّ واتصف صاحبه به وإن لم يكن ذاك، فقال ها هنا ﴿ جَامِعُ ٱلنَّاسِ ﴾ والأصل «تجمع الناس» لأنه في الاستقبال، ولكن لأنّ الأمر متحقق ثابت أخبر عنه باسم الفاعل الدال على الثبوت. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ (الذاريات : ٦) أي الحساب، ولم يقل «يقع». وكذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (هود : ١٠٣)، فقال ﴿ مَّجْمُوعٌ ﴾ باسم المفعول. وكان الأصل أن يقول «يجمع» لما في الاسم من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه الموصوف بهذه الصفة، ولذا قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ (التغابن : ٩).

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ (آل عمران : ٢٠)، فقال ﴿ ٱتَّبَعَنِ ﴾ بحذف الياء، بينما قال: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ (يوسف : ١٠٨) ، فقال ﴿ ٱتَّبَعَنِى ﴾ بزيادة الياء، وفي ذلك دقة بالغة لأنّ الآية الأولى في محاجة النصارى، ومفارقة أهل الكفر من لوازم الإسلام وأسسه التي لا يصح إسلامٌ بدونها، فناسب أن يقول ﴿ ٱتَّبَعَنِ ﴾ أي الحد الأدنى من المتابعة الذي لا يُقبل غيره، بينما الآية الثانية في الدعوة إلى الله، وهو ـ وإن كان عظيم الشأن في الإسلام ـ ليس من شرائط الإسلام، فقال ﴿ ٱتَّبَعَنِى ﴾ بزيادة الياء؛ لأنّ الدعوة إلى الله زيادة واجبة في متابعة النبي ﷺ ، فأكرم بدقة القرآن!!

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾ (آل عمران : ٥٢).

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ ﴾ تنبيه على أنه ظهر منهم الكفر ظهوراً بان للحس فضلاً عن التفهم. أفاده **الفيروز أبادي** في بصائر ذوي التمييز.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٧). وهذا من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب وإنما ذكر الله

سبحانه الحج بأبلغ ألفاظ الوجوب تأكيداً لحقه وتعظيماً لحرمته وتقوية لفرضه. أفاده **ابن العربي** في أحكام القرآن.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (آل عمران: ١٠١).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ** ﴾ قال: يؤمن بالله. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: الاعتصام بالله: الثقة به.

وأخرج عبد بن حميد من طريق الربيع عن أبي العالية قال: إنّ الله قضى على نفسه. أنه من آمن به هداه، ومن توكل عليه كفاه، ومن أقرضه جزاه، ومن وثق به أنجاه، ومن دعاه استجاب له بعد أن يستجيب لله. قال الربيع: وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾، ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾، ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى ﴾.

وأخرج تمام في فوائده عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوحى الله إلى داود: يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء من بين يديه، وأسخت الهواء من تحت قدميه**».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ (آل عمران: ١٠٢، ١٠٣)، وقال أيضاً: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣)، قال د. فاضل: فقال في آية آل عمران: ﴿**وَلَا**

﴿تَفَرَّقُواْ﴾ بحذف إحدى التاءين، وقال في آية الشورى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ﴾ وذلك لأكثر من سبب منها:

١ – أن آية آل عمران خطاب للأمة الإسلامية وأما آية الشورى فالكلام فيها على أمم مختلفة وشرائع متعددة ذكر منها شريعة نوح وشريعة سيدنا محمد وإبراهيم وموسى وعيسى فلما كانت هذه في أمم متطاولة على مدى التاريخ جاء بالصيغة التي هي أطول.

٢– أنه نهى الأمة الإسلامية عن أي شيء من التفرق مهما كان قليلاً أو جزئياً وحذر من ذلك فقال ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ فاقتطع من الفعل للدلالة على النهي عن أي شيء من التفرق مهما قل وضؤل.

٣– ومن الملاحظ أنه جاء بـ ﴿أَنْ﴾ التفسير في آية الشورى ولم يخاطبهم مخاطبة صريحة فقال: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ في حين نهاهم نهياً مباشراً في آل عمران فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ والكلام المباشر الصريح أهم وآكد من المفسر فقولك: «قلت له: يا فلان افعل» أهم وآكد من قولك: «أوصيته أن افعل». وهناك ملاحظة أخرى في التعبير أنه جاء بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في شرائع الأمم الأخرى وجاء بـ ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ في شريعة سيدنا محمد ﷺ فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ في حين قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ذلك أن ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ أعرف من ﴿مَا﴾ كما هو معلوم. فلما كانت شريعة سيدنا محمد ﷺ أعرف من شرائع الأمم الأخرى لنا لأننا نعرفها كلها جاء بـ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ ولما كانت شرائع الأمم الأخرى ليست بمنزلة شريعة سيدنا محمد من حيث معرفتنا بها فإنا نعلم ما أعلمنا به ربنا في القرآن الكريم جاء بـ ﴿مَا﴾، والله أعلم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٦)، ولم يقل «فيقال لهم أكفرتم

بعد إيمانكم» وذلك لأنّ حال ملائكة العذاب ومناظرهم تدل على إرادة تعذيب هؤلاء المجرمين وليس قولهم فقط هو الذي يوحي بالعذاب، فناسب ألّا يقول «فيقال لهم» للدلالة على ذلك.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١١٩). قال **ابن عاشور**: و﴿ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ ﴿ مِنَ ﴾ للتعليل، و﴿ٱلْغَيْظِ ﴾: غضب شديد يلازمه إرادة الانتقام.

وقوله ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ كلام لم يقصد به مخاطبون معينون لأنه دعاء على الذين يعضون الأنامل من الغيظ، وهم يفعلون ذلك إذا خلوا، فلا يتصور مشافهتهم بالدعاء على التعيين ولكنه كلام قصد إسماعه لكل من يعلم من نفسه الاتصاف بالغيظ على المسلمين، وهو قريب من الخطاب الذي يقصد به عموم كل مخاطب، نحو ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ ﴾ . والدعاء عليهم بالموت بالغيظ صريحه طلب موتهم بسبب غيظهم، وهو كناية عن ملازمة الغيظ لهم طول حياتهم إن طالت أو قصرت، وذلك كناية عن دوام سبب غيظهم، وهو حسن حال المسلمين، وانتظام أمرهم، وازدياد خيرهم، وفي هذا الدعاء عليهم لزوم ألم الغيظ لهم، وتعجيل موتهم به، وكل من المعنيين المكني بهما مراد هنا، والتكني بالغيظ وبالحسد عن كمال المغيظ منه للحسود مشهور، والعرب تقول: فلان محسد، أي هو في حالة نعمة وكمال.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ (آل عمران : ١٢٠).

قال د. **فاضل**: قرأ الكوفيون وابن عامر: ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ ﴾ بضم الضاد والراء المشددة من ضَرَّ يضر ... وقرأ عاصم فيما روى أبو زيد عن المفضل عنه بضم الضاد وفتح الراء المشددة وزعم أبو حيان أنّ فتح الراء أحسن من قراءة ضم الراء، وفيه

نظر، نعم إنه أشهر وأكثر ولكن ليس أحسن. وكيف تكون أحسن وهي ليست قراءة متواترة فهي ليست من القراءات السبع ولا العشر بخلاف قراءة الضم فإنه قرأ بها أربعة من السبعة وهم عاصم وحمزة بن حبيب الزيات والكسائي وابن عامر إضافة إلى ابن جعفر من العَشَرَة. والقراءة بالفتح في هذا الموضع تشير إلى أنه ليس ثمة شيء من الضرر يصيبهم وأما القراءة بالضم فكذلك إلا أن فيها إشارة إلى ثقل الحالة التي هم فيها وأنه وإن لم يضرهم الكيد إلا أنهم قد ينالهم الأذى كما قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ (آل عمران: ١١١) ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي تصبروا على أذاهم ومضايقتهم وتصبروا على طاعة الله وتتقوا المحرمات وأسباب الوهن ومنافذ أعداء الله مما يدل على أن ثمة أذى قد يصيبهم. فالقراءة بالفتح تشير إلى أن ليس ثمة شيء من ذلك يصيبهم وإلى تهوين أمرهم. أما القراءة بالضم فتشير إلى أن هذه الحالة أثقل وأشق من الأولى فهي تحتاج إلى مراقبة وصبر وتقوى وأنهم مع ذلك قد ينالهم الأذى والمكارة فالقراءة بالفتح تُخَفِّفُ الأمر وتهونه وذلك لخفة الفتحة والقراءة بالضم تشدده وفيها إشارة وتوجيه إلى ضرورة الحزم والصبر ليستعدوا لما قد ينالهم من الأذى والمكروه وإن كان أخبر أن الكيد لا يضرهم فكان للضمة وجه حسن، والله أعلم.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ (آل عمران: ١٢٤)، وقال: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ (آل عمران: ١٢٥)، فقال: ﴿ءَالَٰفٍ﴾ وهو جمع قلة بينما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ (البقرة: ٢٤٣)، فقال: ﴿أُلُوفٌ﴾ وهو جمع كثرة؛ وذلك لأنّ عددهم ـ كما نُقل ـ زاد على العشرة الآلاف بخلاف الآية الأولى والثانية، أفاده د. فاضل السامرائي.

قَالَ تَعَالَىٰ عن الحمر الأهلية: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ (النحل: ٨) ، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩)، فجمع

الحمار على «حمير» بينما قال عن الحمر الوحشية: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر: ٥٠، ٥١)، وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ حركة الضم فيها ثقل، والآية تتكلم عن الحمر الوحشية التي هي أقوى من الحمر الأهلية وبعيدة عن الاستئناس، ناسب أن تذكر بصيغة الجمع ﴿ حُمُرٌ ﴾ التي فيها ثقل في حروفها بخلاف الحمر الأهلية المستأنسة، فناسب أن تذكر بصيغة ﴿ ٱلْحَمِيرِ ﴾ التي فيها الحاء المفتوحة والميم المكسورة، وهما أخف من الحاء والميم المضمومتين، وهذا من لطائف الكتاب العزيز.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ (طه: ٨٦)، فقال: ﴿ غَضْبَٰنَ ﴾ ولم يقل «غَضب»، وقال ﴿ أَسِفًا ﴾ ولم يقل «أسيف»، وفي ذلك دقة بالغة؛ لأنّ ﴿غَضْبَٰنَ﴾ فعلان تدل على الامتلاء بالوصف إلى الحد الأقصى، فالغضبان هو الممتلئ غضباً، وأما صيغة «فَعِل» فتدل على العرض وعدم الثبوت، فلمّا كان الأسف قد عرض له دون أن يكون وصفاً ملازماً له قال: ﴿أَسِفًا﴾ ولم يقل «أسيف» التي تدل على الثبوت، ومنه قول عائشة: «إن أبا بكر رجلٌ أسيف» أي: حزين، هذه صفته، أفاده د. **فاضل** بمعناه.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

قال في **(الظلال)**: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ ﴾ من الوهن والضعف ﴿ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ لما أصابكم ولما فاتكم ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ ... عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى. فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله! ودوركم أعلى. فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها، الهداة لهذه البشرية كلها، وهم شاردون عن النهج، ضالون عن الطريق. ومكانكم في الأرض أعلى، فلكم وراثة الأرض التي وعدكم الله بها، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون .. فإن كنتم مؤمنين حقاً فأنت الأعلون. وإن كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا. فإنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا، على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٠، ١٤١).

قال في (**الظلال**): وذكر القرح الذي أصابهم وأصاب المكذبين قرح مثله، وقد يكون إشارة إلى غزوة بدر. وقد مس القرح فيها المشركين وسلم المسلمون. وقد يكون إشارة إلى غزوة أحد. وقد انتصر فيها المسلمون في أول الأمر. حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون، وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم حتى لقد سقط علم المشركين في ثنايا المعركة فلم يتقدم إليه منهم أحد. حتى رفعته لهم امرأة فلاثوا بها وتجمعوا عليها... ثم كانت الدولة للمشركين، حينما خرج الرماة عن أمر رسول الله ﷺ واختلفوا فيما بينهم. فأصاب المسلمين ما أصابهم في نهاية المعركة. جزاء وفاقاً لهذا الاختلاف وذلك الخروج. وتحقيقاً لسنة من سنن الله التي لا تتخلف، إذا كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع في الغنيمة. والله قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله، لا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد. وتحقيقاً كذلك لسنة أخرى من سنن الله في الأرض، وهي مداولة الأيام بين الناس ـ وفقاً لما يبدو من عمل الناس ونيتهم ـ فتكون لهؤلاء يوماً ولأولئك يوماً. ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون. كما تتكشف الأخطاء. وينجلي الغبش. ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نداولها بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، وطبائع القلوب، ودرجة الغبش فيها والصفاء، ودرجة الهلع فيها والصبر، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح! عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن: مؤمنين ومنافقين، ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم، وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم. ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده، وهم مختلطون مبهمون!

والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين. والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور. ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء، وتجعله واقعاً في حياة الناس، وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر، ومن ثَمَّ يتعلق به الحساب والجزاء. فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم. ومداولة الأيام، وتعاقب الشدة والرخاء، محك لا يخطئ، وميزان لا يظلم. والرخاء في هذا كالشدة. وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل. والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء، وتتجه إلى الله في الحالين، وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله.

وقد كان الله يربي هذه الجماعة ـ وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية ـ فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب ـ وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة. لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة. ولتزيد طاعةً لله، وتوكلاً عليه، والتصاقاً بركنه. ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين. ويمضي السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة، وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس، وفيما بعد تمييز الصفوف، وعلم الله للمؤمنين.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

قال في **(الظلال)**: وهو تعبير عجيب عن معنى عميق ـ إن الشهداء لمختارون. يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه ـ سبحانه ـ فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد. إنما هو اختيار وانتقاء، وتكريم واختصاص... إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة، ليستخلصهم لنفسه ـ سبحانه ـ ويخصهم بقربه. ثُمَّ هم شهداء يتخذهم الله، ويستشهدهم على هذا الحق

الذي بعث به للناس. يستشهدهم فيؤدون الشهادة. يؤدونها أداء لا شبهة فيه، ولا مطعن عليه، ولا جدال حوله. يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق، وتقريره في دنيا الناس. يطلب الله ـ سبحانه ـ منهم أداء هذه الشهادة، على أن ما جاءهم من عنده الحق؛ وعلى أنهم آمنوا به، وتجردوا له، وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه؛ وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق؛ وعلى أنهم هم استيقنوا هذا، فلم يألوا جهداً في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس، وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس.. يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون. وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت. وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال!

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.
(آل عمران: ١٤٤)

قال في **(الظلال)**: إن محمداً ﷺ ليس إلا رسولاً. سبقته الرسل. وقد مات الرسل. ومحمد سيموت كما مات الرسل قبله.. هذه حقيقة أولية بسيطة. فما بالكم غفلتم عنها حينما واجهتكم في المعركة؟! إنّ محمداً رسول من عند الله، جاء ليبلغ كلمة الله. والله باق لا يموت، وكلمته باقية لا تموت.. وما ينبغي أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبي الذي جاء ليبلغهم هذه الكلمة أو قتل.. وهذه كذلك حقيقة أولية بسيطة غفلوا عنها في زحمة الهول. وما ينبغي للمؤمنين أن يغفلوا عن هذه الحقيقة الأولية البسيطة! إنّ البشر إلى فناء، والعقيدة إلى بقاء، ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤيدونه إلى الناس، من الرسل والدعاة على مدار التاريخ.. والمسلم الذي يحب رسول الله ﷺ وقد كان أصحابه يحبونه الحب الذي لم تعرف له النفس البشرية في تاريخها كله نظيراً. الحب الذي يفدونه معه بحياتهم أن تشوكه شوكة. وقد رأينا أبا دجانة يترس عليه بظهره والنبل يقع فيه ولا يتحرك! ورأينا التسعة الذين

أفرد فيهم ينافحون عنه ويستشهدون واحداً إثر واحد.. وما يزال الكثيرون في كل زمان وفي كل مكان يحبونه ذلك الحب العجيب بكل كيانهم، وبكل مشاعرهم، حتى ليأخذهم الوجد من مجرد ذكره ﷺ .. هذا المسلم الذي يحب محمداً ذلك الحب، مطلوب منه أن يفرق بين شخص محمد ﷺ والعقيدة التي أبلغها وتركها للناس من بعده، فهي باقية ممتدة موصولة بالله الذي لا يموت. إنّ الدعوة أقدم من الداعية. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾. قد خلت من قبله الرسل يحملون هذه الدعوة الضاربة في جذور الزمن، العميقة في منابت التاريخ، المبتدئة مع البشرية، تحدو لها بالهدى والسلام من مطالع الطريق. وهي أكبر من الداعية، وأبقى من الداعية. فدعاتها يجيئون ويذهبون، وتبقى هي على الأجيال والقرون، ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول، الذي أرسل بها الرسل، وهو باق ـ سبحانه ـ يتوجه إليه المؤمنون.. وما يجوز أن ينقلب أحد منهم على عقبيه، ويرتد عن هدي الله. والله حي لا يموت.

فائدة: قلتُ: يلاحظ أنه سبحانه قال: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ** ﴾، فقال ﴿ **ٱلشَّـٰكِرِينَ** ﴾ ولم يقل «الثابتين» ليدل على أنّ حقيقة شكر نعمة الإسلام والإيمان هي الثبات عليهما والتمسك بهما مهما كانت الفتن.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ** ﴾ .
(آل عمران : ١٥٤)

قال **ابن عاشور**: والأمنة بفتح الميم: الأمن، والنعاس: النوم الخفيف أو أول النوم، وهو يزيل التعب ولا يغيب صاحبه، فلذلك كان أمنة إذ لو ناموا ثقيلاً لأُخِذُوا، قال أبو طلحة الأنصاري، والزبير، وأنس بن مالك: غشينا نعاساً حتى أن السيف ليسقط من يد أحدنا. وقد استجدوا بذلك نشاطهم، ونسوا حزنهم، لأن الحزن تبتدئ خفته بعد أول نومة تعفيه، كما هو مشاهد في أحزان الموت وغيرها. و﴿ **نُّعَاسًا** ﴾ بدل على

﴿ أَمَنَةً ﴾ بدل مطابق. وكان مقتضى الظاهر أن يقدم النعاس ويؤخر أمنة: لأن أمنة بمنزلة الصفة أو المفعول لأجله ولخفة التقديم على المفعول كما جاء في آية الأنفال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾، ولكنه قدم الأمنة هنا تشريفاً لشأنها لأنها جعلت كالمنزل من الله لنصرهم، فهو كالسكينة، فناسب أن يجعل هو مفعول أنزل، ويجعل النعاس بدلاً منه.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ
﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ
وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٦٩ - ١٧٢).

قال في (**الظلال**): لقد شاء الله بعد أن جلَّى في قلوب المؤمنين حقيقة العذر والأجل، وتحدى ما يبثه المنافقون من شكوك وبلبلة وحسرات بقولهم عن القتلى: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ فقال يتحداهم: ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

شاء الله بعد أن أراح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة. أن يزيد هذه القلوب طمأنينة وراحة. فكشف لها عن مصير الشهداء: الذين قتلوا في سبيل الله. وليس هنالك شهداء إلا الذين يقتلون في سبيل الله خالصة قلوبهم لهذا المعنى، تجرده من كل ملابسة أخرى ـ فإذا هؤلاء الشهداء أحياء، لهم كل خصائص الأحياء. فهم ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ عند ربهم. وهم فرحون بما آتاهم الله من فضله. وهم يبشرون بكل صائر من وراءهم من المؤمنين. وهم يحفلون الأحداث التي تمر بمن خلفهم من إخوانهم.. فهذه خصائص الأحياء: من متاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير.. فما الحسرة على فراقهم؟ وهم أحياء موصولون بالأحياء وبالأحداث فوق ما نالهم من فضل الله،

وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة؟ وما هذه الفواصل التي يقيمها الناس في تصوراتهم بين الشهيد الحي ومن خلفه من إخوانه والتي يقيمونها بين عالم الحياة وعالم ما بعد الحياة؟ ولا فواصل ولا حواجز بالقياس إلى المؤمنين، الذين يتعاملون هنا وهناك مع الله...؟ إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصور الأمور. إنها تعدل بل تنشئ إنشاء ـ تصور المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها، وهي موصولة لا تنقطع، فليس الموت خاتمة المطاف؟ بل ليس حاجزاً بين ما قبله وما بعده على الإطلاق!

إنها نظرة جديدة لهذا الأمر. ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين واستقبالهم للحياة والموت، وتصورهم لما هنا وما هنالك.



سُورَةُ النِّسَاءِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (النساء: ٣).

قال **ابن عاشور:** ﴿ مَا طَابَ ﴾ كان الشأن أن يؤتى بـ«من» الموصولة لكن جيء بـ ﴿ مَا ﴾ المغلبة في غير العقلاء، لأنها نُحيَّ بها منحنى الصفة وهو الطيب بلا تعيين ذات، ولو قال «من» لتبادر الذهن إلى إرادة نسوة طيبات معروفات بينهم، وكذلك حال «ما» في الاستفهام، كما قال صاحب الكشاف وصاحب المفتاح، فإذا قلت: ما تزوجت؟ فأنت تريد صفتها أبكراً أم ثيباً مثلاً، وإذا قلت: من تزوجت؟ فأنت تريد تعيين اسمها ونسبها.

قلتُ: وهذه فائدة جليلة، وقد كنتُ قدمتُ لها توجيهاً آخر في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ (النساء: ١٠)، فقال: ﴿ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ ولم يقل «الأيتام»، قال **د. فاضل:** هذا البناء «فعالى» إنما يدل على المكاره والآفات والبلايا، فأنت تجمع أحمق على حُـمْق، فإن أردتَ أنّ فيهم مقداراً من الحمق أصبح عليهم بلية وآفة جـمعته على حمقى، وتقول: عطشان وعِطاش، فإن أردت أنّ العطش استحكم فيهم حتى أصبح بليةً عليهم وآفة نازلة قلت: عطاشى، وتقول: يتيم وأيتام، فإن أردت الإشارة إلى أنّ اليتم أصبح على أصحابه آفةً وبليةً قلت: يتامى، فجمع على «يتامى» لتشنيع فعلة الآكل، فهؤلاء يتامى مهضومون أثّر عليهم اليُتْم حتى أصبح بليةً نازلة عليهم، فكيف يسوغ أكل ماهم ظلماً؟ وكيف تطيب نفس الآكل بأكل أموال هؤلاء اليتامى؟!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ (الحجر: ٢٢)، فجمع خازن على ﴿ بِخَٰزِنِينَ ﴾ بينما قال: ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ ﴾ (الزمر: ٧١)، وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ (غافر: ٤٩)،

فجمع «خازن» على ﴿ لِخَزَنَةِ ﴾، قال د. **فاضل**: سر ذلك أنّ الجمع السالم يدل على إرادة الحدث «الفعل»، وجمع التكسير يبعدها عن إرادة الحدث ويقربها إلى الاسمية، ففي الآية الأولى قال ﴿ بِخَٰزِنِينَ ﴾ للدلالة على الفعلية، وقال في الآيتين الأخريين ﴿لِخَزَنَةِ ﴾ التي تدل على الاسم إذ هو اسم لصنفٍ من الملائكة الموكلين بالنار. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾ (الروم : ٨)، ولم يقل «لكفرة» ولا «لكفار» لأنّ في «كافرين» معنى الحدث.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ (الرعد : ٣)، وقوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ (المرسلات : ٢٧) للدلالة على إرادة الفعل، بينما قال: ﴿ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ (سبأ : ١٣)، لإرادة الاسمية.

ومّما يوضح هذا الأمر أنك تقول: إنا كاتبون لك هذا الأمر ولا يحسن أن تقول: إنا كَتَبة لك هذا ولا كُتاب لك هذا الأمر. وتقول: نحن حافظون لكم ثروتكم، ولا يحسن أن تقول: نحن حَفَظة لكم ثروتكم أو حُفاظ، ولذا قال سبحانه: ﴿ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة : ١١٢)، وقال: ﴿ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ ﴾ (الأحزاب : ٣٥) لأنّ المراد: الذين يحفظون حدود الله، والذين يحفظون فروجهم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء : ١٩).

قال **ابن عاشور**: واقتصر هنا على مقاربة حصول الكراهية لشيء فيه خيرٍ كثير، دون مقابله، كما في آية البقرة ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ ﴾ لأنّ المقام في سورة البقرة مقام بيان الحقيقة بطرفيها إذ المخاطبون فيها كرهوا القتال، وأحبوا السلم، فكان حالهم مقتضياً بيان أن القتال قد يكون هو الخير لما يحصل بعده من أمن دائم، وقطع شوكة العدو، وأن السلم قد يكون شراً لما يحصل معها من استخفاف الأعداء بهم،

وطمعهم فيهم، وذهاب عزهم المفضي إلى استعبادهم، أما المقام في هذه السورة فهو لبيان حكم من حدث بينه وبين زوجه ما كرهه فيها، دوام فراقها، وليس له مع ذلك ميل إلى غيرها، فكان حاله مقتضياً بيان ما في كثيرٍ من المكروهات من الخيرات، ولا يناسب أن يبين له أن في بعض الأمور المحبوبة شروراً لكونه فتحاً لباب التعلل لهم بما يأخذون من الطرف الذي يميل إليه هواهم.

وأسند جعل الخير في المكروه هنا لله بقوله: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ المقتضي أنّه جعلٌ عارضٌ لمكروهٍ خاص، وفي سورة البقرة قال: ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن تلك بيان لما يقارن بعض الحقائق من الخلف في ذات الحقيقة، ليكون رجاء الخير من القتال مطرداً في جميع الأحوال غير حاصل بجعلٍ عارض بخلاف هذه الآية، فإنّ الصبر على الزوجة المؤذية أو المكروهه إذا كان لأجل امتثال أمر الله بحسن معاشرتهنّ، يكون جعل الخير في ذلك جزاءاً من الله على الامتثال.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١)، فقال: ﴿كَبَآئِرَ﴾ ولم يقل «كُبَرَ»، وفي ذلك دقة قرءانية عظيمة لأنّ حركة الضم أقوى من الفتح، فلو قال: «كُبَرَ» بضم الكاف لكانت مغفرة الصغائر منوطة بترك كبار الكبائر فقط، فإنّ الكبائر متفاوتة، ولذلك وردت أحاديث فيها لفظ «أكبر الكبائر»، فلمّا قال: ﴿كَبَآئِرَ﴾ بفتح الكاف دلّ على أن تكفير الصغائر يشترط له ترك الكبائر كلها سواءٌ أكبر الكبائر أو غيرها، وهذا ما يفيده فتحة الكاف، فما أعظم القرآن!! وما أجمله!! وما أروعه!!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ (النحل: ٤٨)، فقال ﴿سُجَّدًا﴾ بينما قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الحج: ٢٦)، فقال ﴿ٱلسُّجُودِ﴾، وذلك لأنّ المصادر

كالسجود تأتي للدلالة على وجود الفعل الحقيقي، فلمّا كان ما يُرى من الظلال هو السجود الظاهر قال: ﴿ سُجَّدًا ﴾، ولذا أيضاً قال: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ (الفتح : ٢٩) لأنّ خضوع الباطن لا يراه الناظر، ولذا أيضاً قال: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ (يوسف : ١٠٠) لأنهم لم يخضعوا ليوسف وإنما كان سجود تحية لا خضوع عبادة، وأمّا قوله تعالى: ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (الإسراء : ١٠٧)، وقوله: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ (طه : ٧٠) ، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ (الفرقان : ٦٤)، وقوله: ﴿ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا ﴾ (السجدة : ١٥)، فإنّ المراد منه بيان وقوع عبادة السجود بهيئتها المشروعة، فقال ﴿ سُجَّدًا ﴾ التي تدل على حصول الهيئة الظاهرة، ولو قال «سجود» لربما فُهم منها الخضوع الباطني فقط دون وجود هيئة السجود الظاهرة، وأمّا آية الحج: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ ومثلها ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (البقرة : ١٢٥)، فإنّ قوله ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ﴾ يفيد وجود هيئة السجود الظاهرة معه لأنّ الركوع لا يشرع إلّا في صلاة، فقال: ﴿ ٱلسُّجُودِ ﴾ ليدل على وجود خضوع الباطن مع هذه السجود الظاهري، ولو قال «السجد» لما أفاد ذلك، كما أنّ قوله ﴿ ٱلسُّجُودِ ﴾ لم يرد إلّا فيما يتعلق بالبيت الحرام، ففي ذلك إشارة إلى حلاوة السجود الخاصة هنالك، وعلى كمال الخضوع الذي يعتري القلب إذا سجد في رحاب تلك البقاع المقدسة، والمتأمل لسير الصالحين يجد اجتهادهم في الصلاة عموماً والسجود خصوصاً هنالك. فإن قيل: لِمَ قال في آية الفتح: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ مع أنّ كلمة ﴿ رُكَّعًا ﴾ تدل أيضاً على وجود هيئة السجود الظاهرة؟ **قلتُ:** لّما قال ﴿ تَرَىٰهُمْ ﴾ والخضوع القلبي لا يُرى ناسب أن يقول ﴿ سُجَّدًا ﴾، والله أعلم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (النساء : ٣٤).

قال **ابن عاشور**: ومن بديع الإعجاز صوغ قوله ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ في قالب صالح للمصدرية والموصولية، فالمصدرية مشعرة بأن العناية سببها تفضيل من الله وإنفاق، والموصولية مشعرة بأن سببها ما يعلمه الناس من فضل الرجال ومن إنفاقهم ليصلح الخطاب للفريقين: عالمهم وجاهلهم.

ولأن في الإتيان بـ «ما» مع الفعل على تقدير احتمال المصدرية جزالة لا توجد في قولنا: بتفضيل الله وبالإنفاق، لأن العرب يرجحون الأفعال على الأسماء في طرق التعبير.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ٦٦ - ٦٨).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا، أن اقتلوا أنفسكم، فقتلنا أنفسنا. فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم، لقتلنا أنفسنا. فأنزل الله في هذا ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

وأخرج ابن جرير عن أبي إسحاق السبيعي قال: لما نزلت ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية. قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**إنّ من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي**».

وأخرج ابن المنذر من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن زيد بن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال ناس من الأنصار: والله لو كتبه الله علينا لقبلنا، الحمد لله الذي عافانا، ثم الحمد لله الذي عافانا. فقال رسول الله ﷺ: «**الإيمان أثبت في قلوب رجال من الأنصار من الجبال الرواسي**».

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق هشام عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ قال أناس من الصحابة: لو فعل ربنا ... فبلغ النبي ﷺ فقال: «**للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي**».

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: نزلت ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله ـ والله ـ لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت. قال: «**صدقت يا أبا بكر**».

وأخرج ابن أبي حاتم عن شريح بن عبيد قال: لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال: لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل. وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في الآية قال: قال النبي ﷺ: «**لو نزلت كان ابن أم عبد منهم**» أ. هـ . **قلتُ**: تُرى من فينا يقول ذلك صادقاً !!

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا** (٧٧) **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ (النساء: ٧٧، ٧٨).

قال في (**الظلال**): إنهم يخشون الموت، ويريدون الحياة. ويتمنون في حسرة مسكينة! لو كان قد أمهلهم بعض الوقت؛ ومد لهم ـ شيئاً ـ في المتاع بالحياة!

والقرآن يعالج هذه المشاعر في منابتها؛ ويجلو غبش التصور لحقيقة الموت والأجل.. ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ**﴾. متاع الدنيا كله. والدنيا كلها. فما بال أيام، أو أسابيع، أو شهور، أو سنين؟ ما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير. إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها في جملته قليلاً؟! ما الذي يملكون تحقيقه من المتاع في أيام، أو أسابيع، أو شهور، أو سنين.. ومتاع الدنيا كله والدنيا بطولها قليل؟! ﴿**وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ**﴾. فالدنيا ـ أولاً ـ ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة.. إنها مرحلة ... ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع

ـ فضلاً على أن المتاع فيها طويل كثير ـ فهي ﴿ خَيْرٌ ﴾ .. ﴿ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ ... وتذكر التقوى هنا والخشية والخوف في موضعها. التقوى لله. فهو الذي يُتقَى، وهو الذي يُخْشَى. وليس الناس.. الناس الذين سبق أن قال: إنهم يخشونهم كخشية الله ـ أو أشد خشية! ـ والذي يتقي الله لا يتقي الناس. والذي يعمر قلبه الخوف من الله لا يخاف أحداً. فماذا يملك له إذا كان الله لا يريد؟

﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾. فلا غبن ولا ضير ولا بخس؛ إذا فاتهم شيء من متاع الدنيا. فهنالك الآخرة. وهناك الجزاء الأوفى؛ الذي لا يبقى معه ظلم ولا بخس في الحساب الختامي للدنيا والآخرة جميعاً! ولكن بعض الناس قد تهفو نفسه ـ مع هذا كله ـ إلى أيام تطول به في هذه الأرض! حتى وهو يؤمن بالآخرة، وهو ينتظر جزاءها الخيِّر.. وبخاصة حين يكون في المرحلة الإيمانية التي كانت فيها هذه الطائفة! هنا تجيء اللمسة الأخرى. اللمسة التي تصحح التصور عن حقيقة الموت والحياة، والأجل والقدر؛ وعلاقة هذا كله بتكليف القتال، الذي جزعوا له هذا الجزع، وخشوا الناس فيه هذه الخشية! ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾. فالموت حتم في موعده المقدر. ولا علاقة له بالحرب والسلم. ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته. ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن؛ ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن موعده..

هذا أمر وذاك أمر؛ ولا علاقة بينهما.. إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل. بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد.. وليست هناك علاقة أخرى.. ولا معنى إذن لتمني تأجيل القتال. ولا معنى إذن لخشية الناس في قتال أو في غير قتال!

وبهذه اللمسة الثانية يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر؛ وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر..

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية.. فقد سبق أن أمرهم الله بأخذ الحذر. وفي مواضع أخرى أمرهم بالاحتياط في صلاة الخوف. وفي سور أخرى أمرهم باستكمال العدة والأهبة.. ولكن هذا كله شيء، وتعليق الموت والأجل به شيء آخر.. إن أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يطاع، وله حكمته الظاهرة والخفية، ووراءه تدبير الله.. وإن التصور الصحيح لحقيقة العلاقة بين الموت والأجل المضروب ـ رغم كل استعداد واحتياط ـ أمر آخر يجب أن يطاع؛ وله حكمته الظاهرة والخفية، ووراءه تدبير الله..

توازن واعتدال. وإلمام بجميع الأطراف. وتناسق بين جميع الأطراف..

هذا هو الإسلام. وهذا هو منهج التربية الإسلامي، للأفراد والجماعات..

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ (النساء : ٨١)، فقال ﴿ طَاعَةٌ ﴾ بالرفع، ولم يقل «طاعةً»؛ للدلالة على كذبهم ونفاقهم وشدة مبالغتهم في بيان صدقهم لأنّ ﴿ طَاعَةٌ ﴾ بالرفع أدل على الطاعة من النصب؛ فجملة الرفع اسمية، وجملة النصب فعلية، قال **الزمخشري**: قوله ﴿ طَاعَةٌ ﴾ أي: أمرنا وشأننا طاعة، ويجوز النصب بمعنى: أطعناك طاعةً، والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢)، وقال أيضاً: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد : ٢٤)، فقال في الآيتين ﴿ يَتَدَبَّرُونَ ﴾ بينما قال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون : ٦٨)، فقال ﴿ يَدَّبَّرُواْ ﴾، وسرّ ذلك أنّ صيغة «تفعّل» ـ كما ذكر د. **فاضل** ـ تأتي لما يحتاج إلى تكرار وتطاول زمن، وصيغة «يفَّعّل» تأتي لما يحتاج إلى مبالغة في الفعل، فلما كان تدبر القرءان ممّا يؤمر به على التطاول والتكرار

ناسب أن يقول ﴿ يَتَدَبَّرُونَ ﴾ من «تفعّل» وأمّا تدبر ما أمرهم به الرسول من إسلام الوجه لله ونبذ الأصنام التي كان يعبدها آباؤهم، فهو ممّا يحتاج إلى عمق ومبالغة في التفكر لمشقة مفارقة الإلف ومخالفة العادات والتقاليد.

قلتُ: ومثله قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ (الليل: ١٧، ١٨)، فقال: ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ بينما قال: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ (عبس: ١ - ٣)، فقال ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ بوزن «يتفعّل» الدالة على التطاول والتكرار، وهكذا الصدقة كمالها في الإكثار منها والمداومة عليها، بينما قال ﴿ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ بوزن «يفّعّل» الدال على العمق والمبالغة، وهكذا زكاة القلب كمالها في وصول معاني الإيمان وحقائق الإحسان إلى أعماق القلوب ورسوخها فيها.

ولذا ـ والله أعلم ـ قال سبحانه: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأنفال: ٥٥ - ٥٧). فقال: ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ من «فعّل» التي تدل على العمق والمبالغة، فإنّ تأديب هؤلاء الكفار بالجهاد يحدث فيهم أثراً قوياً بالغاً، وكذا فتنة المنافقين في كل مرة أو مرتين سواءٌ قلنا: الفتنة هي أمرهم بالجهاد أو غيرها، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٤ - ١٢٦)، فقال: ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أيضاً، وكذا قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ٧)،

فقال: ﴿ يَذَّكَّرُ ﴾ على وزن «يفَّعّل»، وذلك لما يحتاجه تمييز المتشابه والإيمان به من قوة إيمان ورسوخ قدم في العقيدة، وكذا قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (الإسراء: ٤١)، فقال ﴿ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ ، لأنّ ما في القرءان يُرسّخ المعاني في القلب، بينما قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٤، ٢٥)، فقال ﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لأنّ ضرب المثل أمرٌ متكرر متطاول، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الزمر: ٢٧)، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر: ٣٧)، فقال: ﴿ تَذَكَّرَ ﴾ ليدل على تكرار وتطاول سنين عمرهم بما يكفي للاتعاظ والإنابة.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ (النساء: ٩٧ - ٩٩). وقال أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٢٧، ٢٨).

فقال في آية النساء: ﴿ تَوَفَّىٰهُمُ ﴾ بحذف إحدى التاءين وقال في سورة النحل: ﴿ تَتَوَفَّىٰهُمُ ﴾ من دون حذف؛ قال د. **فاضل**: سرّ ذلك أن المتوفين في سورة النساء هم جزء من الذين هم في سورة النحل فالذين في سورة النحل هم الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين على وجه العموم وأما الذين في سورة النساء فهم المستضعفون منهم فهم قسم منهم فلما كان هؤلاء أقل حذف من الفعل إشارةً إلى الاقتطاع من الحدث وإلى قلته.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء : ١٠٠)، فقال ﴿ بَيْتِهِۦ ﴾ ولم يقل «بلده» ليدل على أنّ له بيتاً يأوي إليه، وأهلاً يسكن إليهم ومع ذلك ترك ذلك كله لله ورسوله ﷺ، وقال ﴿ يَخْرُجْ ﴾، ﴿ يُدْرِكْهُ ﴾ بالمضارع لتصوير حالة الخروج وما فيها من مشقة وكذا حال الموت الذي يطلب العباد كما يطلبون رزقهم أو أشدّ، بينما قال ﴿ وَقَعَ ﴾ بالماضي ليدل على تحقق ذلك وثبوته لهم. ويحتمل كذلك أن يكون سر مجيء الفعل المضارع ﴿ يَخْرُجْ ﴾ هو بيان أنّ ذلك الأجر ثابت لكل من خرج ولكل من سيقع منهم ذلك في المستقبل فهذا أمرٌ سيتكرر، ولو قال «خرج» لربما فُهم أنّ ذلك الفضل ثابت لمن هاجر قبلُ فقط.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (النساء : ١٠٢).

قال ﴿ لَهُمُ ﴾ مما يدل على أن الإمام ينبغي أن يعتني في صلاته أكثر ما يعتني بحال المأمومين لأنه لا يصلي لنفسه بل يصلي لمن خلفه من المأمومين أيضاً. أفاده **د. عبد الرحمن المدهش** «تدبر ـ المجموعة (١)».

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (النساء : ١١٤).

قال في **(الدر المنثور)**: وأخرج مسلم والبيهقي عن أبي شريح قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**».

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**».

وأخرج البخاري في الأدب والبيهقي عن سهل بن سعد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان، الفم والفرج**».

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله مرني بأمر أعتصم به في الإسلام؟ قال ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**». قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ قال ﷺ: «**هذا**»، وأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه.

وأخرج الترمذي والبيهقي عن عقبة بن عامر قال: قلت يا نبي الله ما النجاة؟ قال ﷺ: «**املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**».

وأخرج البيهقي عن ابن مسعود. أنه أتى على الصفا فقال: يا لسان قل خيراً تغنم أو اصمت تسلم من قبل أن تندم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذا شيء تقوله أو سمعته؟ قال: لا، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**».

وأخرج أحمد في الزهد والبيهقي عن سعيد بن جبير قال: رأيت ابن عباس آخذاً بثمرة لسانه وهو يقول: يا لساناه قل خيراً تغنم أو اسكت عن شر تسلم قبل أن تندم. فقال له رجل: مالي أراك آخذاً بثمرة لسانك تقول كذا وكذا؟! قال: إنه بلغني أن العبد يوم القيامة ليس هو عن شيء أحنق منه على لسانه.

وأخرج البيهقي عن أنس أن رسول الله ﷺ لقى أبا ذر فقال: «**ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟**». قال: بلى يا رسول الله. قال: «**عليك بحسن الخلق وطول الصمت، والذي نفس محمد بيده ما عمل الخلائق بمثلهما**».

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رفعه إلى النبي ﷺ قال: «**إذا أصبح ابن آدم فإنّ كل شيء من الجسد يكفر اللسان يقول: ننشدك الله فينا فإنك ان استقمت استقمنا وإن اعوججت أعوججنا**».

وأخرج أحمد في الزهد والنسائي والبيهقي عن زيد بن أسلم عن أبيه. أن عمر بن الخطاب اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه قال: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال: إنّ هذا الذي أوردني الموارد، إنّ رسول الله ﷺ قال: «**ليس شيء من الجسد إلا يشكو ذرب اللسان على حدته**».

وأخرج البيهقي عن معاذ بن جبل قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، فأصاب الناس ريح فتقطعوا، فضربت ببصري فإذا أنا أقرب الناس من رسول الله ﷺ، فقلت: لأغتنمن خلوته اليوم، فدنوت منه فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يقربني ـ أو قال ـ يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؟ قال ﷺ: «**لقد سألت عن عظيم، وأنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير**». قلت: أجل يا رسول الله. قال ﷺ: «**الصوم جنة، والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل يبتغي به وجه الله**»، ثم قرأ الآية ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ ثم قال: «**إنْ شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه**». قلت: أجل يا رسول الله. قال ﷺ: «**أما رأس الأمر فالإسلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد، وإن شئت أنبأتك بأملك الناس من ذلك كله**». قلت: ما هو يا رسول الله؟ فأشار بأصبعه إلى فيه. فقلت: وإنا لَنُؤَاخَذَ بكل ما نتكلم به؟! قال ﷺ: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يُكِبُّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم، وهل تتكلم إلا ما عليك أو لك؟!**».

وأخرج البيهقي عن عطاء بن أبي رباح قال: إنّ من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها، أتذكرون أن عليكم حافظين ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾. ﴿ عَنِ

ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته.

وأخرج ابن سعد عن أنس بن مالك قال: لا يتقي الله عبد حتى يخزن من لسانه.

وأخرج أحمد عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة حتى يأمن جاره بوائقه**».

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي الدرداء قال: ما في المؤمن بضعة أحب إلى الله من لسانه، به يدخله الجنة. وما في الكافر بضعة أبغض إلى الله من لسانه، به يدخله النار.

وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لا تنطق فيما لا يعنيك، واخزن لسانك كما تخزن درهمك.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن سلمان الفارسي قال: أكثر الناس ذنوباً أكثرهم كلاماً في معصية الله.

وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال: أكثر الناس خطايا أكثرهم خوضاً في الباطل.

وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال: والذي لا إله غيره ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ **وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ** ﴾ (النساء: ١٢٨)، فقال ﴿ **بَعۡلِهَا** ﴾ ولم يقل «زوجها» ليدل على أنّ نشوز الرجل وإعراضه عن زوجه غالباً ما يكون بسبب عدم حسن تبعلها له.

قال في (**لسان العرب**): تبعلت المرأة إذا أطاعت بعلها وتبعلت له أي تزينت، وامرأة حسنة التبعل إذا كانت مطاوعةً لزوجها محبةً له. وليدل كذلك على أنّ زوجها

هو سيدُها، فلا ينبغي أن تبغضه إنْ رأت منه بعض التعالي بل تصبر وتحتسب، فإن وصل الأمر إلى ما لا يطاق جاز له أن تخالعه وليس لمجرد تعاليه المعتاد عليها تخالعه؛ قال في **(لسان العرب)**: البعل: الرئيس المالك، وكذا يجوز له مخالعته إن أضرّ بها في حقوق المعاشرة الزوجية؛ قال في **(لسان العرب)**: البعال: ملاعبة المرء أهله، والبعال: النكاح «أي الجماع» ومن الحديث في أيام التشريق: أيام أكل وشرب وبعال، والمباعلة: المباشرة.

قلتُ: فأشارت الآية إلى كل هذه المعاني بهذا اللفظ الواحد!!

۞ **قَالَ تَعَالَى**: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء : ١٧٤).

قال في **(الظلال)**: نور تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة؛ ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محدداً مرسوماً ... في داخل النفس وفي واقع الحياة سواء.. حيث تجد النفس من هذا النور ما ينير جوانبها أولاً؛ فترى كل شيء فيها ومن حولها واضحاً.. حيث يتلاشى الغبش وينكشف؛ وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبديهية، وحيث يعجب الإنسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحق وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة؟!

وحين يعيش الإنسان بروحه في الجو القرآني فترة؛ ويتلقى منه تصوراته وقيمه وموازينه، يحس يسراً وبساطة ووضوحاً في رؤية الأمور. ويشعر أن مقررات كثيرة كانت قلقة في حسه قد راحت تأخذ أماكنها في هدوء؛ وتلتزم حقائقها في يسر؛ وتنفي ما علق بها من الزيادات المتطفلة لتبدو في براءتها الفطرية، ونصاعتها كما خلقها الله.. ومهما قلت في هذا التعبير: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ .. فإنني لن أصور بألفاظي حقيقته، لمن لم يذق طعمه ولم يجده في نفسه! ولا بد من المكابدة في مثل هذه المعاني! ولا بد من التذوق الذاتي! ولا بد من التجربة المباشرة!

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ (النِّسَاءِ : ١٧٥).

قال في (**الظلال**): والاعتصام بالله ثمرة ملازمة للإيمان به.. متى صح الإيمان، ومتى عرفت النفس حقيقة الله وعرفت حقيقة عبودية الكل له. فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده. وهو صاحب السلطان والقدرة وحده.. وهؤلاء يدخلهم الله في رحمة منه وفضل. رحمة في هذه الدنيا ـ قبل الحياة الأخرى، وفضل في هذه العاجلة ـ قبل الفضل في الآجلة ـ فالإيمان هو الواحة الندية التي تجد فيها الروح الظلال من هاجرة الضلال في تيه الحيرة والقلق والشرود. كما أنه هو القاعدة التي تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه؛ في كرامة وحرية ونظافة واستقامة ـ كما أسلفنا ـ حيث يعرف كل إنسان مكانه على حقيقته. عبد لله وسيد مع كل من عداه.. وليس هذا في أي نظام آخر غير نظام الإيمان ـ كما جاء به الإسلام ـ هذا النظام الذي يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. حين يوحد الألوهية؛ ويسوي بين الخلائق جميعاً في العبودية. وحيث يجعل السلطان لله وحده والحاكمية لله وحده؛ فلا يخضع بشر لتشريع بشر مثله، فيكون عبداً له مهما تحرر! فالذين آمنوا في رحمة من الله وفضل، في حياتهم الحاضرة، وفي حياتهم الآجلة سواء..

۞۞۞

سُورَةُ المَائِدَةِ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ (المَائدة: ١٤).

قال **ابن عاشور**: وقد ترك علماء اللغة بيان التفرقة بين العداوة والبغضاء، وتابعهم المفسرون على ذلك؛ فلا تجد من تصدى للفرق بينهما سوى الشيخ ابن عرفة التونسي، فقال في تفسيره: العداوة أعم من البغضاء لأن العداوة سبب في البغضاء؛ فقد يتعادى الأخ مع أخيه ولا يتمادى على ذلك حتى تنشأ عنه المباغضة، وقد يتمادى على ذلك. أ.هـ.

ووقع لأبي البقاء الكعبري في كتاب الكليات أنه قال: العداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض، وقد يبغض من ليس بعدو. وهو يخالف كلام ابن عرفة. وفي تعليلهما مصادمة واضحة، فإن كانت العداوة أعم من البغضاء زادت فائدة العطف لأنه يصير في معنى الاحتراس، وإن كانت العداوة أخص من البغضاء لم يكن العطف إلا للتأكيد، لأن التأكيد يحصل بذكر لفظ يدل على بعض مطلق من معنى الموكد، فيتقرر المعنى ولو بوجه أعم أو أخص وذلك يحصل به معنى التأكيد.

وعندي: أن كلا الوجهين غير ظاهر، والذي أرى أن بين معنيي العداوة والبغضاء التضاد والتباين؛ فالعداوة كراهية يصدُر عن صاحبها معاملة بجفاء، أو قطيعة، أو إضرار، لأن العداوة مشتقة من العدو وهو التجاوز والتباعد، فإن مشتقات مادة ع د و كلها تدور حول التفرق وعدم الوئام. وأما البغضاء فهي بشدة البغض، وليس في مادة ب غ ض إلا معنى جنس الكراهية فلا سبيل إلى معرفة اشتقاق لفظها من مادتها. نعم يمكن أن يرجع فيه إلى طريقة القلب، وهو من علامات الاشتقاق فإن مقلوب بغض

يكون غضب لا غير، فالبغضاء شدة الكراهية غير مصحوبة بعداوة، فهي مضمرة في النفس. فإذا كانت كذلك لم يصلح اجتماع معنيي العداوة والبغضاء في موصوف واحد في وقت واحد فيتعين أن يكون إلقاؤهما بينهم على معنى التوزيع، أي أغرينا العداوة بين بعض منهم والبغضاء بين بعض آخر. فوقع في هذا النظام إيجاز بديع، لأنه يرجع إلى الاعتماد على علم المخاطبين بعدم استقامة اجتماع المعنيين في موصوف واحد.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٦).

قال في (**الظلال**): لقد رضي الله الإسلام ديناً.. وهو يهدي من يتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما رضيه الله له.. يهديه... ﴿ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ ...

وما أدق هذا التعبير وأصدقه؛ إنه ﴿ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ هو ما يسكبه هذا الدين في الحياة كلها.. سلام الفرد. وسلام الجماعة. وسلام العالم... سلام الضمير، وسلام العقل، وسلام الجوارح... سلام البيت والأسرة، وسلام المجتمع والأمة، وسلام البشر والإنسانية... السلام مع الحياة. والسلام مع الكون. والسلام مع الله رب الكون والحياة... السلام الذي لا تجده البشرية ـ ولم تجده يوماً ـ إلا في هذا الدين؛ وإلا في منهجه ونظامه وشريعته، ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته.

حقاً إن الله يهدي بهذا الدين الذي رضيه، من يتبع رضوان الله، ﴿ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ ... سبل السلام كلها في هذه الجوانب جميعها.. ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق سبل الحرب في الجاهليات القديمة أو الحديثة... ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق حرب القلق الناشئ من عقائد الجاهلية في أعماق الضمير. وحرب القلق الناشئ من شرائع الجاهلية وأنظمتها وتخبطها في أوضاع الحياة.

وقد كان المخاطبون بهذه الكلمات أول مرة يعرفون من تجربتهم في الجاهلية معنى هذا السلام، إذ كانوا يذوقونه مذاقاً شخصياً؛ ويلتذون هذا المذاق المريح.

وما أحوجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة؛ والجاهلية من حولنا ومن بيننا نذيق البشرية الويلات.. من كل ألوان الحرب في الضمائر والمجتمعات قروناً بعد قرون!

ما أحوجنا نحن الذين عشنا في هذا السلام فترة من تاريخنا؛ ثم خرجنا من السلام إلى الحرب التي تحطم أرواحنا وقلوبنا، وتحطم أخلاقنا وسلوكنا، وتحطم مجتمعاتنا وشعوبنا.. بينما نملك الدخول في السلم التي منحها الله لنا؛ حين نتبع رضوانه؛ ونرضى لأنفسنا ما رضيه الله لنا!

إننا نعاني من ويلات الجاهلية؛ والإسلام منا قريب. ونعاني من حرب الجاهلية وسلام الإسلام في متناول أيدينا لو نشاء.. فأية صفقة خاسرة هذه التي نستبدل فيها الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ ونشتري فيها الضلالة بالهدى؟ ونؤثر فيها الحرب على السلام؟ إننا نملك إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المنشوبة في شتى الصور والألوان. ولكننا لا نملك إنقاذ البشرية، قبل أن ننقذ نحن أنفسنا، وقبل أن نفيء إلى ظلال السلام، حين نفيء إلى رضوان الله ونتبع ما ارتضاه. فنكون من هؤلاء الذين يقول الله عنهم: إنه يهديهم سبل السلام. ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾. والجاهلية كلها ظلمات.. ظلمة الشبهات والخرافات والأساطير والتصورات. وظلمة الشهوات والنزعات والاندفاعات في التيه. وظلمة الحيرة والقلق والانقطاع عن الهدى والوحشة من الجناب الآمن المأنوس. وظلمة اضطراب القيم وتخلخل الأحكام والقيم والموازين. والنور هو النور.. هو ذلك النور الذي تحدثنا عنه آنفاً في الضمير وفي العقل وفي الكيان وفي الحياة وفي الأمور.. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. مستقيم مع فطرة النفس ونواميسها التي تحكمها. مستقيم مع فطرة الكون ونواميسه التي تصرفه. مستقيم إلى الله لا يلتوي ولا تلتبس فيه الحقائق والاتجاهات والغايات.. إن الله الذي خلق الإنسان وفطرته؛ وخلق الكون ونواميسه؛ هو الذي وضع للإنسان هذا المنهج؛ وهو الذي رضي للمؤمنين هذا الدين. فطبيعي وبديهي أن يهديهم هذا المنهج إلى

الصراط المستقيم. حيث لا يهديهم منهج غيره من صنع البشر العاجزين الجهال الفانين! وصدق الله العظيم. الغني عن العالمين. الذي لا يناله من هداهم أو ضلالهم شيء ولكنه بهم رحيم!

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة : ٢٧).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال: لأن استيقن أنّ الله تقبل مني صلاة واحدة أحب إليّ من الدنيا وما فيها، لأنّ الله يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن علي بن أبي طالب قال: لا يقلّ عمل مع تقوى، وكيف يقل ما يتقبل؟...

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز. أنّه كتب إلى رجل: أوصيك بتقوى الله الذي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن يزيد العيص: سألت موسى بن أعين عن قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قال: تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام، فسماهم الله متقين.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن فضالة بن عبيد قال: لأن أكون أعلم أن الله يقبل مني مثقال حبة من خردل، أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، فإن الله يقول ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. وأخرج ابن سعد وابن أبي الدنيا عن قتادة قال: قال عامر بن عبد قيس آية في القرآن أحب إليّ من الدنيا جميعاً أن أُعطَاه أن يجعلني الله من المتقين، فإنه قال: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا، عن همام بن يحيى قال: بكى عامر بن عبد الله عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ قال: آية في كتاب الله. فقيل له: أَيّةُ آية؟! قال: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله لا يقبل عمل عبد حتى يرضى عنه**». وأخرج ابن أبي شيبة عن ثابت قال: كان مطرف يقول: اللهم تقبَّل مني صيام يوم، اللهم اكتب لي حسنة، ثم يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك في قوله ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قال: الذين يتقون الشرك.

وأخرج ابن عساكر عن هشام بن يحيى عن أبيه قال: دخل سائل إلى ابن عمر فقال لابنه: أعطه ديناراً فأعطاه، فلما انصرف قال ابنه: تقبل الله منك يا أبتاه. فقال: لو علمت أن الله تقبل مني سجدة واحدة أو صدقة درهم لم يكن غائب أحب إلي من الموت، تدري ممن يتقبل الله؟ ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ (المائدة: ٢٨)، فقال: ﴿ بَسَطتَ ﴾ بالفعل في الشرط بينما قال في الجزاء: ﴿ مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ ﴾ بالاسم، ولم يسوِّ بينهما، فلم يقل: «لئن بسطت لا أبسط»؛ قال د. **فاضل**: فائدة قوله ﴿ مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ ﴾ بيان أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع؛ أي: أنا لستُ من أصحاب هذا الوصف وأنّ هذا الخلق ليس من شيمي ووصفي، ونحوه قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ (الشعراء: ١٣٦)، ففرق بينهما ولم يقل: «أوعظت أم لم تعظْ»، وذلك لأنّ المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته. فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أَمْ لَمْ تعظ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ (البقرة: ١٤)، ففرق سبحانه بين قولهم للمؤمنين، وقولهم لأصحابهم، فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث ﴿ ءَامَنَّا ﴾، وخاطبوا جماعتهم بالجملة الاسمية المؤكدة الدالة على الثبوت والدوام ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ ، ولم يقولوا: «إنا مؤمنون» كما قالوا: ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ ، وذلك لأنّ أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم

باعث ومحرك، وهكذا كل قولٍ لم يصدر عن أريحية وصدق ورغبة واعتقاد، وأمّا في مخاطبة إخوانهم فهم في ما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يُزالوا عنه على صدقِ رغبةٍ ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، أفاده **الزمخشري**.

قال د. **فاضل**: وجاء في «تسهيل السبيل» للبكري: أنهم خاطبوا بالجملة الفعلية أولاً في ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ وبضدها في ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ لإظهار الثبات على معتقدهم الفاسد وأنّ ما خاطبوا به المؤمنين أمر متجدد بسبب لقائهم تقيةً فقط.

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ (المائدة : ٩٧)، ففصل بين ﴿ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ وغيره، ولم يقل: «البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد قياماً للناس»، وذلك لأنّ قيام أمر الناس بتعظيمهم البيت الحرام أكثر من قيام أمرهم بتعظيمهم للهدي والقلائد والأشهر الحرم، كما أنّ حرمة البيت الحرام أعظم، ففصل بين البيت الحرام وبينها لذلك.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ (المائدة : ١٠٠).

قال في **(الظلال)**: لقد كان الله الذي أخرج هذه الأمة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، يَعُدُّها لأمر عظيم هائل.. كان يعدها لحمل أمانة منهجه في الأرض، لتستقيم عليه كما لم تستقم أمة قط، ولتقيمه في حياة الناس كما لم يقم كذلك قط. ولم يكن بد أن تراض هذه الأمة رياضة طويلة. رياضة تخلعها أولاً من جاهليتها؛ وترفعها من سفح الجاهلية الهابطة وتمضي بها صعداً في المرتقى الصاعد إلى قمة الإسلام الشامخة ثم تعكف بعد ذلك على تنقية تصوراتها وعاداتها ومشاعرها من رواسب الجاهلية؛ وتربية إرادتها على حمل الحق وتبعاته. ثم تنتهي بها إلى تقييم الحياة جملة وتفصيلاً وفق قيم الإسلام في ميزان الله.. حتى تكون ربانية حقاً.. وحتى ترتفع بشريتها إلى أحسن تقويم... وعندئذ

لا يستوي في ميزانها الخبيث والطيب؛ ولو أعجبها كثرة الخبيث! والكثرة تأخذ العين وتهول الحس. ولكن تمييز الخبيث من الطيب، وارتفاع النفس حتى تزنه بميزان الله، يجعل كفة الخبيث تشيل مع كثرته، وكفة الطيب ترجح على قلته.. وعندئذ تصبح هذه الأمة أمينة ومؤتمنة على القوامة.. القوامة على البشرية... تزن لها بميزان الله؛ وتقدر لها بقدر الله؛ وتختار لها الطيب، ولا تأخذ عينها ولا نفسها كثرة الخبيث!

وموقف آخر ينفع فيه هذا الميزان.. ذلك حين ينتفش الباطل؛ فتراه النفوس رابياً؛ وتؤخذ الأعين بمظهره وكثرته وقوته.. ثم ينظر المؤمن الذي يزن بميزان الله إلى هذا الباطل المنتفش، فلا تضطرب يده، ولا يزوغ بصره، ولا يختل ميزانه؛ ويختار عليه الحق الذي لا رغوة له ولا زبد؛ ولا عدة حوله ولا عدد.. إنما هو الحق.. الحق المجرد إلا من صفته وذاته؛ وإلا من ثقله في ميزان الله وثباته؛ وإلا من جماله الذاتي وسلطانه!

لقد ربى الله هذه الأمة بمنهج القرآن، وقوامة رسول الله ﷺ حتى علم ـ سبحانه ـ أنها وصلت إلى المستوى الذي تؤتمن فيه على دين الله.. لا في نفوسها وضمائرها فحسب، ولكن في حياتها ومعاشها في هذه الأرض، بكل ما يضطرب في الحياة من رغبات ومطامع، وأهواء ومشارب، وتصادم بين المصالح، وغلاب بين الأفراد والجماعات. ثم بعد ذلك في قوامتها على البشرية بكل ما لها من تبعات جسام في خضم الحياة العام. لقد رباها بشتى التوجيهات، وشتى المؤثرات، وشتى الابتلاءات، وشتى التشريعات؛ وجعلها كلها حزمة واحدة تؤدي دوراً في النهاية واحداً، هو إعداد هذه الأمة بعقيدتها وتصوراتها، وبمشاعرها واستجاباتها، وبسلوكها وأخلاقها، وبشريعتها ونظامها، لأن تقوم على دين الله في الأرض، ولأن تتولى القوامة على البشر.. وحقق الله ما يريده بهذه الأمة.. والله غالب على أمره... وقامت في واقع الحياة الأرضية تلك الصورة الوضيئة من دين الله.. حلماً يتمثل في واقع.. وتملك البشرية أن تترسمه في كل وقت حين تجاهد لبلوغه فيعينها الله.

سُورَةُ الأَنْعَامِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ **وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ** ﴾ (الأنعام: ١١٣).

قال **ابن عاشور**: وعطف ﴿ **وَلِيَرْضَوْهُ** ﴾ على ﴿ **وَلِتَصْغَىٰٓ** ﴾ وإن كان الإصغاء يقتضي الرضى ويسببه فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء وأن لا تكرر لام التعليل فخولف مقتضى الظاهر للدلالة على استقلاله بالتعليل فعطف بالواو وأعيدت اللام لتأكيد الاستقلال فيدل على أن صغي أفئدتهم إليه ما كان يكفي لعملهم به إلا لأنهم رضوه.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ** ﴾ (الأنعام: ١٧).

فائدة قرآنية: قال **عامر بن عبد قيس**: آيات في كتاب الله إذا ذكرتهن لا أبالي على ما أصبحت أو أمسيت: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ** ﴾ (الأنعام: ١٧)، ﴿ **مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ** ﴾ (فاطر: ٢)، ﴿ **سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** ﴾ (الطلاق: ٧)، ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ (هود: ٦).

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ **قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٩).

قال في **(الظلال)**: ﴿ **قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾. إنه لا بد أن تقف العصبة المسلمة في الأرض، من الجاهلية التي تغمر الأرض، هذا الموقف لا بد أن تقذف في وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية، قاطعة فاصلة، مزلزلة رهيبة... ثم تتجه إلى الله تعلم أنه على كل شيء قدير، وأنه هو القاهر فوق عباده. وأن هؤلاء العباد ـ بما فيهم الطواغيت المتجبرون أضعف من الذباب

وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، أو إنهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن الله، وليسوا بنافعين أحداً إلا بإذن الله، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ولا بد أن تتيقن العصبة المسلمة كذلك أنها لن تنصر ولن يتحقق لها وعد الله بالتمكين في الأرض، قبل أن تفاصل الجاهلية على الحق عند مفترق الطريق. وقبل أن تعلن كلمة الحق في وجه الطاغوت وقبل أن تشهد على الجاهلية هذا الإشهاد، وتنذرها هذه النذارة، وتعلنها هذا الإعلان، وتفاصلها هذه المفاصلة وتتبرأ منها هذه البراءة.

إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي، إنما جاء منهجاً مطلقاً خارجاً عن قيود الزمان والمكان منهجاً تتخذه الجماعة المسلمة حينما كانت في مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن. وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماماً، وقد استدار الزمان كهيئة يوم جاء هذا القرآن لينشئ الإسلام في الأرض إنشاءً.

فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين. والشعور الواضح بحقيقة قدرة الله وقهره. والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله. لتكن هذه عدة الجماعة المسلمة... والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (الأنعام : ٣٢).

قال **الفيروز أبادي**: قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ قدم اللعب على اللهو في موضعين هنا، وكذلك في القتال والحديد وقدم اللهو على اللعب في الأعراف والعنكبوت وإنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب. يبينه ما ذكر في الحديد ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان ﴿وَلَهْوٌ﴾ كلهو الشبان ﴿وَزِينَةٌ﴾ كزينة النسوان ﴿وَتَفَاخُرٌۢ﴾ كتفاخر الإخوان ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ كتكاثر السلطان. وقريب من هذا في تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾، وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة. فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأ بما به الإنسان

انتهى من الحالتين، وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء، قليل البقاء ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ أي الحياة التي لا بداية لها ولا نهاية لها فبدأ بذكر اللهو، لأنه في زمان الشباب، وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾** (الأنعام : ٤٢)

قال د. **فاضل**: كثير من الكلمات تستعمل في مواضع مختلفة فمرة تأتي كما هي ومرة تأتي مبدلة وهذا حسب السياق فما كان على وزن «يَتَفَعَّل» قد يؤتى به في اللغة للدلالة على التدرج أي الحدوث شيئاً فشيئاً وذلك نحو تَخَطَّى وتمشَّى وتبصَّر وتجسَّس فهناك فرق بين «مشى» و«تمشَّى» و«خطا» و«تَخَطَّى» و«جَسَّ» و«تَجَسَّس» ففي تَمَشّى وتَخَطَّى من التدرج ما ليس في مشا وخطا. وقد يؤتى بهذا الوزن للدلالة على التكلف وبذل الجهد نحو تَصَبَّرَ وتَحَلَّمَ أي كلف نفسه وحملها الصبر والحِلم وفي كلا المعنيين دلالة على الطول في الوقت والتَّمَهُّل في الحدث، وكذلك الأمر في القرآن الكريم فإذا اجتمعت صيغتان من هذا البناء في اللغة «يتفعل» و«يفعل» استعمل «يتفعل» لما هو أطول زمناً من «يفعل» وذلك لأن الفك أطول زمناً في النطق كما ذكرنا فهو ملائم للطول في الحدث.

وما كان على وزن «يَفَّعّل» يأتي به القرآن فيما يحتاج إلى المبالغة في الحدث وذلك لأن التضعيف كثيراً ما يؤتى به للمبالغة نحو فَعَلَ وفَعَّلَ كـ «قَطَعَ» وقَطّعَ وكَسَرَ وكَسّرَ ففي قَطَّعَ وكَسّرَ من المبالغة ما ليس في قَطَعَ وكَسَرَ، ونحو فُعَال وفُعَّال مثل: كُبَار وكُبَّار فـ «كُبّار» أبلغ من «كُبَار» في الاتصاف بالحدث كما هو مقرر في كتب اللغة فتكرار الحرف إشارة إلى تكرار الحدث جاء في «الخصائص»: ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل فقالوا: كَسَّرّ وقَطَّعَ وفَتَّحَ وغَلَّقَ. اهـ.

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ (الأنعام : ٤٢) وقوله: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ** ﴾ (الأعراف : ٩٤).

فقال في آية الأنعام: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ وقال في الأعراف: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ بالإبدال والإدغام وذلك أنه قال في آية الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وقال في الأعراف: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ والأمم أكثر من القرية وهذا يعني تطاول الإرسال على مدار التاريخ فلما طال الحدث واستمر جاء بما هو أطول بناء فقال: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ ولما كان الإرسال في الأعراف إلى قرية قال: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ فجاء بما هو أقصر في البناء هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى أنه استعمل في آية الأنعام «أرسل إلى» فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ واستعمل في الأعراف «أرسل في» فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ والإرسال إلى شخصٍ ما يقتضي التبليغ ولا يقتضي المكث فإنك قد ترسل إلى شخص رسالة فيبلغها ويعود. وأما الإرسال في القرية أو في المدينة فإنه يقتضي التبليغ والمكث فإن ﴿فِى﴾ تفيد الظرفية وهذا يعني بقاء النبي بينهم يبلغهم ويذكرهم بالله ويريهم آياته المؤيدة ولا شك أن هذا يدعوهم إلى زيادة التضرع والمبالغة فيه فجاء بالصيغ الدالة على المبالغة في الحدث والإكثار منه فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ فوضع كل مفردة في مكانها اللائق بها.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٥٠).

قال **ابن عاشور**: وشبهت حالة من لا يفقه الأدلة ولا يفكك بين المعاني المتشابهة بحالة الأعمى الذي لا يعرف أين يقصد ولا أين يضع قدمه. وشبهت حالة من يميز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة القوي البصر حيث لا تختلط عليه الأشباح. وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلتهم وعقم أقيستهم، ولحال المؤمنين الذين اهتدوا ووضعوا الأشياء مواضعها، أو تمثيل لحال المشركين التي هم متلبسون بها والحال المطلوبة منهم التي نفروا منها ليعلموا أي الحالين أولى بالتخلق.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: ٥٦).

قال **ابن عاشور**: وقد أتى بالخبر بالجار والمجرور فقيل: ﴿ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ولم يقل: «وما أنا مهتد»، لأن المقصود نفي الجملة التي خبرها ﴿ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ فإن التعريف في ﴿ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ تعريف الجنس، فإخبار المتكلم عن نفسه بأنّه من المهتدين يفيد أنه واحد من الفئة التي تعرف عند الناس بفئة المهتدين، فيفيد أنه مهتد إفادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال. فهو من قبيل الكناية التي هي إثبات الشيء بإثبات ملزومه. وهي أبلغ من التصريح. قال في الكشاف في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾: قولك فلان من العلماء أبلغ من قولك فلان عالم، لأنك تشهد له بكونه معدوداً في زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم. وقال عند قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ في سورة الشعراء: فإن قلت لو قيل: «أوعظت أو لم تعظ» كان أليق، والمعنى واحد؟ **قلتُ**: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته. فهو أبلغ في قلة الاعتداد بوعظه من قوله: أم لم تعظ. وقال الخفاجي: أن أصل هذا لابن جني.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ (الأنعام: ٦٨).

قال **ابن عاشور**: والخوض حقيقته الدخول في الماء مشياً بالرجلين دون سباحة ثم استعير للتصرف الذي فيه كلفة أو عنت، كما استعير التعسف وهو المشي في الرمل لذلك.

واستعير الخوض أيضاً للكلام الذي فيه تكلف الكذب والباطل لأنه يتكلف له قائله، قال الراغب: وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه، فمعنى ﴿يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ يتكلمون فيها بالباطل والاستهزاء.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ (الأنعام: ٧٠).

قال **ابن عاشور**: والدين في قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ ﴾ يجوز أن يكون بمعنى الملة، أي ما يتدينون به وينتحلونه ويتقربون به إلى الله. أي اتخذوه لعباً ولهواً، أي جعلوا

الدين مجموع أمور هي من اللعب واللهو، أي العبث واللهو عند الأصنام في مواسمها، والمكاء والتصدية عند الكعبة على أحد التفسيرين في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾. وإنما لم يقل «اتخذوا اللهو واللعب ديناً» لمكان قوله ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ فإنهم لم يجعلوا كل ما هو من اللهو واللعب ديناً لهم بل عمدوا إلى أن ينتحلوا ديناً فجمعوا له أشياء من اللعب واللهو وسموها ديناً. ويجوز أن يكون المراد من الدين العادة. أي الذين دأبهم اللعب واللهو المعرضون عن الحق، وذلك في معاملتهم الرسول ﷺ.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (الأنعام: ٩٢).

قال في (**الظلال**): ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾. إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل، وأن ينزل الله عليهم الكتب. وهذا الكتاب الجديد، الذي ينكرون تنزيله، هو كتاب مبارك.. وصدق الله .. فإنه والله لمبارك.. مبارك بكل معاني البركة.. إنه مبارك في أصله. باركه الله وهو ينزله من عنده. ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل.. قلب محمد الطاهر الكريم الكبير.. ومبارك في حجمه ومحتواه. فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر، ولكن يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام، في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه! وإن الذي مارس فن القول عن نفسه وعن غيره من بني البشر، وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول ولا يعالجوه من قضايا التعبير، يدرك أن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية. وأن هناك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز ـ ولا في أضعاف أضعاف ـ عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات! وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرر من الحقائق ما يجعل

الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً منفرداً لا نظير له في كلام البشر.. وإنه لمبارك في آثره.. وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطاباً مباشراً عجيباً لطيف المدخل، ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن، فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل. ذلك أن به من الله سلطاناً. وليس في قول القائلين من سلطان! ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب. وما نحن ببالغين لو مضينا شيئاً أكثر من شهادة الله له بأنه ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ ففيها فصل الخطاب!

وقال **الشنقيطي** في مقدمة العذب المنير: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ (الأنعام: ٩٢). هذا الكتاب مبارك أي كثير البركات والخيرات فمن تعلمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة. وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا تصديقاً لهذه الآية.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٥).

قال **ابن عاشور**: وافتتاح الجملة بـ ﴿ إِنَّ ﴾ مع أنه لا ينكر أحد أن الله هو فاعل الأفعال المذكورة هنا، ولكن النظر والاعتبار في دلالة الزرع على قدرة الخالق على الإحياء بعد الموت كما قدر على إماتة الحي، لما كان نظراً دقيقاً قد انصرف عنه المشركون فاجترأوا على إنكار البعث، كان حالهم كحال من أنكر أو شك في أن الله فالق الحب والنوى، فأكد الخبر بحرف ﴿ إِنَّ ﴾. وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات هذا الوصف ودوامه.

وقد جيء بجملة ﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ ﴾ فعلية للدلالة على أن هذا الفعل يتجدد ويتكرر في كل آن، فهو مراد معلوم وليس على سبيل المصادفة والاتفاق.

وجيء في قوله: ﴿ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾ اسماً للدلالة على الدوام والثبات، فحصل بمجموع ذلك أن كلا الفعلين متجدد وثابت، أي كثير وذاتي، وذلك لأن أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه فكان في الأسلوب شبه الاحتباك. والإشارة بـ ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ لزيادة التمييز وللتعريض بغباوة المخاطبين المشركين لغفلتهم عن هذه

الدلالة على أنه المنفرد بالإلهية، أي ذلكم الفاعل الأفعال العظيمة من الفلق وإخراج الحي من الميت والميت من الحي هو الذي يعرفه الخلق باسمه العظيم على أنه الإله الواحد، المقصور عليه وصف الإلهية فلا تعدلوا به في الإلهية غيره، ولذلك عقب بالتفريع بالفاء قوله: ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ .

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ (الأنعام :٩٦).

قال **ابن عاشور**: قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾: بمادة الجعل لأن الظلمة عدم فتعلق القدرة فيها هو تعلقها بإزالة ما يمنع تلك الظلمة من الأنوار العارضة للأفق. والمعنى أن الله فلق الإصباح بقدرته نعمةً منه على الموجودات ولم يجعل النور مستمراً في الأفق فجعله عارضاً مجزءاً أوقاتاً لتعود الظلمة إلى الأفق رحمةً منه بالموجودات ليسكنوا بعد النصب والعمل فيستجموا راحتهم. وعطف ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ على ﴿ ٱلَّيْلَ ﴾ بالنصب رعياً لمحل الليل لأنه في محل المفعول لـ «جاعل» بناء على الإضافة اللفظية. والإخبار عنهما بالمصدر إسناد مجازي لأنه في معنى اسم الفاعل أي حاسبين. والحاسب هم الناس بسبب الشمس والقمر.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ (الأنعام : ٩٩)، وقال: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ (ق : ١٠)، فقال: ﴿ ٱلنَّخْلِ ﴾ بينما قال: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (النحل : ١١)، وقال: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ (النحل : ٦٧)، فقال: ﴿ ٱلنَّخِيلِ ﴾؛ قال **د. فاضل**: قال **السهيلي** في (الروض الأنف): إذا قلت عبيد ونخيل فهو اسم يتناول الصغير والكبير من ذلك الجنس قال تعالى: ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ وقال: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ وحين ذكر المخاطبين منهم قال: «العِباد» ولذلك قال حين ذكر المثمر من النخيل: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ و﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ فتأمل الفرق بين الجمعين في حكم البلاغة واختيار الكلام. اهـ . والذي أراه العكس فإن النخل أكثر

من النخيل وذلك أن النخل اسم جنس جمعي والنخيل جمع واسم الجنس أشمل وأعم من الجمع كما قرره علماء اللغة وكما هو في الاستعمال القرآني. ذلك أن اسم الجنس يشمل المفرد والمثنى والجمع ويقع على القليل والكثير فيصح أن يقول من أكل تمرة واحدة: «لقد أكلت التمر» ولا يصح أن يقول: «أكلت تمرتين ولا تمرات ولا تُمور»، ويصح أن يقول من شاهد نخلة واحدة أو نخلتين: «لقد شاهدت النخل» ولا يقول: «شاهدت النخيل ولا النخلات».

وأما ما ذكره السهيلي في «الروض الأنف» ففيه نظر من حيث اللغة ومن حيث الاستعمال القرآني فإن الله كما قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦) قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (غافر: ٣١)، وكما قال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ فذكر الثمر فإنه قال: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ (الرعد: ٤) وهو مثمر أيضاً قال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (النحل: ٦٧). فالنخيل يقال للمثمر وغيره وكذلك النخل أما الفرق بينهما فما ذكرناه وهو أن النخل أعم وأشمل من النخيل لأنه اسم جنس جمعي. وهذا ما قرره علماء اللغة ويؤيده الاستعمال القرآني فإنّ القرآن أورد «النخيل» في ثمانية مواضع وهي فيها لا تفيد الشمول فقد قال: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ (البقرة: ٢٦٦) وقال: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإسراء: ٩١) وقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٩) وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ (يس: ٣٤) فأنت ترى في هذه الآيات الأربع أنه جعل النخيل في جنات فلا يشمل ما في غير الجنات فلا تدخل فيها النخلة الواحدة أو النخلتان وقليل النخل. وقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى

ﭐلۡأُكُلِ﴾ (الرعد: ٤) فقال: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾ فخرج ما لم يُسق بماء واحد وقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ (النحل: ٦٧) فخرج منه ما لم يُتَّخَذْ منه السَّكَرُ. أما النخل فهو عام يشمل الصغير والكبير المثمر وغيره سواء كان في جنات أم في غيرها وسواء كانت نخلة واحدة أم أكثر.

وقد قال تعالى في وصف الجنة: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ (الرحمن: ٦٨) ونخل الجنة كثير كثير. وقال: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ (الشعراء: ١٤٦ - ١٤٨) والنخل ها هنا يشمل ما في الجنات وغيرها وقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ (الرحمن: ١٠، ١١) وهو يشمل جميع النخل سواء كان في جنات أم لم يكن.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَا﴾ (الأنعام: ١٠٤). قال **ابن عاشور** في بيان وجه قوله: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾: للإيذان بأن ﴿فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ مقدم في التقدير على متعلقه المحذوف. والتقدير: فلنفسه أبصر، ولولا قصد الإيذان بهذا التقديم لقال: فمن أبصر أبصر لنفسه كما قال: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ والمقام يقتضي تقديم المعمول هنا ليفيد القصر، أي فلنفسه أبصر لا لفائدة غيره، لأنهم كانوا يحسبون أنهم يغيظون النبي ﷺ بإعراضهم عن دعوته إياهم إلى الهدى، وقرينة ذلك أن هذا الكلام مقول من النبي ﷺ. وقد أومأ إلى هذا صاحب الكشاف بخلاف آية ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ فإنّها حكت كلاماً خوطب به بنو إسرائيل من جانب الله تعالى وهم لا يتوهمون إن إحسانهم ينفع الله أو إساءتهم تضر الله.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

قال في (**الظلال**): إن هذه العقيدة تنشئ في القلب حياة بعد الموت؛ وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات. حياةً يعيد بها تذوق كل شيء، وتصور كل شيء، وتقدير كل شيء بحسٍ آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة. ونوراً يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديداً كما

لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي نوّره الإيمان. هذه التجربة لا تنقلها الألفاظ. يعرفها فقط من ذاقها.. والعبارة القرآنية هي أقوى عبارة تحمل حقيقة هذه التجربة. لأنها تصورها بألوان من جنسها ومن طبيعتها.

إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأولى الأبدية، التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب. فهي موت.. وانعزال عن القوة المؤثرة في الوجود كله.. فهي موت.. وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية.. فهي موت..

والإيمان اتصال، واستمداد، واستجابة.. فهو حياة..

إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراف والاطلاع.. فهو ظلمة.. وختم على الجوارح والمشاعر.. فهو ظلمة.. وتيه في التيه وضلال.. فهو ظلمة.

وإن الإيمان تفتح ورؤية، وإدراك واستقامة.. فهو نور بكل مقومات النور.

إن الكفر انكماش وتحجر.. فهو ضيق... وشرود عن الطريق الفطري الميسر.. فهو عسر.. وحرمان من الاطمئنان إلى الكنف الآمن.. فهو قلق.. وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود..

وما الكافر؟ إن هو إلا نبتة ضالة لا وشائج لها في تربة هذا الوجود ولا جذور.. إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود، فهو منقطع الصلة بالوجود. لا تربطه به إلا روابط هزيلة من وجوده الفردي المحدود. في أضيق الحدود. في الحدود التي تعيش فيها البهيمة. حدود الحس وما يدركه الحس من ظاهر هذا الوجود!

إن الصلة بالله، والصلة في الله، لتصل الفرد الفاني بالخلق الأول والأبد الخالد. ثم تصله بالكون الحادث والحياة الظاهرة.. ثم تصله بموكب الإيمان والأمة الواحدة الضاربة في جذور الزمان. الموصولة على مدار الزمان.. فهو في ثراء من الوشائج، وفي ثراء من الروابط. وفي ثراء من «الوجود» الزاخر الممتد اللاحب، الذي لا يقف عند عمره الفردي المحدود. ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فتتكشف له حقائق هذا

الدين، ومنهجه في العمل والحركة، تكشفاً عجيباً.. إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يجده الإنسان في قلبه حين يجد هذا النور.. مشهد التناسق الشامل العجيب في طبيعة هذا الدين وحقائقه. ومشهد التكامل الجميل الدقيق في منهجه للعمل وطريقته. إن هذا الدين لا يعود مجموعة معتقدات وعبادات وشرائع وتوجيهات.. إنما يبدو «تصميماً» واحداً متداخلاً متراكباً متناسقاً.. متعاشقاً يبدو حياً يتجاوب مع الفطرة وتتجاوب معه في ألفة عميقة وفي صداقة وثيقة، وفي حب ودود!

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور؛ فتتكشف له حقائق الوجود، وحقائق الحياة، وحقائق الناس، وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وتجري في عالم الناس.. تتكشف له في مشهد كذلك رائع باهر.. مشهد السُّنَّة الدقيقة التي تتوالى مقدماتها ونتائجها في نظام محكم ولكنه فطري ميسر.. ومشهد المشيئة النافذة من وراء السنة الجارية تدفع بالسنة لتعمل وهي من ورائها محيطة.. ومشهد الناس والأحداث وهم في نطاق النواميس وهي في هذا النطاق أيضاً.

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر وفي كل حدث.. يجد الوضوح في نفسه وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته. ويجد الوضوح فيما يجري حوله سواء من سنة الله النافذة، أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة! ويجد تفسير الأحداث والتاريخ في نفسه وعقله وفي الواقع من حوله، كأنه يقرأ من كتاب! ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه! ويجد الراحة في باله وحاله ومآله! ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها، وفي استقبال الأحداث واستدبارها! ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين! ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ؟ كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين. قبل أن يُنفخ الإيمان في أرواحهم فيحييها، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف.. كانت قلوبهم مواتا. وكانت أرواحهم ظلاماً.. ثم إذا

قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء، ويفيض منها النور فتمشي به في الناس تهدي الضال، وتلتقط الشارد، وتطمئن الخائف، وتحرر المستعبد، وتكشف معالم الطريق للبشر وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد. الإنسان المتحرر المستنير؛ الذي خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد! أفمن نفخ الله في روحه الحياة، وأفاض على قلبه النور.. كمن حاله أنه في الظلمات، لا مخرج له منها؟ إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان! فما الذي يمسك بمن في الظلمات والنور حوله يفيض؟ ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. هذا هو السر.. إن هناك تزييناً للكفر والظلمة والموت! والذي ينشئ هذا التزيين ابتداءً هو الله الذي أودع فطرة هذا الكائن الإنساني الاستعداد المزدوج لحب النور وحب الظلمة، ثمّ إنّ هناك شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ويزينون للكافرين ما يعملون.. والقلب الذي ينقطع عن الحياة والإيمان والنور، يسمع في الظلمة للوسوسة؛ ولا يرى ولا يحس ولا يميز الهدى من الضلال في ذلك الظلام العميق!.. وكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون..

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ (الأنعام: ١٣٣).

قال **ابن عاشور**: وعدل عن أن يوصف بوصف الرحيم إلى وصفه بأنه ﴿ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ لأن الغنى وصف ذاتي لله لا ينتفع الخلائق إلا بلوازم ذلك الوصف وهي جوده عليهم لأنه لا ينقص شيئاً من غناه بخلاف صفة الرحمة فإن تعلقها بنفع الخلائق فأوثرت بكلمة ﴿ ذُو ﴾ لأن ﴿ ذُو ﴾ كلمة يتوصل بها إلى الوصف بالأجناس ومعناها صاحب. وهي تشعر بقوة أو وفرة ما تضاف إليه فلا يقال ذو إنصاف إلا لمن كان قوي الإنصاف ولا يقال ذو مال لمن عنده مال قليل.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ

وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ (الأنعام : ١٤١)، فقال: ﴿ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ بينما قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام : ٩٩)، فقال: ﴿ مُشْتَبِهًا ﴾، قال د. **فاضل**: وقد اتسمت الآيتان كلتاهما بسمات السياق الذي وردت فيه كل آية منهما فالآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته والأخرى في بيان ما يؤكل من الفواكه والزرع.

«اشْتَـبَه» أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال كقولهم: «اشْتَبَهتْ عليه القِبْلَةَ واشْتَـبَه عليه الأمرُ». وأنّ «تَشَابه» أكثر ما يفيد المشاركة في معنى من المعاني سواء أدى إلى الالتباس أم لم يؤد. ومعلوم أن الذي يستطيع أن يشبه الأمور حتى تلتبس على الناظر أو المتأمل فلا يميز بينها أقدر من الذي يقدر على أن يجعل مجرد تشابه بين شيئين. وأن الأمور المشبهة كلما دقت كانت أدل على القدرة والبراعة هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إن الأمور المشتبهة تحتاج إلى زيادة نظر وتأمل لإدراك حقيقة أمرها فوضع ﴿ مُشْتَبِهًا ﴾ في السياق الدال على قدرته وآياته وفي موضع الأمر بالنظر ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ ﴾ دون الموضع الآخر مما ليس في هذا السياق فكان كل تعبير أنسب في سياقه الذي ورد فيه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني وهو أنه لِمَ قال في الموضعين ﴿ وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ فنفى التشابه دون الاشتباه؟

فذلك لأن نفي التشابه ينفي الاشتباه ونفي الاشتباه لا ينفي التشابه. وإيضاح ذلك أنك إذا قلت: «هذان الشيئان غير متشابهين» فقد نفيت التشابه بينهما ونفيت الاشتباه من باب أولى. وذلك لأن التشابه إنما يحصل من شدة التشابه بين الشيئين فإذا

نفيت التشابه زال الالتباس والاشتباه، أما إذا قلت: «هذان الشيئان غير مشتبهين» فقد نفيت الاشتباه وعدم التمييز بينهما ولكنك لم تنف التشابه فقد يكون بينهما تشابه لا يوقع في اللبس. فلو قال في الآية الأولى: «مشتبهاً وغير مشتبه» لكان نفى الاشتباه ولم ينف عنه التشابه فعلى هذا يمكن أن يكون النوعان متشابهين في وجه من الوجوه، فأراد أن ينفي ذلك فقال: ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾. وهذا أدل على القدرة، فإن جعل الأشياء بعضها متشابه وبعضها مختلف أدل على القدرة من جعلها كلها متشابهة أو جعلها كلها مختلفة والله أعلم.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

(الأنعام: ١٤٢)

قال **ابن عاشور**: والفرش اختلف في تفسيره في هذه الآية فقيل: الفرش ما لا يطيق الحمل من الإبل أي فهو يركب كما يفرش الفرش وهذا قول الراغب، وقيل: الفرش الصغار من الإبل أو من الأنعام كلها لأنها قريبة من الأرض فهي كالفرش، وقيل: الفرش ما يذبح لأنه يفرش على الأرض حين الذبح أو بعده أي فهو الضأن والمعز والبقر لأنها تذبح. وفي اللسان عن أبي إسحاق: أجمع أهل اللغة على أن الفرش هو صغار الإبل زاد في الكشاف أو الفَرْش: ما يُنْسَج من وبره وصوفه وشَعْره الفُرْش يريد أنه كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الآية ولأنهم كانوا يفترشون جلود الغنم والمعز للجلوس عليها. ولفظ ﴿وَفَرْشًا﴾ صالح لهذه المعاني كلها ومحامله كلها مناسبة للمقام فينبغي أن تكون مقصودة من الآية وكان لفظ الفرش لا يوازنه غيره في جمع هذه المعاني. وهذا من إعجاز القرآن من جانب فصاحته، فالحمولة الإبل خاصة والفرش يكون من الإبل والبقر والغنم على اختلاف معاني اسم الفرش

الصالحة لكل نوع من ضميمته إلى كلمة ﴿وَمِنَ﴾ الصالحة للابتداء فالمعنى: وأنشأ من الأنعام ما تحملون عليه وتركبونه وهو الإبل الكبيرة والإبل الصغيرة وما تأكلونه وهو البقر والغنم وما هو فرش لكم وهو ما يجز منها وجلودها. وقد علم السامع أنّ الله لما أنشأ حمولة وفرشاً من الأنعام أن يتذكروا أنهم يأكلون منها فحصل إيجاز في الكلام ولذلك عقب بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

سورة الأعراف

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٨، ٩).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ قال: توزن الأعمال.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه قال: إنما يوزن من الأعمال خواتيمها، فمن أراد الله به خيراً ختم له بخير عمله، ومن أراد به شراً ختم له بشر عمله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحارث الأعور قال: إنّ الحق ليثقل على أهل الحق كثقله في الميزان، وإنّ الحق ليخف على أهل الباطل كخفته في الميزان.

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير واللالكائي عن حذيفة قال: صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام، يرد بعضهم على بعض فيؤخذ من حسنات الظالم فترد على المظلوم، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فردت على الظالم.

وأخرج أبو الشيخ عن الكلبي في قوله ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ قال: أخبرني أبو صالح عن ابن عباس أنه قال: له لسان وكفتان. يوزن عمله، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ومنازلهم في الجنة بما كانوا بآياتنا تظلمون.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ قال: قال للنبي صلى الله عليه وسلم بعض أهله: يا رسول الله هل يذكر الناس أهليهم يوم القيامة؟ قال: «**أما في ثلاث مواطن فلا: عند الميزان، وعند تطاير الصحف في الأيدي، وعند الصراط**».

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل

النار، ثم قرأ ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ الآيتين. ثم قال: إنّ الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الأعراف.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص عن علي بن أبي طالب قال: من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه يوم القيامة، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيامة.

وأخرج أبو الشيخ عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوضع الميزان يوم القيامة فيوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار**».

وأخرج البزار وابن مردويه واللالكائي والبيهقي عن أنس رفعه قال: إنّ ملكاً موكل بالميزان، فيؤتى بالعبد يوم القيامة فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق: سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خفت ميزانه نادى الملك: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

وأخرج الحاكم وصححه عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «**يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك...! ما عبدناك حق عبادتك، ويوضع الصراط مثل حد الموسى، فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك...! ما عبدناك حق عبادتك**».

وأخرج ابن المبارك في الزهد والآجري في الشريعة واللالكائي عن سلمان قال: يوضع الميزان وله كفتان لو وضع في إحداهما السموات والأرض ومن فيهن لوسعه، فتقول الملائكة: من يزن هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك...! ما عبدناك حق عبادتك.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: الميزان له لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات والسيئات، فيؤتى بالحسنات في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان، فتثقل على السيئات فتؤخذ فتوضع في الجنة عند منازله، ثم يقال للمؤمن: اِلْحق بعملك. فينطلق إلى الجنة فيعرف منازله بعمله، ويؤتى بالسيئات في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان، فتخف ـ والباطل خفيف ـ فتطرح في جهنم إلى منازله فيها، ويقال له: اِلْحق بعملك إلى النار. فيأتي النار فيعرف منازله بعمله وما أعد الله له فيها من ألوان العذاب. قال ابن عباس: فلهم أعرف بمنازلهم في الجنة والنار بعملهم من القوم ينصرفون يوم الجمعة راجعين إلى منازلهم.

وأخرج الترمذي وحسنه والبيهقي في البعث عن أنس قال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: «**أنا فاعل**». قلت يا رسول الله: أين أطلبك؟ قال: «**اطلبني أول ما تطلبني على الصراط**». قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «**فاطلبني عند الميزان**». قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «**فاطلبني عند الحوض، فإني لا أُخْطَئ هذه الثلاثة مواطن**».

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه واللالكائي والبيهقي في البعث عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فيقول: أتنكر من هذا شيئاً، أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذراً وحسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة، وإنّه لا ظلم عليك اليوم. فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنّك لا تظلم. فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء**».

وأخرج أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أُحصي عليه فتمايل به الميزان فيبعث به إلى النار فإذا أدبر به، إذا صائح يصيح من عند الرحمن: لا تعجلوا لا تعجلوا فإنه قد بقى له. فيؤتى ببطاقة فيها: لا إله إلا الله. فتوضع مع الرجل في كفة حتى تميل به الميزان**».

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر عن النبي ﷺ قال: «**أول ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله**».

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة واللالكائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**».

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحِت بهن**».

وأخرج ابن أبي الدنيا والبزار وأبو يعلي والطبراني والبيهقي بسند جيد عن أنس قال: لقي رسول الله ﷺ أبا ذر فقال: «**ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟**». قال: بلى يا رسول الله. قال: «**عليك بحسن الخلق وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما**».

وأخرج ابن أبي شيبة عن ميمون بن مهران قال: قلت لأم الدرداء: أما سمعت من النبي ﷺ شيئاً؟ قالت: نعم، دخلت عليه فسمعته يقول: «**أول ما يوضع في الميزان الخُلق الحسن**».

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان واللالكائي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خُلق حسن**».



وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمر بن الخطاب قال: أعطيت ناقة في سبيل الله، فأردت أن أشتري من نسلها، فسألت النبي ﷺ فقال: «**دعها تأتي يوم القيامة هي وأولادها جميعاً في ميزانك**».

وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قضى لأخيه حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفعت**».

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن مغيث بن سمى وعن مسروق قالا: تعبَّد راهب في صومعة ستين سنة، فنظر يوماً في غب سماء فقال: لو نزلت فإني لا أرى أحداً فشربت من الماء وتوضأت ثم رجعت إلى مكاني، فتعرضت له امرأة فتكشفت له، فلم يملك نفسه أن وقع عليها، فدخل بعض تلك الغدران يغتسل فيه، وأدركه الموت وهو على تلك الحال، ومر به سائل فأومأ إليه أن خذ الرغيف رغيفاً كان في كسائه، فأخذ المسكين الرغيف ومات، فجيء بعمل ستين سنة فوضع في كفة، وجيء بخطيئته فوضعت في كفة، فرجحت بعمله حتى جيء بالرغيف، فوضع مع عمله فرجح بخطيئته.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «**بخٍ بخٍ خمس ما أثقلهن في الميزان. سبحان الله، ولا إله إلا الله، والحمد لله، والله أكبر، وفرط صالح يفرطه المسلم**».

وأخرج أبو يعلي وابن حبان عن عمرو بن حريث أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أنفقت عن خادمك من عمله كان لك أجره في موازينك**».

وأخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**من توضأ فمسح بثوب نظيف فلا بأس به ومن لم يفعل فهو أفضل، لأنّ الوضوء يوزن يوم القيامة مع سائر الأعمال**».

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن سعيد بن المسيب أنه كره المنديل بعد الوضوء، وقال: هو يوزن.

وأخرج الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن الزهري قال: إنما كره المنديل بعد الوضوء لأن كل قطرة توزن.

وأخرج المرهبي في فضل العلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء**».

وأخرج ابن عبد البر في فضل العلم عن إبراهيم النخعي قال: يجاء بعمل الرجل فيوضع في كفة ميزانه يوم القيامة فيخف، فيجاء بشيء أمثال الغمام فيوضع في كفة ميزانه فترجح، فيقال له: أتدري ما هذا؟ فيقول: لا. فيقال له: هذا من فضل العلم الذي كنت تعلمه الناس.

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن حماد بن أبي سليمان قال: يجيء رجل يوم القيامة فيرى عمله محتقراً، فبينما هو كذلك إذ جاءه مثل السحاب حتى يقع في ميزانه، فيقال: هذا ما كنت تُعلِّم الناس من الخير فورث بعدك فأجرت به.

وأخرج ابن المبارك عن أبي الدرداء قال: من كان الأجوفان همّه خسر ميزانه يوم القيامة.

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن ليث قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام: أمة محمد أثقل الناس في الميزان، ذلت ألسنتهم بكلمة ثقلت على من كان قبلهم: لا إله إلا الله.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أيوب قال: سمعت من غير واحد من أصحابنا: أن العبد يوقف على الميزان يوم القيامة فينظر في الميزان، وينظر إلى صاحب الميزان فيقول صاحب الميزان: يا عبد الله أتفقد من عملك ذلك شيئاً؟ فيقول: نعم. فيقول: ماذا؟ فيقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فيقول صاحب الميزان: هي أعظم من أن توضع في الميزان. قال موسى بن عبيدة: سمعت أنها تأتي يوم القيامة تجادل عمن كان يقولها في الدنيا جدال الخصم.

وأخرج أبو داود والحاكم عن أبي الأزهر زهير الأنماري قال: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه قال: «**اللهمَّ اغفر لي، وأخسء شيطاني، وفكَّ رهاني، وثَقِّلْ ميزاني، واجعلني في الندي الأعلى**».

۞ قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الأعراف: ١٦).

قال في **الدر المنثور**: وأخرج ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال: الحق.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال: طريق مكة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال: طريق مكة.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز إبليس معهم بمثل عدتهم.

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في الآية يقول: أقعد لهم فأصدهم عن سبيلك.

وأخرج أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن سبرة ابن الفاكه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم في طرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في طوله؟ فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: هو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد**». قال رسول الله ﷺ: «**فمن فعل ذلك منهم فمات أو وقصته دابته فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة**».

۞ قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.
(الأعراف: ٢٨)

قال **ابن عاشور**: ضمَّن القول معنى تكذبون أو معنى تتقولون، فلذلك عدي بعلى، وكان حقه أن يعدى بعن، لو كان قولاً صحيح النسبة أ.هـ. يعني: كان يقول: «أتقولون عن الله».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ (الأعراف: ٤٨، ٤٩).

قال **ابن عاشور**: وقوله ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ هو المقسم عليه وقد سلطوا النفي في كلامهم على مراعاة نفي كلام يقوله الرسول ﷺ أو المؤمنون. وذلك أن بشارات القرآن لأولئك الضعفاء ووعده إياهم بالجنة وثناءه عليهم نزل منزلة كلام يقول: إن الله يناهم برحمة أي بأن جعل إيواء الله إياهم بدار رحمته أي الجنة بمنزلة النَّيْل وهو حصول الأمر المحبوب المبحوث عنه. فأطلق على ذلك الإيواء فعل «ينال» على سبيل الاستعارة وجعلت الرحمة بمنزلة الآلة للنيل كما يقال: نال الثمرة بمحجن فالباء للآلة. أو جعلت الرحمة ملابسة للنيل فالباء للملابسة والنيل هنا استعارة. وقد عمدوا إلى هذا الكلام المقدر فنفوه فقالوا: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍ﴾ وهذا النظم الذي حُكي به قسمهم يؤذن بتهكمهم بضعفاء المؤمنين في الدنيا. وقد أغفل المفسرون تفسير هذه الآية بحسب نظمها.

ـ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (الأعراف: ٥٠).

قال **ابن عاشور**: فعل الفيض حقيقة سيلان الماء وانصبابه بقوة ويستعمل مجازاً في الكثرة، ومنه ما في الحديث «ويفيض المال فلا يقبله أحد». ويجوز عندي في الآية أن يُحمل الفيض على المعنى المجازي وهو سعة العطاء والسخاء من الماء والرزق، إذ ليس معنى الصب بمناسب بل المقصود الإرسال والتفضل. اهـ.

قلتُ: فإن قيل فلم قالوا: ﴿ أَفِيضُواْ ﴾ ولم يقولوا: «أرسلوا» مع أنهم في النار، والمناسب لهم اليأس من الخير فضلاً عن الطمع في كثر ته؟

قلتُ: كأنهم سألوا أهل الجنة وأخبروهم أنهم كرماء وأهل سخاء فأتى القرآن بلفظة ﴿ أَفِيضُواْ ﴾ التي تدل على ذلك باختصار وإيجاز، فلله حلاوته وروعته!!

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦).

قال **ابن عاشور**: وعدم لحاق علامة التأنيث لوصف ﴿ قَرِيبٌ ﴾ مع أن موصوفه مؤنث اللفظ وجهه علماء العربية بوجوه كثيرة وأشار إليها في الكشاف وجُلُّها يحوم حول تأويل الاسم المؤنث بما يرادفه من اسم مذكر. أو الاعتذار بأن بعض الموصوف به غير حقيقي التأنيث كما هنا. وأحسنها عندي قول الفراء وأبي عبيدة: أنّ قريباً أو بعيداً إذا أطلق على قرابة النسب أو بُعْد النسب فهو مع المؤنث بتاء ولابد؛ وإذا أطلق على قرب المسافة أو بعدها جاز فيه مطابقة موصوفه وجاز فيه التذكير على التأويل بالمكان وهو الأكثر؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ وقال: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ولما كان إطلاقه في هذه الآي لقرب المسافة جرى على الشائع في استعماله في المعنى الحقيقي. وهذا من لطيف الفروق العربية في استعمال المشترك إزالةً للإبهام بقدر الإمكان.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٧).

قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ هنا، وفي الروم: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ (الروم: ٨) بلفظ المستقبل، وفي الفرقان: ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ

جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ (الفرقان : ٨)، وفاطر: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ (فاطر : ٩) بلفظ الماضي، لأن ما قبلها في هذه السورة ذكر الخوف والطمع وهو قوله: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ وهما يكونان في المستقبل لا غير فكان ﴿ يُرْسِلُ ﴾ بلفظ المستقبل أشبه بما قبله، وفي الروم قبله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ﴾ (الروم : ٤٦) فجاء بلفظ المستقبل أشبه بما قبله. وأما في الفرقان فإن قبله: ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ (الفرقان : ٤٥) الآية وبعده ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (الفرقان : ٥٣، ٥٤)، أفاده **الفيروز أبادي**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف : ٦٩).

فقال: ﴿ بَصْطَةً ﴾ بالصاد، كذا قال: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة :٢٤٥)، فقال: ﴿ وَيَبْصُطُ ﴾ بالصاد، بينما قال في بقية المواضع في القرآن بالسين كقوله: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ (الرعد : ٢٦)، وقوله: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ (العنكبوت : ٦٢)، وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (الروم : ٤٨) ، ووجه ذلك كما قال د. **فاضل**: أنّ الصاد أقوى من السين وأظهر، فكان الأنسب أن يقول: ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾ في حق عاد لقوة أجسامهم والبسط أكثر من غيرهم، وكذا في قوله: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾ لعدم التقييد فيها بل أطلق البسط بخلاف الآيات الأخرى فإنه قيدّ فيها البسط بالرزق أو بسط الريح كما في آية الروم ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ (مريم : ٦٩)، فقال: ﴿ عِتِيًّا ﴾ بالياء، بينما قال: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ

نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢١)، فقال: ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالواو، ووجه ذلك كما قال د. **فاضل**: أنّ الواو أثقل وأقوى من الياء، فلمّا أكد الفعل بالمصدر ووصفه بالكبر ناسب أن يأتي بالواو فقال: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بخلاف آية مريم، كما أنه ذكر في آية الفرقان من عتو القوم وكفرهم أنهم كفروا بالله ولا يرجون اليوم الآخر واستكبروا في أنفسهم وطلبوا رؤية الله أو إنزال الملائكة، ولم يذكر ذلك في سورة مريم. اهـ.

قلتُ: ومن الفوائد أيضاً أنّه لما قال في سورة مريم: ﴿عِتِيًّا﴾ دلّ على أنه سينزع من كل أمة أشدها في هذا العتو على الله وعلى شرعه وإن كان قليلاً بالنسبة لعتو غيرهم، فلن يختص هذا إذاً بفرعون وأبي جهل وغيرهم من كبار العتاة، بل هو لكل شديد قومه في العتو، وإن كان أقل من عتو غيره من الأمم الكافرة، ولو قال ﴿عُتُوًّا﴾ لربما ظنّ ظان أنّ ذلك خاص بكبار عتاة الأمم كفرعون وأبي جهل وأضرابهما، فأكرم بحلاوة القرآن.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ (الأعراف: ٧٥، ٧٦).

قال **ابن عاشور**: ووصفهم بالذين استكبروا هنا لتفظيع كبرهم وتعاظمهم على عامة قومهم واستذلالهم إياهم، وللتنبيه على أن الذين آمنوا بما جاءهم به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه. واختيار طريق الموصولية في وصفهم ووصف الآخرين بالذين استضعفوا لما تومئ إليه الصلة من وجه صدور هذا الكلام منهم أي أن استكبارهم هو صارفهم عن طاعة نبيهم وأن احتقارهم المؤمنين هو الذي لم يُسغ عندهم سبقهم إياهم إلى الخير والهدى كما حكى عن قوم نوح قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ وكما حكى عن كفار قريش بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ

﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ ولهذا لم يوصف قوم صالح بالكفر كما وصف به قوم هود. والذين استضعفوا هم عامة الناس الذين أذلهم عظماؤهم واستعبدوهم لأن زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السيادة الدنيوية الخلية عن خلال الفضيلة من العدل والرأفة وحب الإصلاح فلذلك وصف الملأ بالذين استكبروا وأطلق على العامة وصف الذين استضعفوا. والاستفهام في ﴿أَتَعۡلَمُونَ﴾ للتشكيك والإنكار أي ما نظنكم آمنتم بصالح عليه السلام عن علم بصدقه ولكنكم اتبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ وفي ذلك شوب من الاستهزاء. وقد جيء في جواب ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ بالجملة الاسمية للدلالة على أن الإيمان متمكن منهم بمزيد الثبات فلم يتركوا للذين استكبروا مطمعاً في تشكيكهم بله صرفهم عن الإيمان برسولهم.

وأكد الخبر بحرف «إن» لإزالة ما توهموه من شك الذين استكبروا في صحة إيمانهم. والعدول في حكاية جواب الذين استضعفوا عن أن يكون بنعم إلى أن يكون بالموصول وصلته لأن الصلة تتضمن إدماجاً بتصديقهم بما جاء به صالح من نحو التوحيد وإثبات البعث والدلالة على تمكنهم من الإيمان بذلك كله بما تفيده الجملة الاسمية من الثبات والدوام. وهذا من بليغ الإيجاز المناسب لكون نسيج هذه الجملة من حكاية القرآن لا من المحكي من كلامهم؛ إذ لا يظن أن كلامهم بلغ من البلاغة هذا المبلغ، وليس هو من الأسلوب الحكيم كما فهمه بعض المتأخرين. ومراجعة الذين استكبروا بقولهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تدل على تصلبهم في كفرهم وثباتهم فيه؛ إذ صيغ كلامهم بالجملة الاسمية المؤكدة.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (الأعراف: ٨٨).

قال **ابن عاشور**: وإيثار وصفهم بالاستكبار هنا دون الكفر مع أنه لم يحك عنهم هنا خطاب المستضعفين حتى يكون ذكر الاستكبار إشارة إلى أنهم استضعفوا المؤمنين

كما اقتضته قصة ثمود، فاختير وصف الاستكبار هنا لمناسبة مخاطبتهم شعيباً بالإخراج أو الإكراه على اتباع دينهم وذلك من فعل الجبارين أصحاب القوة. وكان إخراج المغضوب عليه من ديار قبيلته عقوبة متبعة في العرب إذا أجمعت القبيلة على ذلك ويسمى هذا الإخراج عند العرب بالخلع، والمخرج يسمى خليعاً. وأكدوا التوعد بلام القسم ونون التوكيد ليوقن شعيب بأنهم منجزو ذلك الوعيد.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ (الأعراف: ٩٤، ٩٥).

فقال: ﴿ **مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ** ﴾ ولم يقل: «الحسنات» بل أتى بال «الجنس»، للإشعار بأنهم أُعطوا حالة حسنة بطيئة النفع لا تبلغ مبلغ البركة، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ** ﴾ (الأعراف: ٩٦).

قال **ابن عاشور**: والفتح إزالة حجز شيء حاجز عن الدخول إلى مكان. يقال فتح الباب وفتح البيت وتعديته إلى البيت على طريقة التوسع وأصله فتح للبيت، وكذلك قوله هنا: ﴿ **لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ** ﴾. وقوله: ﴿ **مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا** ﴾ كقول القائل: فتح كوة أي جعلها فتحة. والفتح هنا استعارة للتمكين كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ** ﴾ في سورة الأنعام. وتعدية فعل الفتح إلى البركات هنا استعارة مكنية بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه فهنا استعارتان: مكنية وتبعية. وقرأ ابن عامر ﴿ **لفتَّحنا** ﴾ بتشديد التاء وهو يفيد المبالغة. والبركات جمع بركة والمقصود من الجمع تعددها باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** ﴾.
(الأعراف: ١١٧)

قال **ابن عاشور**: التعبير بصيغة المضارع ﴿ تَلْقَفُ ﴾، ﴿ يَأْفِكُونَ ﴾ للدلالة على التجديد والتكرير، مع استحضار الصورة العجيبة، أي: فإذا هي يتجدد تلقفها لما يتجدد ويتكرر من إفكهم. اهـ.

قلتُ: هذان الغرضان ـ أعني التجدد واستحضار الصورة العجيبة ـ يكثر ابن عاشور وغيره من علماء اللغة من ذكرهما بياناً لفائدة اختيار الفعل المضارع، فاحفظهما ونزلهما على غير هذه الآيات، لكن ينتبه إلى أنه ربما لم يصح حمل بعض الآيات إلّا على أحد الغرضين فقط.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

قال **ابن عاشور**: اختيار الأفعال الأربع المضارعة لإفادة تجدد تلك الأفعال منهم واستمرارهم عليها، وأمّا اختيار الفعل الماضي ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾، ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾، فهو لإفادة أن وصف التكذيب قديم راسخ فيهم. فكان رسوخ ذلك فيهم سبباً من أسباب الطبع والختم على قلوبهم فلا يشعرون بنقائصهم ولا يصلحون أنفسهم، فلا يزالون متكبرين معرضين غاوين. وللتنبيه على أن غفلتهم عن قصدٍ صيغ الإخبار عنهم بصيغة ﴿ وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ للدلالة على استمرار غفلتهم وكونها دأباً لهم. وإنما تكون كذلك إذا كانوا قد التزموها فأما لو كانت عن غير قصد فإنها قد تعتريهم وقد تفارقهم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١١٧ - ١١٩).

إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيل إلى كثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه مُحِق! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثئ

كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفئ كشعلة الهشيم! وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور... والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال، وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ .. وثبت، واستقر.. وذهب ما عداه فلم يَعُدْ له وجود: ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .. وغُلِبَ الباطل والمبطلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون. أفاده في **الظلال**.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٠ - ١٢٦).

قال في (**الظلال**): ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ إنها صولة الحق في الضمائر. ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين.. إنّ السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنِّهم، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه. وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبشر، أم من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر. والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له، لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة، ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور.. ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين.. ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان؛ ولا كيف تلمسها حرارة اليقين. فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب ـ وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ـ .. ومن ثم فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذي لم يدرك دبيبه في القلوب ولم يتابع خطاه في

النفوس؛ ولم يفطن إلى مداخله في شعاب الضمائر.. ثم هزته المفاجأة الخطيرة التي تزلزل العرش من تحته: مفاجأة استسلام السحرة ـ وهم من كهنة المعابد ـ لرب العالمين.. رب موسى وهارون. بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين!.. والعرش والسلطان هما كل شيء في حياة الطواغيت.. وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تحرج في سبيل المحافظة على الطاغوت.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٣، ١٢٤).

قال في (**الظلال**): هكذا.. ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ .. كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق ـ وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها ـ أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم ـ وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً ـ أو يستأذنوه في أن تشرق أرواحهم ـ وهم أنفسهم لا يملكون مداخلها. أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق. أو أن يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار. أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين! ولكنه الطاغوت ... جاهل غبي مطموس؛ وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور! ثم إنه الفزع على العرش المهدد والسلطان المهزوز. ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾. وفي نص آخر: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾! والمسألة واضحة المعالم.. إنها دعوة موسى إلى ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .. هي التي تزعج وتخيف.. إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين. وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شريعته. وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يشرعون للناس ما يشاءون، ويُعبِّدون الناس لما يشرعون!.. إنهما منهجان لا يجتمعان.. أو هما دينان لا يجتمعان.. أو هما ربان لا يجتمعان.. وفرعون كان يعرف وملؤه كانوا يعرفون.. ولقد فزعوا للدعوة من موسى وهارون إلى رب العالمين. فأولى أن يفزعوا الآن وقد ألقي السحرة ساجدين. قالوا:

﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ ! والسحرة من كهنة الديانة الوثنية التي تؤله فرعون، وتمكنه من رقاب الناس باسم الدين! وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشي الفظيع.

۞ **قَالَ تعَالَىٰ:** ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٣، ١٢٤).

قال في (**الظلال**): إنه التعذيب والتشويه والتنكيل.. وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان.. وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.. ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان؛ تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة؛ وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم. إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ وماذا ستدع؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟.. لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق..

۞ **قَالَ تعَالَىٰ:** ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٥، ١٢٦).

قال في (**الظلال**): إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع. كما أنه لا يخضع أو يخنع. الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره. ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾، والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت.. وأنها معركة العقيدة في الصميم.. لا يداهن ولا يناور.. ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة، لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة. ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾، والذي يعرف أين يتجه في المعركة، وإلى من يتجه؛ لا يطلب من خصمه السلامة والعافية، إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام. ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾، ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان، وأمام

الوعي، وأمام الاطمئنان.. يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام. فإذا هي مستعصية عليه، لأنها من أمر الله، لا يملك أمرها إلا الله.. وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله؟ وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان! إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية. هذا الذي كان بين فرعون وملئه، والمؤمنين والسحرة.. السابقين.. إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بانتصار العقيدة على الحياة. وانتصار العزيمة على الألم. وانتصار «الإنسان» على «الشيطان»! إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية. فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة. والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب. إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية! فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتـُمنّى بالقرب من السلطان.. هي ذاتها التي تستعلي على فرعون؛ وتستهين بالتهديد والوعيد، وتُقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب. ويذهب التهديد.. ويتلاشى الوعيد.. ويمضي الإيمان في طريقه. لا يتلفت، ولا يتردد، ولا يحيد!

فائدة : ذكر صاحب الظلال سر كثرة الكلام على أمة بني إسرائيل في القرآن:

من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها. فقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول. هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة؛ وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معاً. وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم

وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة. وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم؛ كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة. وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة.. فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة، لتعرف من هم أعداؤها: ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم؟

ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله؛ كما كانوا أعداء هُدَى الله في ماضيهم كله. فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفاً؛ ووسائلهم كلها مكشوفة.

ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير. وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة طويلة؛ ووقعت الانحرافات في عقيدتهم، ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم؛ ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم.. فاقتضى هذا أن تُلِمَّ الأمة المسلمة ـ وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها ـ بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ؛ وتعرف مزالق الطريق وعواقبها، ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة ـ في حقل العقيدة والحياة ـ إلى حصيلة تجاربها؛ وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون. ولتتقي ـ بصفة خاصة ـ مزالق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هَدي التجارب الأولى.

ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل. وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها، وتنحرف أجيال منها؛ وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها فترات تمثل فترات من حياة بني إسرائيل؛ فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددي الدعوة في أجيالها الكثيرة، نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم؛ يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته. ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب

التي عرفت ثم انحرفت! فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها، وينفض عنها الركام، لجدته عليها، وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة. فأما القلوب التي نوديت من قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جدته. ولا تكون له هزته؛ ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته؛ ومن ثَمَّ تحتاج إلى الجهد المضاعف، وإلى الصبر الطويل!.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ (الأعراف: ١٣٧). فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ﴾، ليضمنها «حقت على» أو ليضمنها معنى الإنعام، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ (الأعراف: ١٤٨). ولم يبين المفعول الثاني وكذا في كل الآيات التي ذكرت اتخاذهم العجل لم يذكر المفعول الثاني، ومقتضى الكلام «اتخاذهم العجل إلهاً» أو «اتخذوا من حليهم عجلاً إلهاً»، ونكتة حذفه دائماً هي التنبيه على أنه لا ينبغي التلفظ بأنّ عجلاً مصطنعاً من جماد إله، وقد أشار تعالى إلى هذا المفعول المحذوف دائماً في طه بقوله: ﴿**فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ**﴾ (طه: ٨٨)، أفاده **الشنقيطي**.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ (الحج: ٥)، فحذف المفعول ولم يقل: «لنبيّن لكم قدرتنا» مثلاً ليدل على أنّ أفعاله سبحانه هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنه بالذكر ولا يحيط به الوصف، أفاده **الزمخشري**.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥)، فقال: ﴿وَرَبَتْ﴾ مع أنّ الذي يزيد ويربو هو النبات لا الأرض، ووجهه أنّ

الزيادة الحاصلة في النبات لمّا كان نابتاً فيها متصلاً بها صار كأنه زيادة حصلت في الأرض نفسها، أفاده **الشنقيطي**.

وقال **الطبري**: ربت أي أضعفت النبات بمجيء الغيث، وقيل انتفخت الأرض لأجل خروج النبات، نقله **الشنقيطي**.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج: ٦٣)، فقال: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بالمضارع دون الماضي، قال الزمخشري لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول: أنعم عليّ فلان كذا وكذا فأروح وأعدو شاكراً له، ولو قلت: فغدوتُ ورحتُ، لم يقع الموقع.

وقال **الشنقيطي**: ويظهر لي أنّ التعبير بالمضارع يفيد استحضار الهيئة التي اتصفت بها الأرض بعد نزول المطر، والماضي لا يفيد دوام استحضارها لأنه يفيد انقطاع الشيء. وأما الرفع في قوله: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ فلأنه ليس مسبباً عن الرؤية التي هي موضع الاستفهام وإنما هو سبب الإنزال في قوله: ﴿أَنزَلَ﴾، والإنزال الذي هو سبب إصباح الأرض مخضرة ليس فيه استفهام. ومعلوم أنّ الفاء التي يُنصب بعدها المضارع إن حذفت جاز جعل مدخولها جزاء الشرط، ولا يمكن أن تقول هنا: إن تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً، تصبح الأرض مخضرة، لأنّ الرؤية لا أثر لها ألبتة في اخضرار الأرض، بل سببه إنزال الماء لا رؤية إنزاله، وما ذكر الزمخشري من سببٍ للرفع ها هنا لا يظهر لي كل الظهور.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ (الأعراف: ١٦٩).

قال **ابن عاشور**: وبناء فعل ﴿سَيُغْفَرُ﴾ على صيغة المجهول لأن الفاعل معروف وهو الله إذ لا يصدر هذا الفعل إلا عنه. وللدلالة على أنهم يقولون ذلك على وجه العموم لا في خصوص الذنب الذي أنكر عليهم أو الذي تلبسوا به حين القول. ونائب الفاعل محذوف لعلمه من السياق والتقدير: سيغفر لنا ذلك أو ذنوبنا لأنهم يحسبون أن

ذنوبهم كلها مغفورة ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ كما تقدم في سورة البقرة أي يغفر لنا بدون سبب المغفرة وهو التوبة كما يعلم من السياق وهو جزمهم بذلك عقب ذكر الذنب دون ذكر كفارة أو نحوها.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧).

قال في (**الظلال**): إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات.. إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه على علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه.. أَوَ ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟.. ها هو ينسلخ من آيات الله؛ ويتجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي؛ وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم؛ فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام؛ فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد.. إذا نحن بهذا المخلوق، لاصقاً بالأرض، ملوثاً بالطين. ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد.. كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى؛ والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر.. فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها... مشهد اللهاث الذي ينقطع.. سمع التعليق المرهوب الموحي، على المشهد كله.
﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا

ﵟٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَﵞ. ذلك مثلهم! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم. ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخاً. ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان، هابطون عن مكان «الإنسان» إلى مكان الحيوان.. مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين.. وكان لهم من الإيمان جناح يرفون به إلى عليين؛ وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين! ﵟسَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَﵞ! وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يعريها من الغطاء الواقي والدرع الحامي، ويدعها غرضاً للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهاث الكلب أبداً!!! وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد؛ إلا هذا القرآن العجيب الفريد!!

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﵟهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦﵞ (الأعراف: ١٨٩).

قال **ابن عاشور**: والسكون مجاز في الاطمئنان والتأنس؛ أي جعل من نوع الرجل زوجه ليألفها ولا يجفو قربها. ففي ذلك منة الإيناس بها وكثرة ممارستها لينساق إلى غشيانها فلو جعل الله التناسل حاصلاً بغير داعي الشهوة لكانت نفس الرجل غير حريصة على الاستكثار من نسله. ولو جعله حاصلاً بحالة ألم لكانت نفس الرجل مقلة منه بحيث لا تنصرف إليه إلا للاضطرار بعد التأمل والتردد كما ينصرف إلى شرب الدواء ونحوه لمعقبة المنافع. وفرع عنه بفاء التعقيب ما يحدث عن بعض سكون الزوج إلى زوجه وهو الغشيان وصيغة هذه الكناية بالفعل الدال على التكلف لإفادة قوة التمكن من ذلك لأن التكلف يقتضي الرغبة. أ. هـ . **قلتُ**: يقصد فعل ﵟتَغَشَّىٰهَاﵞ .

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ (الأعراف : ١٩٣).

قال د. **فاضل**: ففرّق بين طرفي التسوية فقال: ﴿ أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾، بالفعل ثمّ قال: ﴿ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ بالاسم ولم يسوِّ بينهما، فلم يقل: «أدعوتموهم أم صَمَتُّم» بالفعلية، أو: «أأنتم داعُوهم أم أنتم صامتون»، وذلك أنّ الحال الثابتة للإنسان هي الصمت وإنما يتكلم لسبب يعرض له، فجاء للدلالة على الحال الثابتة بالاسم ﴿ صَٰمِتُونَ ﴾ وجاء للدلالة على الحالة الطارئة بالفعل ﴿ أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ أي: أأحدثتم لهم دعاءً أم بقيتم على حالكم من الصمت. وقال في الكشاف: فإذا قلت: هلّا قيل: أم صمتم؟ ولِمَ وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟ **قلتُ**: لأنهم كانوا إذا حَزَبهم أمرٌ دعوا الله دون أصنامهم.. فكانت حالتهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم. فقيل: إنْ دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.

قال د. **فاضل**: ومثلها قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ (الملك : ١٩)، فقال: ﴿ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ولم يقل: «صافات وقابضات» أو «يصففن ويقبضن»؛ ذلك أنّ الأصل في الطيران صف الأجنحة والقبض طارئ، فكان الصفُّ بصيغة الاسمية للدلالة على الثبوت، والقبض بصيغة الفعلية للدلالة على التجدد والحدوث. قال في الكشاف: فإن قلت: لم قال ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ولم يقل: «وقابضات»؟ قلتُ: لأنّ الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها، وأمّا القبض فطارئ على البسط للاستظهارية على التحرك فجيء بما هو طارٍ «طارئ» غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنّهنّ صافات ويكون منهنّ القبض تارةً بعد تارة كما يكون من السابح.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (الأعراف : ١٩٥).

قال **ابن عاشور**: وترتيب هذه الجوارح الأربع على حسب ما في الآية ملحوظ فيه أهميتها بحسب الغرض الذي هو النصر والنجدة؛ فإن الرجلين تسرعان إلى الصريخ قبل التأمل واليدين تعملان عمل النصر وهو الطعن والضرب وأما الأعين والآذان فإنهما وسيلتان لذلك كله فأُخِّرا. وإنما قدم ذكر الأعين هنا على خلاف معتاد القرآن في تقديم السمع على البصر كما سبق في أول سورة البقرة لأن الترتيب هنا كان بطريق الترقي.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠)

قال **ابن عاشور**: والنزغ النخس والغرز كذا فسره في الكشاف وهو التحقيق وأما الراغب وابن عطية فقيداه بأنه دخول شيء في شيء لإفساده. **قلتُ**: وقريب منه الفسخ بالسين وهو الغرز لإبرة أو نحوها للوشم. قال ابن عطية: وقلما يستعمل في غير فعل الشيطان ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ وإطلاق النزغ هنا على وسوسة الشيطان استعارة شبه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي. وشاعت هذه الاستعارة بعد نزول القرآن حتى صارت كالحقيقة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠).

قال في (**الظلال**): خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس في المعاشر والصحبة، ولا تطلب إليهم الكمال، ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق. واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم.. كل أولئك في المعاملات الشخصية لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية. فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح. ولكن في الأخذ والعطاء والصحبة والجوار. وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة. فالإغضاء عن الضعف البشري، والعطف عليه، والسماحة معه، واجب الكبار الأقوياء تجاه

الصغار الضعفاء. ورسول الله ﷺ راعٍ وهادٍ ومعلمٌ ومربٍّ. فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والإغضاء.. وكذلك كان ﷺ .. لم يغضب لنفسه قط. فإذا كان في دين الله لم يقم لغضبه شيء!.. وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله ﷺ . فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضي سعة صدر، وسماحة طبع، ويسراً وتيسيراً في غير تهاون ولا تفريط في دين الله.. ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ .. وهو الخير المعروف الواضح الذي لا يحتاج إلى مناقشة وجدال؛ والذي تلتقي عليه الفطر السليمة والنفوس المستقيمة.. والنفس حين تعتاد هذا المعروف يسلس قيادتها بعد ذلك، وتتطوع لألوان من الخير دون تكليف. وما يصد النفس عن الخير شيء مثلما يصدها التعقيد والمشقة والشد في أول معرفتها بالتكاليف! ورياضة النفوس تقتضي أخذها في أول الطريق بالميسور المعروف من هذه التكاليف حتى يسلس قيادها وتعتاد هي بذاتها النهوض بما فوق ذلك في يسر وطواعية ولين..

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .. من الجهالة ضد الرشد، والجهالة ضد العلم.. وهما قريب من قريب.. والإعراض يكون بالترك والإهمال؛ والتهوين من شأن ما يجهلون به من التصرفات والأقوال؛ والمرور بها مر الكرام؛ وعدم الدخول معهم في جدال لا ينتهي إلى شيء إلا الشد والجذب، وإضاعة الوقت والجهد.. وقد ينتهي السكوت عنهم، والإعراض عن جهالتهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها، بدلاً من الفحش في الرد واللجاج في العناد. فإن لم يؤد إلى هذه النتيجة فيهم، فإنه يعزلهم عن الآخرين الذين في قلوبهم خير. إذ يرون صاحب الدعوة محتملاً معرضاً عن اللغو، ويرون هؤلاء الجاهلين يحمقون ويجهلون فيسقطون من عيونهم ويُعزلون!

وما أجدر صاحب الدعوة أن يتبع هذا التوجيه الرباني العليم بدخائل النفوس!

ولكن رسول الله ﷺ بشر. وقد يثور غضبه على جهالة الجهال وسفاهة السفهاء وحمق الحمقى.. وإذا قدر عليها رسول الله ﷺ فقد يعجز عنها من وراءه من

أصحاب الدعوة.. وعند الغضب ينزغ الشيطان في النفس، وهي ثائرة هائجة مفقودة الزمام!.. لذا يأمره ربه أن يستعيذ بالله؛ لينفثئ غضبه، ويأخذ على الشيطان طريقه. ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ (الأعراف : ٢٠٦)

قال **ابن عاشور** مبيناً سر قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ دون «الملائكة»: ووجه العدول عن لفظ الملائكة إلى الموصولية ما تؤذن به الصلة من رفعة منزلتهم فيتذرع بذلك إلى إيجاد المنافسة في التخلق بأحوالهم و﴿عِندَ﴾ مستعمل مجازاً في رفعة المقدار والحظوة الإلهية وقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ ليس المقصود به التنويه بشأن الملائكة لأن التنويه بهم يكون بأفضل من ذلك وإنما أريد به التعريض بالمشركين وأنهم على النقيض من أحوال الملائكة المقربين فخليق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة والمقصود هو قوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي ينزهونه بالقول والاعتقاد عن صفات النقص وهذه الصلة هي المقصودة من التعليل للأمر بالذكر. واختيار صيغة المضارع لدلالتها على التجديد والاستمرار أو كما هو المقصود. وتقديم المعمول من قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ للدلالة على الاختصاص أي ولا يسجدون لغيره وهذا أيضاً تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره والمضارع يفيد الاستمرار أيضاً.

قلتُ: قوله ﴿عِندَ﴾ مستعمل مجازاً ... إلخ. غير صحيح بل هو على حقيقته فالله في السمـاء.

۞۞۞

سُورَةُ الأَنْفَالِ

❁ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ (الأنفال: ٢).

قال **ابن عاشور**: وكيفية تأثير تلاوة الآيات في زيادة الإيمان أن دقائق الإعجاز التي تحتوي عليها آيات القرآن تزيد كل آية تنزل منها أو تتكرر على الأسماع سامعها يقيناً بأنها من عند الله فتزيده استدلالاً على ما في نفسه وذلك يقوي الإيمان حتى يصل إلى مرتبة تقرب من الضرورة على نحو ما يحصل في تواتر الخبر من اليقين بصدق المخبرين ويحصل مع تلك الزيادة زيادة في الإقبال عليها بشراشر القلوب. ثم في العمل بما تتضمنه من أمر أو نهي حتى يحصل كمال التقوى فلا جرم كان لكل آية تتلى على المؤمنين زيادة في عوارض الإيمان من قوة اليقين وتكثير الأعمال فهذا وصف راسخ للآيات. ويجوز أن تفسر زيادة الإيمان عند تلاوة الآيات بأنها زيادة إدراك للمعاني المؤمن بها. وحظ المقام المتعلق بأحكام الأنفال من هذه الزيادة هو أن سماع آيات حكم الأنفال يزيد إيمان المؤمنين قوة بنبذ الشقاق والتشاجر الطارئ بينهم في أنفس الأموال عندهم وهو المال المكتسب من سيوفهم فإنه أحب أموالهم إليهم وفي الحديث: «**وجعل رزقي تحت ظل رمحي**». وبذلك تتضح المناسبة بين ذكر ذلك بأن شأن المؤمنين ازدياد إيمانهم عند تلاوة آيات الله.

وقال في (**الدر المنثور**): أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: فرقت قلوبهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يُصلُّون إذا غابوا،

ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنّهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه.

وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير وأبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أبي الدرداء قال: إنما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر أما تجد قشعريرة؟ قلت: بلى. قال: فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك.

وأخرج الحكيم الترمذي عن عائشة قالت: ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضرمة السعفة، فإذا وجد أحدكم فليدع عند ذلك.

وأخرج الحكيم الترمذي عن ثابت البناني قال: قال فلان: إني لأعلم متى يستجاب لي. قالوا: ومن أين يعلم ذاك؟ قال: إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عيناي، فذاك حين يستجاب لي.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان عن السدي في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهمّ بمعصية، فيقال له: اتق الله. فيجل قلبه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ قال: تصديقاً. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ قال: زادتهم خشية.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال: ١٧).

قال **ابن عاشور**: وقوله: ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ زيادة تقييد للرمي وأنه الرمي المعروف المشهور وإنما احتيج إليه في هذا الخبر ولم يؤت بمثله في قوله: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ لأن القتل لما كانت له أسباب كثيرة كان اختصاص سيوف المسلمين بتأثيره غير مشاهد. وكان من المعلوم أن الموت قد يحصل من غير فاعل غير الله، لم يكن نفي ذلك التأثير وإسناد حصوله إلى مجرد فعل الله محتاجاً إلى التأكيد بخلاف كون رمي الحصى الحاصل

بيد الرسول ﷺ حاصلاً منه فإن ذلك أمر مشاهد لا يقبل الاحتمال فاحتيج في نفيه إلى التأكيد إبطالاً لاحتمال المجاز في النفي بأن يحمل على نفي رمي كامل؛ فإن العرب قد ينفون الفعل ومرادهم نفي كماله حتى يجمعون بين الشيء وإثباته أو نفي ضده بهذا الاعتبار كقول عباس بن مرداس: فلم أُعْطِ شيئاً ولم أَمْنع. أي شيئاً مـجدياً فدل قوله: ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ على أن المراد بالنفي في قوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ هو الرمي بمعنى أثره وحصول المقصود منه وليس المراد نفي وقوع الرمي مثل المراد من قوله: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ لأن الرمي واقع من يد النبي ﷺ ولكن المراد نفي تأثيره. فإن المقصود من ذلك الرمي إصابة عيون أهل جيش المشركين وما كان ذلك بالذي يحصل برمي اليد لأن أثر رمي البشر لا يبلغ أثره مبلغ تلك الرمية، فلما ظهر من أثرها ما عم الجيش كلهم علم انتفاء أن تكون تلك الرمية مدفوعة بيد مخلوق ولكنها مدفوعة بقدرة الخالق الخارجة عن الحد المتعارف وأن المراد بإثبات الرمي في قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ كالقول في: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ .

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٠)، فقال: ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ بتاء واحدة بينما قال: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ (محمد: ٣٨)، وقال: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح: ١٦)، فقال: ﴿ تَتَوَلَّوْاْ ﴾ ، وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنه نهى في الآية الأولى عن التولي، فناسب حذف التاء للدلالة على النهي عن أي تولٍّ ـ ولو قلّ ـ ، ولقلة تولي المؤمنين قال: ﴿ وَلَا تَوَلَّوْاْ ﴾ بحذف التاء للدلالة على قلّة توليهم، بينما قال لقوم هود: ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ للدلالة على عظيم توليهم، وقال للأعراب: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ بتاءين للدلالة على عظيم الإثم والجرم إنّما هو في التولي عن الجهاد الواجب، وكذا قال في سورة محمد

في التولي عن النفقة الواجبة في سبيل الله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا ﴾ وليس بمجرد ترك الصدقة المستحبة أو الجهاد المستحب.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٨٠)، فقال: ﴿ تَصَدَّقُوا ﴾ بحذف إحدى التاءين ولم يقل: «تتصدقوا» للدلالة على أنّ أيّ تصدق ـ ولو قلّ ـ فإنّ فيه الخير.

وقريبٌ منه قوله تعالى مخبراً عمّا قاله إخوة يوسف: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ (يوسف: ٦٥)، فقال: ﴿ نَبْغِي ﴾ بينما قال مخبراً عمّا قاله موسى لفتاه: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ (الكهف: ٦٤)، فقال: ﴿ نَبْغِ ﴾ بحذف الياء، وسرّ ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ فقدان فتى موسى للحوت جُعل علامةً على وجود الخضر في المكان الذي يُفقد فيه الحوت، فناسب أن يقول: ﴿ نَبْغِ ﴾ بحذف الياء للدلالة على أنّ هذه البغية إنما هي دليلٌ لهم من أجل المطلوب الأساسي وهو لقيا الخضر عليه السلام وليس فقدان الحوت هو البغية الأساسية، وأمّا آية يوسف، فقولهم: ﴿ مَا نَبْغِي ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه «ما نتزيد في قولنا لك ما لم يقع» ويحتمل أن يكون المراد منه «أي شيء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا من الإحسان ما صنع»، فعلى الاحتمال الأول يكون وجه زيادة الياء هو الدلالة على أنهّم يعلمون أنّ الكذب على أخيهم بغيٌ عظيم، فقالوا لأبيهم ما فعلنا هذا البغي العظيم، وزيادة الياء تدل على ذلك، وعلى الاحتمال الثاني يكون وجه زيادة الياء هو الدلالة على أنّه أكرمهم غاية الكرم بحيث لو طلبوا الزيادة على ما فعل لكان طمعاً زائداً، فزيادة الياء تدل على ذلك، والله أعلم.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠).

قال **ابن عاشور**: والإتيان بالمضارع في موضع الماضي الذي هو الغالب مع ﴿ وَإِذْ ﴾ استحضار للحالة التي دبروا فيها المكر كما في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي

أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ ومعنى ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ ليحبسوك. يقال: أثبته إذا حبسه ومنعه من الحركة وأوثقه، والتعبير بالمضارع في ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ و﴿يَقۡتُلُوكَ﴾ و﴿يُخۡرِجُوكَ﴾ لأن تلك الأفعال مستقبلة بالنسبة لفعل المكر إذ غاية مكرهم تحصيل واحد من هذه الأفعال.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٣).

قال في **الدر المنثور**: وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن قتادة رضي الله عنه قال: إنّ القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، أما دائكم فذنوبكم، وأما دوائكم فالاستغفار.

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن كعب رضي الله عنه قال: إنّ العبد ليذنب الذنب الصغير فيحتقره ولا يندم عليه ولا يستغفر منه، فيعظم عند الله حتى يكون مثل الطود، ويذنب الذنب فيندم عليه ويستغفر منه فيصغر عند الله عز وجل حتى يعفو له.

وأخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة**».

وأخرج أبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان فيكم أمانان مضى أحدهما وبقي الآخر.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردوية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله تعالى إليه، وأمان بقي فيكم قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبراني وابن مردوية والحاكم وابن عساكر عن أبي موسى رضي الله عنه قال: أنه قد كان فيكم أمانان، مضى أحدهما وبقي الآخر ﴿وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فأما رسول الله ﷺ فقد مضى لسبيله، وأما الاستغفار فهو كائن إلى يوم القيامة.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان في هذه الأمة أمانان: رسول الله ﷺ ، والاستغفار، فذهب أمان ـ يعني رسول الله ﷺ ـ وبقي أمان، يعني الاستغفار. وأخرج أحمد عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله**».

وأخرج أحمد والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إنّ الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. قال الرب: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**».

وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من أكثر من الاستغفار، جعل الله له من كل همٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب**».

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ : «**طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً**».

وأخرج الحكيم الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن استطعتم أن تكثروا من الاستغفار فافعلوا، فانه ليس شيء أنجح عند الله ولا أحب إليه منه**».

وأخرج أحمد في الزهد عن مغيث بن أسماء رضي الله عنه قال: كان رجل ممن كان قبلكم يعمل بالمعاصي، فبينما هو ذات يوم يسير إذ تفكر فيما سلف منه فقال: اللهم غفرانك. فأدركه الموت على تلك الحال فغفر له.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: طوبى لمن وجد في صحيفته بنداً من الاستغفار. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

قال: من قال: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه خمس مرات، غفر له وإن كان عليه مثل زبد البحر.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ (الأنفال : ٤٢).

قال **ابن عاشور**: و﴿ٱلدُّنْيَا﴾ هي القريبة أي العدوة التي من جهة المدينة فهي أقرب لجيش المسلمين من العدوة التي من جهة مكة و﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ هي التي مما يلي مكة وهي كثيب وهي قصوى بالنسبة لموقع بلد المسلمين والوصف بالدنيا والقصوى يشعر المخاطبون بفائدته. وهي أن المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدوة القصوى لأنه أصلب أرضاً، فليس للوصف بالدنو والقصو أثر في تفضيل إحدى العدوتين على الأخرى ولكنه صادف أن كانت القصوى أسعد بنزول الجيش، فلما سبق جيش المشركين إليها اغتمّ المسلمون. فلما نزل المسلمون بالعدوة الدنيا أرسل الله المطر وكان الوادي دهساً فلبد المطر الأرض ولم يعقهم عن المسير وأصاب الأرض التي بها قريش فعطلهم عن الرحيل فلم يبلغوا بدراً إلا بعد أن وصل المسلمون وتخيروا أحسن موقع وسبقوا إلى الماء فاتخذوا حوضاً يكفيهم وغوروا الماء فلما وصل المشركون إلى الماء وجدوه قد احتازه المسلمون فكان المسلمون يشربون ولا يجد المشركون ماء.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ (الأنفال : ٤٣).

قال **ابن عاشور**: وكان النبي ﷺ قد رأى رؤيا منام جيش المشركين قليلاً أي قليل العدد وأخبر برؤياه المسلمين فتشجعوا للقاء المشركين وحملوها على ظاهرها وزال عنهم ما كان يخامرهم من تهيب جيش المشركين فكانت تلك الرؤيا من أسباب النصر. وكانت تلك الرؤيا منة من الله على رسوله والمؤمنين. وكانت قلة العدد في الرؤيا رمزاً وكناية عن وهن أمر المشركين لا عن قلة عددهم، ولذلك جعلها الله في رؤيا النوم دون

الوحي لأن صور المرائي المنامية تكون رموزاً لمعان فلا تعد صورتها الظاهرية خلفاً بخلاف الوحي بالكلام. وقد حكاها النبي ﷺ للمسلمين فأخذوها على ظاهرها لعلمهم أن رؤيا النبي وحي. وقد يكون النبي قد أطلعه الله على تعبيرها الصائب وقد يكون صرفه عن ذلك فظن كالمسلمين ظاهرها؛ وكل ذلك بالحكمة فرؤيا النبي ﷺ لم تخطئ ولكنها أوهمتهم قلة العدد لأن ذلك مرغوبهم والمقصود منه حاصل وهو تحقق النصر. ولو أخبروا بعدد المشركين كما هو لجبنوا عن اللقاء فضعفت أسباب النصر الظاهرة المعتادة التي تكسبهم حسن الأحدوثة. ورؤيا النبي لا تخطئ ولكنها قد تكون جارية على الصورة الحاصلة في الخارج كما ورد في حديث عائشة في بدء الوحي أنه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وهذا هو الغالب وخاصة قبل ابتداء نزول الملك بالوحي. وقد تكون رؤيا النبي ﷺ رمزية وكناية كما في حديث رؤياه بقرة تذبح ويقال له: والله خير فلم يعلم المراد حتى تبين له أنهم المؤمنون الذين قتلوا يوم أحد. فلما أراد الله خذل المشركين وهزمهم أرى نبيه المشركين قليلاً كناية بأحد أسباب الانهزام فإن الانهزام يجيء من قلة العدد. وقد يمسك النبي ﷺ عن بيان التعبير الصحيح لحكمة كما في حديث تعبير أبي بكر رؤيا الرجل الذي قص رؤياه على رسول الله ﷺ وقول النبي له: «**أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً**». وأبى أن يبين له ما أصاب منها وما أخطأ ولو أخبر الله رسوله ليخبر المؤمنين بأنهم غالبون المشركين لآمنوا بذلك إيماناً عقلياً لا يحصل منه ما يحصل من التصوير بالمحسوس. ولو لم يخبره ولم يُرِه تلك الرؤيا لكان المسلمون يحسبون المشركين حساباً كبيراً لأنهم معروفون عندهم بأنهم أقوى من المسلمين بكثير. وهذه الرؤيا قد مضت بالنسبة لزمن نزول الآية فالتعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالة الرؤيا العجيبة. والقليل هنا قليل العدد بقرينة قوله: ﴿ كَثِيرًا ﴾. أراه الله إياهم قليلي العدد وجعل ذلك في المكاشفة النومية كناية عن الوهن والضعف.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الأنفال: ٤٤).

قال **ابن عاشور:** أرى الله المسلمين أن المشركين قليلون وأرى المشركين أن المسلمين قليلون. خيل الله لكلا الفريقين قلة الفريق الآخر بإلقاء ذلك التخيل في نفوسهم وجعل الغاية من تلك الرؤيتين نصر المسلمين. وهذا من بديع صنع الله تعالى إذ جعل للشيء الواحد أثرين مختلفين وجعل للأثرين المختلفين أثراً متحداً. فكان تخيل المسلمين قلة المشركين مقوياً لقلوبهم وزائداً لشجاعتهم ومزيلاً للرعب عنهم فعظم بذلك بأسهم عند اللقاء لأنهم ما كان ليفل من بأسهم إلا شعورهم بأنهم أضعف من أعدائهم عَدداً وعُدداً، فلما أزيل ذلك عنهم بتخييلهم قلة عددهم خلصت أسباب شدتهم مما يوهنها. وكان تخيل المشركين قلة المسلمين أي كونهم أقل مما هم عليه في نفس الأمر برداً على غليان قلوبهم من الغيظ وغارّاً إياهم بأنهم سينالون التغلب عليهم بأدنى قتال فكان صارفاً إياهم عن التأهب لقتال المسلمين حتى فاجأهم جيش المسلمين فكانت الدائرة على المشركين. فنتج عن تخيل القلتين انتصار المسلمين. وإنما لم يكن تخيل المسلمين قلة المشركين مثبطاً عزيمتهم كما كان تخيل المشركين قلة المسلمين مثبطاً عزيمتهم لأن المسلمين كانت قلوبهم مفعمة حنقاً على المشركين وإيماناً بفساد شركهم وامتثالاً لأمر الله بقتالهم فما كان بينهم وبين صب بأسهم على المشركين إلا صرف ما يثبط عزائمهم. فأما المشركون فكانوا مزهدين بعدائهم وعنادِهم وكانوا لا يرون المسلمين على شيء فهم يحسبون أن أدنى جولة تجول بينهم يقبضون فيها على المسلمين قبضاً فلذلك لا يعبؤون بالتأهب لهم فكان تخييل ما يزيدهم تهاوناً بالمسلمين يزيد تواكلهم وإهمال إجماع أمرهم. وخولف الأسلوب في حكاية إراءة المشركين وحكاية إراءة المسلمين لأن المشركين كانوا عدداً كثيراً فناسب أن يحكي تقليلهم بإراءتهم قليلاً المؤذنة بأنهم ليسوا بالقليل وأما المسلمون فكانوا عدداً قليلاً بالنسبة لعدوهم فكان المناسب لتقليلهم أن يعبر عنه بأنه كان تقليلاً ليؤذن بأنه زيادة في قلتهم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال : ٥٢)، فقال هنا: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ بينما قال في آل عمران: ﴿ **وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ ، قال ابن عاشور مبيناً وجه هذا الاختلاف: وأما الاختلاف بذكر حرف التأكيد هنا دونه في سورة آل عمران فلأنه قصد هنا التعريض بالمشركين وكانوا ينكرون قوة الله عليهم بمعنى لازمها: وهو إنزال الضر بهم وينكرون أنه شديد العقاب لهم فأكد الخبر باعتبار لازمه التعريضي الذي هو إبلاغ هذا الإنذار إلى من بقي من المشركين. وفي سورة آل عمران لم يقصد إلا الإخبار عن كون الله شديد العقاب إذا عاقب فهو تذكير للمسلمين وهم المقصود بالإخبار بقرينة قوله عقبه: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ** ﴾ وزيد وصف ﴿ **قَوِىٌّ** ﴾ هنا مبالغةً في تهديد المشركين المقصودين بالإنذار والتهديد.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾ (الأنفال : ٦١).

قال **ابن عاشور**: فمعنى ﴿ **وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ** ﴾ : إن مالوا إلى السلم ميل القاصد إليه كما يميل الطائر الجانح وإنما لم يقل: «وإن طلبوا السلم فأجبهم إليها» للتنبيه على أنه لا يسعفهم إلى السلم حتى يعلم أن حالهم حال الراغب لأنهم قد يظهرون الميل إلى السلم كيداً. فهذا مقابل قوله: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ** ﴾ فإنّ نبذ العهد نبذ لحال السلم. واللام في قوله: ﴿ **لِلسَّلْمِ** ﴾ واقعة موقع «إلى» لتقوية التنبيه على أن ميلهم إلى السلم ميل حق أي وإن مالوا لأجل السلم ورغبة فيه لا لغرض آخر غيره لأن حق «جنح» أن يعدى «بإلى» لأنه بمعنى مال الذي يعدى بإلى فلا تكون تعديته باللام إلا لغرض وفي الكشاف أنه يقال جنح له وإليه. اهـ.

قلتُ: وقد يقال كذلك أنّ المراد: «وإن خضعوا وذلوا لكم ومالوا إلى السلم فأجيبوهم» ليكون دلالةً على أنّ إجابتهم للسلم إنما تكون في حال ذلتهم وخضوعهم وأمّا في حال اعتداءهم على مقدسات الإسلام والمسلمين وانتهاكهم للحرمات فلا بد من كسر شوكتهم.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٥، ٦٦).

قال **ابن عاشور**: وعبر عن وجوب ثبات العدد من المسلمين لمثليه من المشركين بلفظي عددين معينين ومثليهما ليجيء الناسخ على وفق المنسوخ فقوبل ثبات العشرين للمائتين بنسخه إلى ثبات مائة واحدة للمائتين فأبقى مقدار عدد المشركين كما كان عليه في الآية المنسوخة إيماءً إلى أن موجب التخفيف كثرة المسلمين لا قلة المشركين. وقوبل ثبات عدد مائة من المسلمين لألف من المشركين بثبات ألف من المسلمين لألفين من المشركين إيماء إلى أن المسلمين الذين كان جيشهم لا يتجاوز مرتبة المئات صار جيشهم يعد بالآلاف وأعيد وصف مائة المسلمين بـ ﴿ صَابِرَةٌ ﴾ لأن المقام يقتضي التنويه بالاتصاف بالثبات ولم توصف مائة الكفار بالكفر وبأنهم قوم لا يفقهون لأنه قد علم ولا مقتضى لإعادته.

قلتُ: وهذا كلامٌ نفيس، فلله دَرّ هذا الرجل!! لولا ميوله الأشعرية لكان إماماً إماماً!!

سُورَةُ التَّوْبَةِ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٣٨ - ٤١).

قال في (**الظلال**): ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ؟.. إنها ثقلة الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض.. ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع.. ثقلة الدعة والراحة والاستقرار.. ثقلة اللذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب.. ثقلة اللحم والدم والتراب.. والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه: ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾. وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل! ويلقيها بمعنى ألفاظه: ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ .. وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق. إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم؛ وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة؛ وتطلع إلى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود. ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾. وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة

للجهاد في سبيله، إلا وفي هذه العقيدة دَخَل، وفي إيمان صاحبها بها وهن. لذلك يقول الرسول ﷺ: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق**». فالنفاق ـ وهو دَخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال ـ هو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله، والرزق من عند الله. ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾. والخطاب لقوم معينين في موقف معين. ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله. والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا. عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين؛ وهم مع ذلك يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد؛ ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء. وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء. ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ .. يقومون على العقيدة، ويؤدون ثمن العزة، ويستعلون على أعداء الله. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾ .. ولا يقام لكم وزن، ولا تُقدَّمون أو تؤخرون في الحساب! ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ .. لا يعجزه أن يذهب بكم، ويستبدل قوماً غيركم، ويتركم عن التقدير والحساب! إن الاستعلاء على ثقلة الأرض وعلى ضعف النفس، إثبات للوجود الإنساني الكريم. فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة. وإن التثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنساني الكريم. فهو فناء في ميزان الله وفي حساب الروح المميزة للإنسان. ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه، على نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء. ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا

فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .. ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعاً، كما تضيق القوة الغاشمة دائماً بكلمة الحق، لا تملك لها دفعاً، ولا تطيق عليها صبراً، فائتمرت به، وقررت أن تتخلص منه؛ فأطلعه الله على ما ائتمرت، وأوحى إليه بالخروج، فخرج وحيداً إلا من صاحبه الصدّيق، لا جيش ولا عدة، وأعداؤه كثر، وقوتهم إلى قوته ظاهرة. والسياق يرسم مشهد الرسول ﷺ وصاحبه. ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾.. والقوم على إثرهما يتعقبون، والصديق رضي الله عنه يجزع ـ لا على نفسه ولكن على صاحبه ـ أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب، يقول له: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على قلبه، يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**». ثم ماذا كانت العاقبة، والقوة المادية كلها في جانب، والرسول ﷺ مع صاحبه منها مجرد؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس. وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار. ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ﴾ .. وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة. ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾ ..

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٤١).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ قال: نشاطاً وغير نشاط.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحكم في قوله: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ قال: مشاغيل وغير مشاغيل.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ قال: في العسر واليسر.

وأخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في قوله: ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ قال: فتياناً وكهولا. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ قال: شباباً وشيوخا.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه قال: قالوا: إنّ فينا الثقيل وذا الحاجة والصنعة والشغل والمنتشر به أمره في ذلك، فأنزل الله ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً وعلى ما كان منهم.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه قال: جاء رجل زعموا أنه المقداد وكان عظيماً سميناً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى، فنزلت يومئذ فيه ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها، فنسخها الله فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ (التوبة: ٩١) الآية.

وأخرج ابن جرير عن حضرمي قال: ذكر لنا أن أناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً أو كبيراً فيقول: إني لا آثم، فأنزل الله ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ الآية.

وأخرج ابن سعد وابن أبي عمر العدني في مسنده وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس بن مالك. أن أبا طلحة قرأ سورة براءة، فأتى على هذه الآية ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ قال: أرى ربنا يسنفرنا شيوخاً وشبانا. وفي لفظ فقال: ما أسمع الله عذر أحد أجهزوني. قال بنوه: يرحمك الله تعالى قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات، وغزوت مع أبي بكر رضي الله عنه حتى مات، وغزوت مع عمر رضي الله عنه حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير فدفنوه فيها.

وأخرج ابن سعد والحاكم عن ابن سيرين رضي الله عنه قال: شهد أبو أيوب رضي الله عنه بدراً ثم لم يتخلف عن غزوة للمسلمين إلا عاماً واحداً، وكان يقول: قال الله: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فلا أجدني إلا خفيفاً وثقيلاً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أبي راشد الحبراني قال: رأيت المقداد فارس رسول الله ﷺ بحمص يريد الغزو فقلت: لقد أعذر الله تعالى إليك. قال: أبت علينا سورة التحوب ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يعني سورة التوبة.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي يزيد المديني قال: كان أبو أيوب الأنصاري والمقداد بن الأسود يقولان: أمرنا أن ننفر على كل حال، ويتأوّلان قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. اهـ.

قلتُ: قد فهم كثيرٌ من السلف من هذه الآية عدم عذر أحد في ترك الجهاد.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ (التوبة: ٤٢ - ٤٨).

قال في (**الظلال**): لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك! ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة. ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة. ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة.

وإنه لنموذج مكرور في البشرية ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة.

﴿ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ ﴾ .. فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة. كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص. كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان، فما هي قلة عارضة، إنما هي النموذج المكرور. وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة، وإن خيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب، لكنّهم اجتنبوا أداء الثمن الغالي، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص! ﴿ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ ﴾ .. فهو الكذب المصاحب للضعف أبداً. وما يكذب إلا الضعفاء. أجل ما يكذب إلا ضعيف ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحايين. فالقوي يواجه والضعيف يداور. وما تتخلف هذه القاعدة في موقف من المواقف ولا في يوم من الأيام. ﴿ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ ﴾ .. بهذا الحلف وبهذا الكذب، الذي يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس، والله يعلم الحق، ويكشفه للناس، فيهلك الكاذب في الدنيا بكذبه، ويهلك في الآخرة يوم لا يجدي النكران. ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾.. ﴿ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ .. وهذه هي القاعدة التي لا تخطئ. فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء، لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد؛ ولا يتلكأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح؛ بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله، طاعة لأمره، ويقيناً بلقائه، وثقة بجزائه، وابتغاء لرضاه. وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم، فضلاً عن الإذن لهم. إنما يستأذنك أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون.

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق، أو الذي يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق! ولقد كان أولئك المتخلفون ذوي قدرة على الخروج، لديهم وسائله، وعندهم عدته. ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ .. وقد كان فيهم عبد الله بن أبي بن أبي سلول، وكان فيهم الجد بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم أثرياء. ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ .. لما يعلمه من طبيعتهم ونفاقهم، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين كما سيجيء. ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ .. ولم يبعث فيهم الهمة للخروج. ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ .. وتخلفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون الغزو، ولا ينبعثون للجهاد. فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية من اليقين. وكان ذلك خيراً للدعوة وخيراً للمسلمين. ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .. والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش، ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى. ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل. وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين. ولكن الله الذي يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين، كفى المؤمنين الفتنة، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .. وإن ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم، وسوء طويتهم، فلقد وقفوا في وجه الرسول ﷺ وبذلوا ما في طوقهم، حتى غُلبوا على أمرهم فاستسلموا وفي القلب ما فيه. ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ .. وكان ذلك عند مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة، قبل أن يظهره الله على أعدائه. ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله فحنوا لها رؤوسهم وهم كارهون، وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين.

فائدة : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة : ٤٤)، فقال: ﴿ أَن يُجَٰهِدُواْ ﴾

ولم يقل: «ألّا يجاهدوا» مع أنّ الآية واردة في معرض ذم من يستأذن رسول الله في التخلف عن الجهاد بأعذارٍ واهية، وبيان أنّ المؤمنين ليسوا كذلك، ولعلّ فائدة قوله: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ دون قوله: «ألّا يجاهدوا» هو بيان شدة حرص المؤمنين على الجهاد حتى أنّهم يكادون يقدمون على الجهاد دون استئذان ـ لشدة حرصهم عليهم ـ ولولا عدم جواز الافتئات على الإمام في ذلك ـ في أحيان كثيرة ـ لأقدموا على الجهاد دون استئذان. أو يكون حذف اللام للدلالة على أنّ الإقدام على الجهاد دأبهم وشأنهم، فكأنه قال: «لا يستأذونك في التخلف عن الجهاد بل شأنهم ودأبهم أن يبادروا إليه ويقدموا عليه»، ولو قال: «لا يستأذنك ألّا يجاهدوا» لربما تُوهِّم أنّ اللوم لأنّهم لا يستأذنون بل يتخلفون دون استئذان.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة: ٤٥).

قال **ابن عاشور**: وجيء في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تجدد نفي إيمانهم وفي ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بصيغة الماضي للدلالة على قدم ذلك الارتياب ورسوخه فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم. ولما كان الارتياب ملازماً لانتفاء الإيمان كان في الكلام شبه الاحتباك إذ يصير بمنزلة أن يقال: الذين لم يؤمنوا ولا يؤمنون وارتابت وترتاب قلوبهم.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ (التوبة: ٤٦)، فقال: ﴿ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ بينما قال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١)، فقال: ﴿وَقُعُودًا﴾، قال د. فاضل: الجمع يؤتى به على وزن مصدر فعله للدلالة على المعنى الحقيقي للفعل، كالحضور، فقال: ﴿وَقُعُودًا﴾ للدلالة على القعود الحقيقي، ومثله قوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ (البروج: ٥، ٦)، وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

جُنُوبِكُمْ ﴾ (النساء: ١٠٣)، فقال فيهما: ﴿ وَقُعُودًا ﴾ في القعود الحقيقي بينما قال: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ (المائدة: ٢٤)، أي ماكثون مقيمون، وقال: ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ (التوبة: ٨٦)، وقال: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٩٥)، وهو القعود عن الجهاد.

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (الزمر: ٦٨)، وقوله: ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا ﴾، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ (الفرقان: ٦٤)، فقال: ﴿ قِيَـٰمًا ﴾ لإرادة القيام الحقيقي بينما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ (المعارج: ٣٣)، فقال: ﴿ قَآئِمُونَ ﴾ لإرادة القيام بالأمر وليس القيام الحقيقي، وقال: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الحج: ٢٦)، فالقائمون هنا بمعنى العاكفين بدلالة قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (البقرة: ١٢٥) اهـ.

قلتُ: في جعل معنى قوله: ﴿ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ العاكفين كما قال نظر، ولكن قد يقال: إنما قال ﴿ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ في المصلين بالحرم وكذا قال: ﴿ ٱلسُّجُودِ ﴾ دون «السجد» للدلالة على أنّ القيام الظاهر في الحرم وكذا السجود هنالك من شأنهما أن يورثا العبد القيام بالشرع والسجود والخشوع الباطن، وهذا من لطائف القرآن !!

✿ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٤٧).

قال **ابن عاشور**: وجيء بحرف «في» من قوله: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ الدال على الظرفية دون حرف «من» فلم يقل: «ومنكم سماعون لهم» أو «ومنهم سماعون» لئلا يتوهم تخصيص السماعين بجماعة من أحد الفريقين دون الآخر لأن المقصود أن السماعين لهم فريقان فريق من المؤمنين وفريق من المنافقين أنفسهم مبثوثون بين المؤمنين

لإلقاء الأراجيف والفتنة وهم الأكثر فكان اجتلاب حرف «في» إيفاء بحق هذا الإيجاز البديع ولأن ذلك هو الملائم لمحملي لفظ ﴿ سَمَّٰعُونَ ﴾ فقد حصلت به فائدتان.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ . (التوبة: ٥٢)

فبدءوا بتربصهم وانتظارهم عذاب الله لأنه أشدّ وأعظم من وقع سيوف المؤمنين كما أنّ استشهادهم ـ في الأغلب ـ يقتضي تأخر عذاب الكفار عن الدنيا، والمؤمن يرغب في الشهادة أعظم الرغبة وينتظرها، فبدءوا بذكر عذاب الله لذلك أيضاً، والله أعلم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ (التوبة: ٥٨، ٥٩)، فقال: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾، ولم يقل: «حسبنا ربنا .... سيؤتينا ربنا ... إلى ربنا راغبون» مع أنهّم طمعوا في رزقٍ دنيوي، فأرشدهم أنّ الإيمان أن يكونوا في طلبهم الرزق من ربهم مكتفين بالله مشرعاً حاكماً ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ طامعين في رزق ربهم الدنيوي وكذا رزق الهداية والصلاح ﴿ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ﴾ راغبين في زيادة الإيمان ومعاني الإحسان ﴿إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ وليس فقط رغبتهم في الرزق الدنيوي.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (التوبة: ٧٠).

قال **ابن عاشور**: وأثبت ظلمهم أنفسهم لهم بأبلغ وجه إذ أسند إليهم بصيغة الكون الماضي الدال على تمكن الظلم منهم منذ زمان مضى. وصيغ الظلم الكائن في ذلك الزمان بصيغة المضارع للدلالة على التجدد والتكرر أي على تكرير ظلمهم أنفسهم في الأزمنة الماضية. أ. هـ.

قلتُ: ومثله قوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ (التوبة: ٧٧)، فقوله: ﴿ كَانُواْ ﴾ يدل على تمكن الكذب منهم وتأكد كونه فيهم، وقوله: ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾ يدل على تكرره وتجدده.

فائدة: قال **د. فاضل**: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (التوبة: ٧٠، ٧١).

فقال: ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ وهو الموطن الوحيد الذي جاء فيه نحو هذا التعبير في القرآن في حين قال في المواطن الأخرى كلها: ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ (الأعراف: ١٠١) ولو نظرت في هذه التعبيرات ودققت فيها لوجدت أن كل التعبيرات التي جاءت بالفعل «جاء» أشق وأصعب مما جاء بـ «أتى» فمثلاً قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٠١ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ۝١٠٢ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ١٠١ - ١٠٣).

فانظر كيف قال في آية التوبة: ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ولم يذكر أنهم كفروا وعوقبوا في حين قال في آيات الأعراف: ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ فذكر عدم إيمانهم وأنهم طبع على قلوبهم ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ وذكر أنه وجد أكثرهم فاسقين وأنه لم يجد لأكثرهم عهداً وذكر بعد ذلك ظلم فرعون وقومه لموسى وتكذيبهم بآيات الله وعاقبتهم.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ (التوبة: ٧٥ - ٧٧)، فقال: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ ليدل على أنّ ذلك عقوبة ما صنعوا، وليدل كذلك على أنّ هذا الجزاء أعقب فعلهم ولم يتأخر كثير وقتٍ عنه.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (التوبة: ٨١ - ٨٥).

قال في (**الظلال**): هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض. ثقلة الحرص على الراحة، والشح بالنفقة. وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة، وخواء القلب من الإيمان.. هؤلاء المخلفون ـ والتعبير يلقي ظل الإهمال كما لو كانوا متاعاً يخلف أو هملاً يترك ـ فرحوا بالسلامة والراحة ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال! ﴿ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ .. ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال. إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، وطروادة الإرادة؛ وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز. وهم يتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات. ولكن

هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال. والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ . فإن كانوا يشفقون من حر الأرض، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال. فكيف بهم في حر جهنم وهي أشد حراً، وأطول أمداً؟ وإنها لسخرية مريرة، ولكنها كذلك حقيقة. فإما كفاح في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض، وإما انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله. ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ .. ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ .. إن الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق. والصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب. فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة، ثم يعودون إليه في ساعة الرخاء، جناية على الصف كله، وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير.. ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ .. لماذا؟. ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ .. ففقدتم حقكم في شرف الخروج، وشرف الانتظام في الكتيبة، والجهاد عبء لا ينهض به إلا من هم له أهل. فلا سماحة في هذا ولا مجاملة. ﴿ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ .. المتجانسين معكم في التخلف والقعود. هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى لنبيه الكريم، وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبداً. فليعرف أصحابها في كل زمان وفي كل مكان ذلك الطريق.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ (التوبة : ٩١)،

فقال: ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ دون «الضعاف»، وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ الضعفاء أدلّ على الضعف المعنوي أكثر ـ كما قال د. **فاضل** ـ فيكون في الآية الدليل على أنّ المستضعف معنوياً معذورٌ في تركه للجهاد، إذا كان استضعافاً معتبراً شرعاً، وإذا كان المستضعف المغلوب على أمره ـ ولو كان قويّ البنية ـ معذوراً، فالضعيف غير القادر على الجهاد أولى بالعذر، فكان قوله: ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ دالاً على الصنفين، ولو قال: «الضعاف» لدلّ على ضعاف القوة والبنية فقط.

وقد يقال ـ وهذا ما ظهر لي ـ أنّ كلمة «ضعفاء» بضم الضاد، والضمة أثقل الحركات، وأما كلمة «ضعاف» بكسر الضاد، وهي حركة خفيفة، وفي ذلك دقة بالغة لأنّ كلمة «ضُعفاء» تدل على قوة ضعفهم وشدتهم، فناسب أن يقول: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ للدلالة على أنّ المرء لا ينبغي له أن يتهاون في أمر الجهاد متعللاً بأنه ضعيف، فالعذر لمن هو من الضعفاء. ولذا أيضاً قال سبحانه: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ (إبراهيم: ٢١)، وقال أيضاً: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ (غافر: ٤٧)، فقال: ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ للدلالة على عدم عذرهم رغم شدة ضعفهم واستضعافهم، فكيف بالضعاف فقط؟!! ولذا أيضاً قال: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡ﴾ (البقرة: ٢٦٦)، فقال: ﴿ضُعَفَآءُ﴾ للدلالة على عظيم ضعف هذه الذرية، ومع ذلك لا يكسب لهم، فهكذا مثل ضياع عمل المانّ والمعجب والمرائي كمثل ضياع هذه الذرية الضعفاء، وأمّا قوله: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩)، فقال: ﴿ضِعَٰفًا﴾ بكسر الضاد لأنّ الولي يخاف على ذريته إن كان بهم ضعف يسير ويؤرقه التفكير في أمرهم فضلاً عن أن يكون ضعفاء شديدي الضعف.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (التوبة: ١١١، ١١٢).

قال في (**الظلال**): هذا النص الذي تلوته من قبل وسمعته ما لا أستطيع عدداً من المرات، في أثناء حفظي للقرآن، وفي أثناء تلاوته، وفي أثناء دراسته بعد ذلك في أكثر من ربع قرن من الزمان.. هذا النص ـ حين واجهته في «الظلال» أحسست أنني أدرك منه ما لم أدركه من قبل في المرات التي لا أملك عدها على مدى ذلك الزمان!

إنه نص رهيب ! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله؛ وعن حقيقة البيعة التي أعطوها ـ بإسلامهم ـ طوال الحياة. فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف «المؤمن» وتتمثل فيه حقيقة الإيمان. وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق !

حقيقة هذه البيعة ـ أو هذه المبايعة كما سماها الله كرماً منه وفضلاً وسماحة ـ أن الله سبحانه قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم؛ فلم يعد لهم منها شيء.. لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله. لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا.. كلا.. إنها صفقة مشتراة، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير، ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.. والثمن: هو الجنّة.. والطريق: هو الجهاد والقتل والقتال.. والنهاية: هي النصر أو الاستشهاد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ ..

من بايع على هذا. من أمضى عقد الصفقة. من ارتضى الثمن ووفى. فهو المؤمن.. فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا.. ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال. ولكنه كَرَّم هذا الإنسان فجعله مريداً؛ وكَرَّمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها ـ حتى مع الله ـ وكَرَّمه فقيده بعقوده وعهوده؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسة إلى عالم البهيمة: .. شر البهيمة ... ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ .. كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة ـ بلا شك ـ ولكنها في عنق كل مؤمن ـ قادر عليها ـ لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه. ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ ..

عونك اللهم ! فإن العقد رهيب.. والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، قاعدون، لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد. ولا يقتلون. ولا يقتلون. ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال !

لقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين ـ على عهد رسول الله ﷺ ـ فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم؛ ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم. كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها.

لتحويلها إلى حركة منظورة، لا إلى صورة متأملة.. هكذا أدركها عبد الله بن رواحة ﵁ في بيعة العقبة الثانية. قال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة ﵁ لرسول الله ﷺ ـ (يعني ليلة العقبة) ـ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً؛ وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**». قال: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: «**الجنة**». قالوا: ربح البيع، ولا نقيل ولا نستقيل.

هكذا.. «ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل».. لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين؛ انتهى أمرها، وأُمضيَ عقدها، ولم يعد إلى مرد من سبيل: «**لا نقيل ولا نستقيل**» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار؛ والجنة: ثمن مقبوض لا موعود ! أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن. وعداً قديماً في كل كتبه. ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ .. ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ ؟. أجل ! ومن أوفى بعهده من الله؟ إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.. كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله.. إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياو بتركها: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ .. ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ ..

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه. ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق ! .. بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق.. إن دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده. ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق.. بل لا بد أن يقطع عليه الطريق.. ولا بد لدين الله أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله. ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع الباطل طريقاً ! .. وما دام في «الأرض» كفر. وما دام في «الأرض» باطل. وما دامت في «الأرض» عبودية لغير الله

تذل كرامة «الإنسان»، فالجهاد في سبيل الله ماض، والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء. وإلا فليس بالإيمان: و«**من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق**».. (رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي).

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه أن رجلاً كان يرفع صوته بالذكر فقال رجل: لو أن هذا خفض صوته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دعه فإنّه أوّاه**».

قلتُ: هذا حيث شرع الرفع كتكبير العيدين وإلّا فالأصل خفض الصوت بالذكر.

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له ذو البجادين: «**إنّه أوّاه**»، وذلك أنه كان يكثر ذكر الله بالقرآن والدعاء.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم أدخل ميتاً القبر، وقال: «**رحمك الله إنْ كنت لأواهاً تلاءً للقرآن**».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن شداد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الأوّاه: الخاشع المتضرع**».

وأخرح ابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال: الأوّاه الدّعّاء.

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: الأوّاه الدّعّاء المستكين إلى الله كهيئة المريض المتأوّه من مرضه.

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ أنّ عبد الله بن مسعود سئل عن الأوّاه فقال: هو الرحيم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال: الأوّاه المؤمن التوّاب.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الأوّاه الحليم المؤمن المطيع.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أيوب قال: الأوّاه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها.

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: الأوّاه المؤمن بالحبشية.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: الأوّاه الموقن.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ من طريق أبي ظيبان عن ابن عباس قال: الأوّاه الموقن بلسان الحبشية. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: الأوّاه الموقن بلسان الحبشة.

وأخرج ابن جرير عن عطاء والضحاك قالا: الأوّاه الموقن بلسان الحبشية.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من وجه آخر عن مجاهد قال: الأوّاه الفقيه المؤمن.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: الأوّاه الشيخ.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي ميسرة قال: الأوّاه الشيخ.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عمرو بن شرحبيل قال: الأوّاه الرحيم بلسان الحبشة. وأخرج ابن المنذر عن عمرو بن شرحبيل قال: الأوّاه الدعاء بلسان الحبشة.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: الأوّاه المسبِّح.

وأخرج البخاري في تاريخه عن الحسن قال: الأوّاه الذي قلبه معلق عند الله.

وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم قال: كان إبراهيم يُسمَّى الأوّاه لرقته ورحمته.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قال: الحليم الرحيم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قال: كان من حلمه أنّه كان إذا آذاه الرجل من قومه قال له: هداك الله.

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: الأوّاه المؤمن. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: الأوّاه المنيب الفقير. وأخرج ابن جرير عن عقبة بن عامر قال: الأوّاه الكثير ذكر الله.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (التوبة: ١١٩).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج البيهقي في الشعب عن عمر بن الخطاب قال: لا تجد المؤمن كذاباً.

وأخرج البيهقي عن عمر بن الخطاب قال: «لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا إلى صيامه، ولكن انظروا إلى من إذا حدث صدق، وإذا ائتمن أدى، وإذا أشفى ورع».

وأخرج البيهقي عن أنس قال: إنّ الرجل ليحرم قيام الليل وصيام النهار بالكذبة يكذبها. وأخرج البيهقي عن مطر الوراق قال: خصلتان إذا كانتا في عبد كان سائر عمله تبعاً لهما، حسن الصلاة وصدق الحديث. وأخرج البيهقي عن الفضيل قال: لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق، وطلب الحلال.

وأخرج البيهقي عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: إبرار الدنيا الكذب وقلة الحياء، من طلب الدنيا بغيرهما فقد أخطأ الطريق والمطلب، وإبرار الآخرة، الحياء والصدق، فمن طلب الآخرة بغيرهما فقد أخطأ الطريق والمطلب.

وأخرج البيهقي عن يوسف بن أسباط قال: يرزق المرء بالصدق ثلاث خصال، الحلاوة والملاحة والمهابة.

وأخرج البيهقي عن أبي روح حاتم بن يوسف قال: أتيت باب الفضيل بن عياض فسلمت عليه فقلت: يا أبا علي معي خمسة أحاديث إن رأيت أن تأذن لي فأقرأ عليك. فقال لي: اقرأ. فقرأت فإذا هي ستة فقال لي: أن قم يا بني!! تعلّم الصدق ثم اكتب الحديث.

وأخرج ابن عدي عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب**».

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٠، ١٢١)

قال في (**الظلال**): ﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ﴾ . في التعبير تأنيب خفي، فما يؤنب أحد يصاحب رسول الله ﷺ بأوجع من أن يقال عنه: إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله، وهو معه، وهو صاحبه، وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة في كل جيل، فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله في سبيل هذه الدعوة؛ وهو يزعم أنه صاحب دعوة، وأنه يتأسى فيها برسول الله ﷺ. إنه الواجب الذي يوجبه الحياء من رسول الله ـ فضلاً عن الأمر الصادر من الله ـ ومع هذا فالجزاء عليه ما أشفاه! ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ . إنه على الظمأ جزاء، وعلى النصب جزاء وعلى الجوع جزاء. وعلى كل موطئ قدم يغيظ الكفار جزاء. وعلى كل نيل من العدو جزاء يكتب به للمجاهد عمل صالح ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجراً. وأنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر وعلى الخطوات تقطع في الوادي أجر. أجر كأحسن ما يعمل المجاهد في الحياة. ألا والله، إن الله ليجزل لنا العطاء وإنها والله لسماحة في الأجر والسخاء وإنه لمـّا يُخجِل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول الله ﷺ من الشدة واللأواء في سبيل هذه الدعوة التي نحن فيها خلفاء وعليها بعده أمناء.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

قال **ابن عاشور**: ﴿ عَنِتُّمْ ﴾ تعبتم والعنت التعب أي شاق عليه حزنكم وشقاؤكم. وهذا كقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وذكر هذا في صفة الرسول ﷺ يفيد أن هذا خلق له فيكون أثر ظهوره الرفق بالأمة والحذر مما يُلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة. والعدول عن الإتيان بلفظ العنت الذي هو المصدر الصريح إلى الإتيان بالفعل مع ﴿ مَا ﴾ المصدرية السابكة للمصدر نكتة، وهي إفادة أنه قد عز عليه عنتهم الحاصل في الزمن الذي مضى، وذلك بما لقوه من قتل قومهم ومن الأسر في الغزوات ومن قوارع الوعيد والتهديد في القرآن فلو أتى بالمصدر لم يكن مشيراً إلى عنت معين ولا إلى عنت وقع لأن المصدر لا زمان له بل كان محتملاً أن يعز عليه بأن يجنبهم إياه ولكن مجيء المصدر منسبكاً من الفعل الماضي يجعله مصدراً مقيداً بالحصول في الماضي ألا ترى أنك تقدره هكذا: عزيز عليه عنتكم الحاصل في ما مضى لتكون هذه الآية تنبيهاً على أن ما لقوه من الشدة إنما هو لاستصلاح حالهم لعلهم يخفضون بعدها من غلواتهم ويرعوون عن غيهم ويشعرون بصلاح أمرهم. اهـ.

قلتُ: ويفيد كذلك أنّ ما وقع لهم منه من قتالٍ وغيره لم يكن ليقدم عليه لولا كفرهم وغيهم. وإذا عزّ عليه عنتهم الماضي فعزيزٌ عليه أيضاً أيّ عنتٍ في المستقبل.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (التوبة: ١٢٩).

قال **ابن عاشور**: انتقل الكلام من خطاب العرب إلى خطاب النبي ﷺ بما كان مقتضى الظاهر أن يخاطبوا هم به اعتماداً على قرينة حرف التفريع فقيل له: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ والتقدير فإن توليتم عنه فحسبه الله وقل حسبي الله فجيء بهذا النظم البديع للإيجاز مع ما فيه من براعة الإيماء إلى عدم تأهلهم لخطاب الله على تقدير حالة توليهم. والتولي: الإعراض والإدبار وهو مستعار هنا للمكابرة والعناد.

سُورَةُ يُونُسَ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ (يونس: ٢).

قال **ابن عاشور**: الهمزة للاستفهام المستعمل في الإنكار أي كيف يتعجبون من ذلك تعجب إحالة وفائدة إدخال الاستفهام الإنكاري على «كان» دون أن يقال: أعجب الناس، هي الدلالة على التعجيب من تعجبهم المراد به إحالة الوحي إلى بشر. والمعنى أحدث وتقرر فيهم التعجب من وحينا؛ لأن فعل الكون يشعر بالاستقرار والتمكن فإذا عبر به أشعر بأن هذا غير متوقع حصوله و﴿ لِلنَّاسِ ﴾ متعلق بـ «كان» لزيادة الدلالة على استقرار هذا التعجب فيهم لأن أصل اللام أن تفيد الملك ويستعار ذلك للتمكن أي لتمكن الكون عجباً من نفوسهم.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦)، وفيها بيان أنّ تلاوة النبي ﷺ للقرآن نعمة، وكذا كون الله أدرانا به نعمة، فيا عجباً لهؤلاء الذين لا يعقلون كيف كفروا بالقرآن !! والله إنّ الواحد منّا ليترك الإكثار من قراءة القرآن أحياناً، فيضيق عليه قلبه، وتتنكر له الأرضَ فما هي بالتي كان يعرف !! ولا تهدأ نفسه ويرتاح قلبه حتى يعاود الزاد من كتاب الله، فكيف بمن هجره كليةً وهو مسلم !! بل كيف بمن كفر بالله ورسوله !! نعوذ بالله ثمّ نعوذ بالله أن يُحال بيننا وبين كتاب الله !! ونسأله عزّ وجلّ أن يرزقنا ـ بفضله وإحسانه ـ شرف الاشتغال بكتابه تلاوةً ودراسةً وحفظاً وفهماً !!

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس: ٢٤).

قال **ابن عاشور**: وقوله: ﴿ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ ﴾ وصف لنبات الأرض الذي منه أصناف يأكلها الناس من الخضروات والبقول وأصناف تأكلها الأنعام من العشب والكلأ وذلك يشبه به ما ينعم به الناس في الحياة من اللذات وما ينعم به الحيوان فإن له حظاً في نعيم الحياة بمقدار نطاق حياته. ولما كان ذلك قد تضمن المأكول والأكل صحّ أن تشبه به رغبات الناس في تناول لذائذ الحياة على حسب اختلاف مراتب الهمم وذلك يتضمن تشبيه معالي الأمور من نعم الدنيا التي تسمو إليها الهمم العوالي بالنبات الذي يقتاته الناس، وتشبيه سفاسف الأمور بالنبات الذي يأمله الأنعام ويتضمن تشبيه الذين يجنحون إلى تلك السفاسف بالأنعام كقوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ** ﴾.

وقوله: ﴿ لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا ﴾ ترديد في الوقت لإثارة التوقع من إمكان زوال نضارة الحياة في جميع الأزمنة لأن الشيء الموقت بمعين من التوقيت يكون الناس في أمن من حلوله في غير ذلك الوقت. والزخرف اسم الذهب وأطلق على ما يتزين به مما فيه ذهب وتلوين من الثياب والحلي. وإطلاق أخذ الأرض زخرفها على حصول الزينة فيها استعارة مكنية شبهت الأرض بالمرأة حين تريد التزين فتحضر فاخر ثيابها من حلي وألوان. والعرب يطلقون على ذلك التناول اسم الأخذ قال تعالى: ﴿ **يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ** ﴾ وقال بشار بن برد:

وخُـــــذي ملابـــــس زينـــــة ... ومُـــــصَبَّغات وهـــــي أفخـــــر

وذكر ﴿ وَٱزَّيَّنَتۡ ﴾ عقب ﴿ زُخۡرُفَهَا ﴾ ترشيح للاستعارة لأن المرأة تأخذ زخرفها للتزيين.

فائدة : قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ

عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ (يُونُس : ٢٤)، فقال: ﴿ حَصِيدًا ﴾ ولم يقل: «محصوداً»؛ قال د. فاضل: فعيل أبلغ من مفعول وأشد، فإنّ صيغة «مفعول» تدل على الشدة والضعف في الوصف بخلاف «فعيل» التي تدل على الشدة والمبالغة في الوصف، فالمجروح جرحاً صغيراً أو بالغاً يصح أن يُسمى مجروحاً، ولا يقال جريح إلّا إذا كان جرحه بالغاً، ومثله في المكسور والكسير.

قلتُ: فقوله هنا ﴿ حَصِيدًا ﴾ يدل على الشدة والمبالغة في الحصد.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ (يُونُس : ٧٤).

قال **ابن عاشور**: وصيغ النفي بصيغة لام الجحود مبالغة في انتفاء الإيمان عنهم بأقصى أحوال الانتفاء حتى كأنهم لم يوجدوا لأن يؤمنوا بما كذبوا به أي لم يتزحزحوا عنه. ودلت صيغة الجحود على أن الرسل حاولوا إيمانهم محاولة متكررة ودل قوله: ﴿ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أن هنالك تكذيباً بادروا به لرسلهم وأنهم لم يقلعوا عن تكذيبهم الذي قابلوا به الرسل لأن التكذيب إنما يكون لخبر مخبر فقوله: ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ مؤذن بحصول التكذيب فلما كذبوهم جاؤوهم بالبينات على صدقهم فاستمروا على التكذيب فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل. وهذا من إيجاز الحذف لجمل كثيرة وهذا يقتضي تكرر الدعوة وتكرر البينات وإلا لما كان لقوله: ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ وقع لأن التكذيب الذي حصل أول مرة إذا لم يطرأ عليه ما من شأنه أن يقلعه كان تكذيباً واحداً منسياً. وهذا من بلاغة معاني القرآن.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يُونُس : ٩٠)

قال **ابن عاشور**: وتركيب الجملة إيجاز لأنها قامت مقام خمس جمل؛ جملة تفيد أن فرعون حاول اللحاق ببني إسرائيل إلى أقصى أحوال الإمكان والطمع في اللحاق،

وجملة تفيد أنه لم يلحقهم وهاتان مستفادان من ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ وهاتان منة على بني إسرائيل، وجملة تفيد أنه غمره الماء فغرق وهذه مستفادة من قوله: ﴿ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾ وهي عقوبة له وكرامة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجملة تفيد أنه لم يسعه إلا الإيمان بالله لأنه قهرته أدلة الإيمان وهذه مستفادة من ربط جملة إيمانه بالظرف في قوله: ﴿ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾ وهذه منقبة للإيمان وأن الحق يغلب الباطل في النهاية، وجملة تفيد أنه ما آمن حتى أيس من النجاة لتصلبه في الكفر ومع ذلك غلبه الله وهذه موعظة للكافرين وعزة لله تعالى.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ (يُونُس : ١٠٥).

قال **ابن عاشور**: والإقامة جعل الشيء قائماً وهي هنا مستعارة لإفراد الوجه بالتوجه إلى شيء معين لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر واللام للعلة أي لأجل الدين فيصير المعنى: محِّض وجهك للدين لا تجعل لغير الدين شريكاً في توجهك. وهذه التمثيلية كناية عن توجيه نفسه بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمة وإصلاحها وقريب منه قوله: ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ في سورة آل عمران.

❁❁❁

سُورَةُ هُودٍ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هُودٍ: ٢٤).

قال **ابن عاشور**: وقد يظن الناظر أن المناسب ترك عطف صفة ﴿ وَٱلْأَصَمِّ ﴾ على صفة ﴿ كَٱلْأَعْمَىٰ ﴾ كما لم يعطف نظيراتها في قوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ في سورة البقرة ظناً بأن مورد الآيتين سواء في أن المراد تشبيه من جمعوا بين الصفتين وذلك أحد وجهين ذكرهما صاحب الكشاف. والوجه عندي في الداعي إلى عطف صفة ﴿ وَٱلْأَصَمِّ ﴾ على صفة ﴿ كَٱلْأَعْمَىٰ ﴾ أنه ملحوظ فيه أن لفريق الكفار حالين كل حال منهما جدير بتشبيهه بصفة من تينك الصفتين على حدة فهم يشبهون الأعمى في عدم الاهتداء إلى الدلائل التي طريق إدراكها البصر ويشبهون الأصم في عدم فهم المواعظ النافعة التي طريق فهمها السمع. فهم في حالتين كل حال منهما مشبه به ففي قوله تعالى: ﴿ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ ﴾ تشبيهان مفرقان كقول امريء القيس:

كـأنّ قلـوب الطـير رطبـا ويابـسا ... لدى وكرها العُنّاب والحشف البـالي

والذي في الآية تشبيه معقولين بمحسوسين واعتبار كل حال من حالي فريق الكفار لا محيد عنه لأن حصول أحد الحالين كافٍ في جر الضلال إليهم بله اجتماعهما إذ المشبه بهما أمر عدمي فهو في قوة المنفي. وأما الداعي إلى العطف في صفتي ﴿ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ بالنسبة لحال قريق المؤمنين فبخلاف ما قررنا في حال فريق الكافرين لأن حال المؤمنين تشبه حالة مجموع صفتي ﴿ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ إذ الاهتداء يحصل بمجموع الصفتين. فلو ثبتت إحدى الصفتين وانتفت الأخرى لم يحصل الاهتداء إذ الأمران المشبه بهما أمران وجوديان فهما في قوة الإثبات؛ فتعين أن الكون الداعي إلى عطف ﴿ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ على ﴿ وَٱلْبَصِيرِ ﴾ في تشبيه حال فريق المؤمنين هو المزاوجة في العبادة لتكون العبارة عن

حال المؤمنين مماثلة للعبارة عن حال الكافرين في سياق الكلام. والمزاوجة من محسنات الكلام ومرجعها إلى فصاحته.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** في معرض ذكر قصة نوح مع قومه: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هُود: ٢٨)، فقال: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ ولم يقل: «أنلزمكم إياها» مثلاً، بل أتى بهذه الكلمة التي أُدمجت فيها كل هذه الضمائر في النطق، وشُدَّ بعضها إلى بعض، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدون إليه وهم منه نافرون؛ أفاده في التصوير الفني في القرآن.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** في معرض ذكر قصة نوح مع قومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (هُود: ٢٩)، فقال: ﴿ مَالًا ﴾ ولم يقل: «أجراً» لأنهم أرادوا إمالته عن الحق وإمالته عن صحبة المؤمنين الفقراء من أتباعه وسألوه طردهم عنه، فناسب أن يقول: ﴿ مَالًا ﴾ ليدل على أنه لن يميل عن الحق ولن يقبل أيّ مساومة في ذلك.

وتأمل قوله: ﴿ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ ﴾ ولم يقل: «لن آخذ مالاً»، فقد يصلح هذا كدليل للإمام أحمد في رواية ومن وافقه على جواز أخذ أجرة على تعليم العلم والقرآن دون سؤالٍ أو اشتراطٍ ولكن ما أُعطي أخذ، مع أنّ الأنبياء ما أخذوا ولا سألوا ولكن أُتي بهذا الأسلوب للإشارة إلى ذلك، والله أعلم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ (هُود: ٤٢، ٤٣). فقال: ﴿ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ ولم يقل: «غارقاً» ولا «مع المغرقين» وفي ذلك دقة متناهية، لأنه لو قال: «مع المغرقين» لم يُعلم هل غرق معهم وهو على كفره أم نالته العقوبة لمعيته لهم، مع أنه كان قد أسلم، فلما قال: ﴿ مِنَ ﴾ دلّ على أنه مات كافراً،

ولو قال: «غارقاً» لما عُلم هل غرق غيره معه أم لا، فلما قال: ﴿ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ دل على غرق الكفار أيضاً.

تنبيه: قال **ابن عاشور**: عدل عن الفعل الماضي إلى المضارع ﴿ وَهِىَ تَجْرِى ﴾ لاستحضار الحالة مثل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ .

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ: لنوح:** ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (هُود : ٤٦)، فقال: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ ﴾ بحذف الياء بينما قال في معرض ذكر قصة الخضر مع موسى عليه السلام وقول الخضر لموسى: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (الكهف : ٧٠)، فقال: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِى ﴾ بزيادة الياء، وفي ذلك دقة بالغة لأنّ نهي نوح كان عن مجرد السؤال، فناسب أن يحذف الياء للدلالة على ذلك، بينما في قصة الخضر المنهي عنه هو السؤال عن علل وحكم ما سيفعله الخضر، وأمّا غير ذلك من الأسئلة، فلا، فزيادة الياء أفادت هذا القيد.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ: لنوح بعد الطوفان:** ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (هُود : ٤٨).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال: دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك المتاع والعذاب الأليم كل كافرٍ وكافرةٍ إلى يوم القيامة. اهـ .

قلتُ: اللهمّ إنّا نسألك كما رزقتنا الإسلام قبل أن توجدنا، وكما أدخلتنا في ذلك السلام والبركات، نسألك أن تتمّ علينا نعمتك بالوفاة على الإسلام !!

فوائد:

١ – استشعار المؤمن أنّه قد نالته البركات والسلام من ربه، سببٌ كبيرٌ من أسباب زيادة حبه لربه عزّ وجلّ ورجائه وطمعه في فضله ورحمته.

٢- كان بعضُ الصالحين يتوسلون إلى الله بكرمه وإفضاله عليهم؛ فإنّ الكريم يحب ذلك، وقد روي أنّ سائلاً دخل على كريمٍ يسأله عطاءً، فتوسل إليه بقوله: أنا الذي فعلت معي كذا وكذا يعدد عليه أياديه عليه، فقال الكريم: مرحباً بمن يتوسل إلينا بكرمنا !! فقوموا إلى ربكم، وتوسلوا إليه بنعمه عليكم ... اللهمّ أنا الذي أكرمتني بالإسلام قبل أن أكون شيئاً مذكوراً.. وأنا الذي مننت عليّ بصحبة أهل السُّنّة والجماعة.. وأنا الذي ما بي من خيرٍ ونعمةٍ فمنك وحدك لا شريك لك.. وأنا الذي ما قضيت لي من قضاءٍ إلّا وجعلت فيه خيراً.. فأسألك يا جواد يا كريم أن تتوفاني على الإسلام والسُّنُّة وأنت راضٍ عنيّ !!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (يونس: ٧، ٨).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج أبو الشيخ عن يوسف بن أسباط قال: الدنيا دار نعيم الظالمين. قال: وقال عليّ بن أبي طالب: الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (هود: ٥٩، ٦٠).

قال **ابن عاشور**: وإتباع اللعنة إياهم مستعار لإصابتها إياهم إصابة عاجلة دون تأخير كما يتبع الماشي بمن يلحقه ومما يزيد هذه الاستعارة حسناً ما فيها من المشاكلة ومن مماثلة العقاب للجرم لأنهم اتبعوا الملعونين فأتبعوا باللعنة. وبنى فعل ﴿ وَأُتْبِعُواْ ﴾ للمجهول إذ لا غرض في بيان الفاعل. ولم يسند الفعل إلى اللعنة مع استيفائه ذلك على وجه المجاز ليدل على ان إتباعها لهم كان بأمر فاعل للإشعار بأنها تبعتهم عقاباً من الله لا مجرد مصادفة. واللعنة الطرد بإهانة وتحقير، وقرن الدنيا باسم الإشارة لقصد تهوين أمرها بالنسبة إلى لعنة الآخرة كما في قول قيس بن الخطيم:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلّا قدْ قضيت قضاءها

أومأ إلى أنه لا يكترث بالموت ولا يهابه.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (هُود: ٧٧).

قال **ابن عاشور**: ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب المخلص منه فإذا علم أنه لا مخلص منه ضاق به ذرعاً ثم يصدر تعبيراً عن المعاني وترتيباً عنه كلاماً يريح به نفسه.



سُورَةُ يُوسُفَ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يُوسُفَ : ١٨).

قال **ابن عاشور**: والتعبير عما أصاب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ مَا تَصِفُونَ ﴾ في غاية البلاغة لأنه كان واثقاً بأنهم كاذبون في الصفة وواثقاً بأنهم ألحقوا بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ضراً فلما لم يتعين عنده المصاب أجمل التعبير عنه إجمالاً موجهاً لأنهم يحسبون أن ما يصفونه هو موته بأكل الذئب إياه ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ يريد أن ما يصفونه هو المصاب الواقع الذي وصفوه وصفاً كاذباً فهو قريب من قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾. وإنما فوض يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه عَلِمَ تعذر ذلك عليه لكبر سنه ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك وقد صاروا هم الساعين في البعد بينه وبين يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فأيس من استطاعة الكشف عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بدونهم، ألا ترى أنه لما وجد منهم فرصة قال لهم: ﴿ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ .

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (يُوسُفَ : ٨٦).

قال في **(الدر المنثور)**: وأخرج عبد الرزاق وابن جرير، عن مسلم بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من بث لم يصبر**» ثم قرأ ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

وأخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من بث لم يصبر**» ثم قرأ ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ .

وأخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كنوز البر، إخفاء الصدقة، وكتمان المصائب والأمراض، ومن بث لم يصبر**» (أي من بث إلى الناس على وجه الشكاية).

وأخرج البيهقي من وجه آخر، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب رضي الله عنه قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ثلاث من كنوز البر: كتمان الصدقة، وكتمان المصيبة، وكتمان المرض**».

وأخرج البيهقي في الشعب وضعفه، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من أصبح حزيناً على الدنيا، أصبح ساخطاً على ربه. ومن أصبح يشكو مصيبةً نزلت به، فإنما يشكو الله. ومن تضعضع لغني لينال من دنياه، أحبط الله ثلثي عمله. ومن أعطي القرآن فدخل النار، فأبعده الله**».

وأخرج البيهقي وضعفه، عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً مثله.

وأحمد في الزهد والبيهقي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ثلاث من ملاك أمرك: أن لا تشكو مصيبتك، وأن لا تحدث بوجعك، وأن لا تزكي نفسك، بلسانك.

وأحمد في الزهد والبيهقي، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال: وجدت في التوراة أربعة أسطر متوالية: من شكا مصيبته فإنما يشكو ربه، ومن تضعضع لغني ذهب ثلثا دينه، ومن حزن على ما في يد غيره فقد سخط قضاء ربه، ومن قرأ كتاب الله فظن أن لا يغفر له، فهو من المستهزئين بآيات الله.

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي، عن الحسن رضي الله عنه قال: من ابتلي ببلاء فكتمه ثلاثاً، لا يشكو إلى أحد، أتاه الله برحمته.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن حبيب بن أبي ثابت: أن يعقوب عليه السلام، كان قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فكان يرفعهما بخرقة. فقيل له: ما بلغ بك هذا؟ قال: طول الزمان، وكثرة الأحزان. فأوحى الله إليه: «يا يعقوب، أتشكوني؟ قال: يا رب، خطيئة أخطأتها، فاغفر لي». **قلتُ**: هذا من الإسرائيليات والقرءان قد أخبر أنه عليه السلام وعد بالصبر الجميل. والأنبياء لا يخلفون الوعد.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي﴾ قال: همي.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿أَشْكُواْ بَثِّي﴾ قال: حاجتي.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف: ٨٨)، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣٥)، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١٨)، قال د. **فاضل**: فقال في آية يوسف: ﴿ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ وقال في آية الأحزاب: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ﴾ غير أنه قال في الحديد: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ بالإبدال والإدغام وقد ناسب كل تعبير موطنه ففي آية يوسف قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ولم يقل: «المصدقين» لأكثر من سبب منها: أنهم طلبوا التصدق عليهم ولم يطلبوا أن يبالغ لهم في الصدقة وذلك من حسن أدبهم، ومنها أنه لو قال: «إن الله يجزي المصدقين» لأفاد بذلك أن الله يجزي المبالغين في الصدقة دون من لم يبالغ وهذا غير مراد فإن الله يجزي على القليل والكثير وهو يجزي المتصدق والمصدق فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يدخل فيه المصدقون ولو قال: «يجزي المصدقين» لم يدخل المقلون في صدقاتهم والله أعلم، فهذا من باب ذكر الأدنى للتنبيه على الأعلى. وأما ما ورد في الأحزاب فقد جاء بها على الأصل من غير إدغام وذلك للتفصيل في الصفات وتعدادها والإطالة في ذكرها فناسب الفك وليشمل عموم أصحاب الصدقة. وأما ما في آية الحديد فإنه ذكر المبالغين

في الصدقات وذكر أنه يضاعف لهم ولهم أجر كريم. وكل اقتضى مكانه فإنه ذكر من بالغ في الصدقة في سورة الحديد لأنه تكرر فيها ذكر الإنفاق والنهي عن البخل فناسب ذكر المبالغة في الصدقة. ا هـ.

قلتُ: ويصح أن يقال أيضاً: ذكر في سورة الأحزاب ﴿ **وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ** ﴾ ليدل على الوعد بالمغفرة والأجر العظيم لكل متصدق ولو بالقليل، بينما ذكر في سورة الحديد ﴿ **إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ** ﴾ مع المضاعفة ﴿ **يُضَٰعَفُ لَهُمْ** ﴾ ليدل على أنّ المضاعفة تزداد مع زيادة الصدقة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ **ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا** ﴾ (يوسف: ٩٣).

قال **ابن عاشور**: وفائدة إرساله إلى أبيه القميص أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر ولقصد المسرة له. والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف عليه السلام بجلبه؛ فإن قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصاً ولا توجد أمثالها عند الناس وكان الملوك يخلعوها على خاصتهم، فجعل يوسف عليه السلام إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنّهم جاءوا من عند يوسف عليه السلام بخبر صدق. ومن البعيد ما قيل: إن القميص كان قميص إبراهيم عليه السلام مع أن قميص يوسف قد جاء به إخوته إلى أبيهم حين جاءوا عليه بدم كذب. وأما إلقاء القميص على وجه أبيه فلقصد المفاجأة بالبشرى لأنه كان لا يبصر من بعيد فلا يتبين رفعه القميص إلا من قرب. وأما كونه يصير بصيراً فحصل ليوسف عليه السلام بالوحي فبشرهم به من ذلك الحين.

فائدة: قال **د. فاضل**: **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ** ﴾ (يوسف: ١١٠)، بينما قال: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾ (الأنعام: ٣٤).

فقال في آية يوسف: ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ وفي آية الأنعام: ﴿ أَتَنٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ومن الواضح أن الحالة الأولى أشق وأصعب وذلك أن الرسُلَ بلغوا درجة الاستيئاس وهي أبعدُ وأبلغ وذهب بهم الظن إلى أنهم كُذبوا أي: أن الله سبحانه وتعالى كذبهم ولم يصدقهم فيما وَعَدَهم به وهذا أبلغ درجات اليأس وأبعدها وعند ذاك جاءهم نصره سبحانه فنجَّى من شاء وعوقب المجرمون. في حين ذكر في الآية الأخرى أنهم كُذّبوا أي كذبهم الكافرون وأُوذوا فصبروا وفرق بعيد بعيد بين الحالتين فلقد يكذَّب الرسلُ وأتباعهم ويؤذون ولكن الوصول إلى درجة اليأس والظن بالله الظنون البعيدة أمر كبير ثم انظر إلى خاتمة الآيتين تر الفرق واضحاً. فما ذكره من نجاة للمؤمنين، ونزول البأس على الكافرين في آية يوسف مما لا تجده في آية الأنعام يدلك على الفرق بينهما. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٢٥، ٢٦) وقوله: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (النحل: ٢٦، ٢٧).

فقال في الآيتين: ﴿ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ في حين قال: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٣ – ٥٥) . فقال: ﴿ لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ وذلك أن الآيتين الأوليين في عذاب الدنيا بدليل قوله في آية النحل: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ وقوله في آية الزمر: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٢٦) في حين أن آية العنكبوت في عذاب الآخرة وحتى لو كانت في عذاب

الدنيا فإن ما ذكر فيها من العذاب أشق وأشد مما في الآيتين الأخريين بدليل قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ فجاء لما هو أشق وأشد بالفعل «جاء» ولما هو أيسر بـ «أتى». أ. هـ.

تنبيه: فإن قيل: فلم قال ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ (العنكبوت :٥٣)؟

قلتُ: قال: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ ليدل على قوة وشدّة ذلك العذاب، وذلك لما يفيده فعل «جاء»، بينما قال: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ ليدل على سهولة ذلك على الله رغم صعوبته في عرف البشر، وذلك لما يفيده فعل «أتى» من السهولة، فأكرم بدقة القرآن !!

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ (يوسف : ١١٠).

قال **ابن عاشور**: والجمع بين الماضي في ﴿فَنُجِّيَ﴾ والمضارع في ﴿نَّشَآءُ﴾ احتباك تقديره فنُجِّي من شئنا ممن نجا في القرون السالفة وننجي من نشاء في المستقبل من المكذبين.



سورة الرعد

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الرعد: ٣).

قال **ابن عاشور**: جيء في التفكر بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ للإشارة إلى تفكر شديد ومكرر. أ.هـ.

قلتُ: فيا حسرةً على العباد !! أكثرهم ـ إلّا من رحم الله ـ لا يكاد يتفكر أصلاً.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤).

قال **ابن عاشور**: لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما أهم الناس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها فجاء ذلك معطوفاً على الأشياء التي أسند جعلها إلى الله تعالى ولكنه لم يسند إلى الله حتى بلغ إلى قوله: ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ لأن ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها وأمثال هذه العبر ولفت النظر مما انفرد به القرآن من بين سائر الكتب. وأعيد اسم ﴿ ٱلْأَرْضِ ﴾ الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضى ليستقل الكلام ويتجدد الأسلوب وأصل انتظام الكلام أن يقال: جعل فيها زوجين اثنين وفيها قطع متجاورات فعدل إلى هذا توضيحاً وإيجازاً.

والقطع: جمع قطعة بكسر القاف وهي الجزء من الشيء تشبيهاً لها بما يقتطع.

وليس وصف القطع بمتجاورات مقصوداً بالذات في هذا المقام إذ ليس هو محل العبرة بالآيات بل المقصود وصف محذوف دل عليه السياق تقديره: مختلفات الألوان والمنابت كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾.

وإنما وصفت بمتجاورات لأن اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾. فمعنى ﴿ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة. والاقتصار على ذكر الأرض وقطعها يشير إلى اختلاف حاصل فيها عن غير صنع الناس وذلك اختلاف المراعي والكلأ. ومجرد ذكر القطع كاف في ذلك فأحالهم على المشاهدة المعروفة من اختلاف منابت قطع الأرض من الأب والكلأ وهي مراعي أنعامهم ودوابهم. ولذلك لم يقع التعرض هنا لاختلاف أكله إذ لا مذاق للآدمى فيه ولكنه يختلف شره بعض الحيوانات على بعضه دون بعض.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾** (الرعد: ٨).

قال **ابن عاشور**: فأما هنا فصيغ الخبر بصيغة المضارع المفيد للتجدد والتكرير لإفادة أن ذلك العلم متكرر متجدد التعلق بمقتضى أحوال المعلومات المتنوعة والمتكاثرة على نحو ما قرر في قوله: ﴿ **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ** ﴾.

وتغيض: تنقص. والظاهر أنه كناية عن العلوق لأن غيض الرحم انحباس دم الحيض عنها. وازديادها: فيضان الحيض منها. ويجوز أن يكون الغيض مستعاراً لعدم التعدد.

والازدياد: التعدد أي ما يكون في الأرحام من جنين واحد أو عدة أجنة وذلك في الإنسان والحيوان. اهـ.

قلتُ: وقد أثبت العلم الحديث فيما حكاه البعض أنّ غيض الأرحام هو أنّ النطفة عندما تلقح البويضة ينغرز الزيجوت الناتج في جدار الرحم فينبجع الرحم، فهذا هو غيضه، والله أعلم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد: ١٧).

قال **ابن عاشور**: وعدل عن تسمية الذهب والفضة إلى الموصولية بقوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ . لأنها أخصر وأجمع، ولأن الغرض في ذكر الجملة المجعولة صلة. فلو ذكرت بكيفية غير صلة كالوصفية مثلاً لكانت بمنزلة الفضلة في الكلام ولطال الكلام بذكر اسم المعدنيين مع ذكر الصلة؛ إذ لا محيد عن ذكر الوقود لأنه سبب الزبد، فكان الإتيان بالموصول قضاء لحق ذكر الجملة مع الاختصار البديع. ولأن في العدول عن ذكر اسم الذهب والفضة إعراضاً يؤذن بقلة الاكتراث بهما وترفعا عن ولع الناس بهما فإن اسميهما قد اقترنا بالتعظيم في عرف الناس.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ .
(الرعد: ٢٠ – ٢٢)

قال **ابن عاشور**: وجاءت الصلات ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ وما عطف عليهما بصيغة المضارع في تلك الأفعال الخمسة لإفادة التجدد كناية عن الاستمرار.

وجاءت صلة ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ وما عطف عليها وهو ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ ﴾ بصيغة الماضي لإفادة تحقق هذه الأفعال الثلاثة لهم وتمكنها من أنفسهم وتنويهاً بأنّها أصول لفضائل الأعمال. فأما الصبر فلأنه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تخلق به المؤمن صدرت عنه الحسنات والفضائل بسهولة، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

وأما الصلاة فلأنها عماد الدين وفيها ما في الصبر من الخاصية لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ . وأما الإنفاق فأصله الزكاة، وهي مقارنة للصلاة كلما ذكرت، ولها الحظ الأوفى من اعتناء الدين بها، ومنها النفقات والعطايا كلها، وهي أهم الأعمال لأن بذل المال يشق على النفوس فكان له من الأهمية ما جعله ثانياً للصلاة ثم أعيد أسلوب التعبير بالمضارع في المعطوف على الصلة وهو قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يحرص عليه لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السيئات بالحسنات.

فائدة جليلة في قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾: قال **ابن عاشور**: والدرء: الدفع والطرد. وهو هنا مستعار لإزالة أثر الشيء فيكون بعد حصول المدفوع وقبل حصوله بأن يُعِدّ ما يمنع حصوله. فيصدق ذلك بأن يتبع السيئة إذا صدرت منه بفعل الحسنات فإن ذلك كطرد السيئة. قال النبي ﷺ: «**يا معاذ اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ....**» وهذه وخاصة فيما بينه وبين ربه.

ويصدق بأن لا يقابل من فعل معه سيئة بمثلها بل يقابل ذلك بالإحسان؛ قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ بأن يصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عن من ظلمه. وذلك فيما بين الأفراد وكذلك بين الجماعات إذا لم يفضي إلى استمرار الضر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ . ويصدق بالعدول عن فعل السيئة بعد العزم فإن ذلك العدول حسنة درأت السيئة المعزوم عليها. قال النبي ﷺ: «**من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة**».

فلقد جمع ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ جميع هذه المعاني. ولهذا لم يعقب بما يقتضي أن المراد معاملة المسيء بالإحسان كما أتبع في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ

أَحۡسَنُ﴾ في سورة فصلت، فقال ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾، وكما في قوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ في سورة المؤمنون.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (الرعد: ٤٣).

قال **ابن عاشور**: وقد حكى قولهم بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق، كما عبر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ وقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾.



سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم: ١ – ٤).

قال في (**الظلال**): ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ .. لتخرج هذه البشرية من الظلمات. ظلمات الوهم والخرافة. وظلمات الأوضاع والتقاليد. وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة، وفي اضطراب التصورات والقيم والموازين.. لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور. النور الذي يكشف هذه الظلمات. يكشفها في عالم الضمير وفي دنيا التفكير. ثم يكشفها في واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد. والإيمان بالله نور يشرق في القلب، فيشرق به هذا الكيان البشري، المركب من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله. فإذا ما خلا من إشراق هذه النفخة، وإذا ما طمست فيه هذه الإشراقة استحال طينة معتمة. طينة من لحم ودم كالبهيمة، فاللحم والدم وحدهما من جنس طينة الأرض ومادتها. لولا تلك الإشراقة التي تنتفض فيه من أمر الله، يرقرقها الإيمان ويجلوها، ويطلقها تشف في هذا الكيان المعتم، ويشف بها هذا الكيان المعتم. والإيمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق. ترى الطريق واضحة إلى الله، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب. غبش الأوهام وضباب الخرافات. أو غبش الشهوات وضباب الأطماع. ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار.

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة. فإذا الناس كلهم عباد متساوون. تربط بينهم آصرتهم في الله وتتمحض دينونتهم له دون سواه، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة. وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة. معرفة الناموس المسير لهذا الكون وما فيه ومن فيه. فإذا هم في سلام مع الكون وما فيه ومن فيه.

والإيمان بالله نور. نور العدل. ونور الحرية. ونور المعرفة. ونور الأنس بجوار الله، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء. ذلك الاطمئنان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور من إدراك الحكمة في البلاء.

والإيمان بالله وحده إلهاً ورباً، منهج حياة كامل لا مجرد عقيدة تغمر الضمير وتسكب فيه النور.. منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله وحده، والدينونية لربوبيته وحده، والتخلص من ربوبيات العبيد، والاستعلاء على حاكمية العبيد..

وفي هذا المنهج من المواءمة مع الفطرة البشرية، ومع الحاجات الحقيقية لهذه الفطرة، ما يملأ الحياة سعادة ونوراً وطمأنينة وراحة. كما أن فيه من الاستقرار والثبات عاصماً من التقلبات والتخبطات التي تتعرض لها المجتمعات التي تخضع لربوبية العبيد، وحاكمية العبيد. ومناهج العبيد في السياسة والحكم وفي الاقتصاد والاجتماع، وفي الخلق والسلوك، وفي العادات والتقاليد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٦)، فقال: ﴿ أَنجَىٰكُم ﴾ بينما قال في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٩)، فقال: ﴿ نَجَّيْنَٰكُم ﴾، قال د. **فاضل السامرائي:** «أنجى» على وزن «أفعل» تدل على سرعة الإنجاء، و«نجّى» على وزن «فعّل» تدل على التلبث والتمهل في التخليص من الشدة والكرب. أ.هـ.

قلتُ: وجه قوله في سورة إبراهيم المكية: ﴿ أَنجَىٰكُم ﴾ هو بيان عظيم المنة عليهم في إنجائهم من فرعون، ولو شاء الله لطال مكثهم في هذا العذاب، ففي هذا حثٌ لهم على الإسلام قبل دخول الرسول ﷺ المدينة، وترغيبٌ لهم، فلمّا دخل المدينة وعادوه وكفروا به، ناسب أن يشير إلى التهديد في طي ذكر النعم عليهم، فقال: ﴿ نَجَّيْنَٰكُم ﴾ التي تدل على عظيم ما كانوا فيه من مهانةٍ وشدةٍ وكربٍ، وأنّهم ـ بكفرهم ـ بصدد أن يذوقوا من ألوان العذاب والإهانة، أو يكون قد ذكَّرهم في المدينة بشدة ما كانوا فيه بقوله في سورة البقرة: ﴿ نَجَّيْنَٰكُم ﴾ ليكون أدعى لاستحياءهم وإيمانهم.

وأمّا قوله في سورة الإسراء: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٦٦، ٦٧)، فقال: ﴿ نَجَّىٰكُمْ ﴾، وكذا قوله في سورة العنكبوت: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٥)، بينما قال في سورة يونس: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (يونس: ٢٢، ٢٣)، فقال: ﴿ أَنجَيْتَنَا ﴾، ﴿ نَجَّىٰهُمْ ﴾، فوجه ذلك أنه أراد بيان عظيم كفر الكفار وجحودهم حتى أنّ الله نجاهم من الكرب الشديد العظيم ومع ذلك كفروا، فقال في سورة الإسراء والعنكبوت: ﴿ نَجَّىٰكُمْ ﴾، ﴿ نَجَّىٰهُمْ ﴾ للدلالة على شدة الكرب والبلاء، وأمّا سورة يونس فقال: ﴿ أَنجَيْتَنَا ﴾ ليدل على أنهم لما سألوا النجاة سألوا النجاة السريعة العاجلة فقالوا: ﴿ أَنجَيْتَنَا ﴾، واستجاب الله لهم وأعطاهم سؤالهم ﴿ نَجَّىٰهُمْ ﴾، ومع ذلك كفروا.

وأمّا قوله: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ (المعارج: ١١ – ١٤)، فقال: ﴿ يُنجِيهِ ﴾

مضارع «أنجى» ليدل على طلب المرء للنجاة السريعة العاجلة الخالية من أي عذابٍ ومشقة. وأمّا قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ (فُصِّلَت: ١٧، ١٨)، فقال: ﴿وَنَجَّيْنَا﴾، بينما قال في سورة النمل عن ثمود أيضاً: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ (النَّمْل: ٥٠ – ٥٣)، فقال: ﴿وَأَنجَيْنَا﴾، فوجهه أنّ آية فصلت تدل على عظيم العذاب والهوان الذي حلّ بثمود، فكانت نجاة المؤمنين من ذلك نجاةً عظيمة، فقال: ﴿وَنَجَّيْنَا﴾ بالتضعيف للدلالة على ذلك، وأمّا آية النمل فوجهها الدلالة على قوة الله وقدرته، فما أسهل الإنجاء عليه. فإن قيل: لم خصّ سورة فصلت بالكلام على شدة العذاب وسورة النمل بالكلام على سهولة هذا الإنجاء ويسره في قدرة الله؟

قلتُ: أمّا سورة فصلت، فقد هددهم فيها سبحانه بقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فُصِّلَت: ١٣)، فناسب ذلك أشدّ المناسبة أن يقول: ﴿وَنَجَّيْنَا﴾ وأمّا سورة النمل فقد ذكر في الآيات قبلها اجتماع الملأ من ثمود وتآمرهم على نبي الله صالح ودعوته، وذكر مكرهم، كما ذكر فيها قدرة الله في قصة موسى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (النَّمْل: ٨)، وذكر فيها أيضاً قدرته في تسخير الطير والجنة لسليمان: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النَّمْل: ١٦ – ١٧)، وكذا قدرته في تسخير ما سخّر لسليمان: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ

بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي ﴾ (النمل: ٣٨ –٤٠)، وكذا قدرته في إخراج دابة في آخر الزمان تكلم الناس: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (النمل: ٨٢)، وقدرته في قوله: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ ﴾ (النمل :٨٨)، فناسب ذلك أن يقول: ﴿ وَأَنجَيۡنَا ﴾ للدلالة على عظيم قدرته سبحانه.

وأمّا قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ ﴾ (يونس: ٧١ – ٧٣)، فقال: ﴿ فَنَجَّيۡنَٰهُ ﴾ بينما قال في سورة الشعراء: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾ (الشعراء: ١١١ – ١١٩)، فقال: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ ﴾، ووجه ذلك أنّ الملأ الكافرين في سورة الشعراء هددوا نوحاً بالرجم، فدعا عليهم نوحٌ بالهلاك ودعا للمؤمنين بالنجاة، فناسب أن يقول: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ ﴾ التي تدل على سرعة النجاة وسرعة إجابة الدعاء، كما تدل على عظيم قدرة الله وسهولة ذلك عليه، وأمّا سورة يونس فقد ذكر فيها عظيم العذاب الذي حلّ بالكفار في قوله: ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ (يونس: ٧٣)، فناسب أن يقول: ﴿ فَنَجَّيۡنَٰهُ ﴾ .

فإن قيل: قد دعا لوط لنفسه وأهله أيضاً بالنجاة، فقال: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ (الشعراء: ١٦٩)، فكان الجواب ﴿ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴾ (الشعراء: ١٧٠)، ولم يقل: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ ﴾ كما قال في نوح؟

قلتُ: لمّا ذكر سبحانه في الآيات شدة انتقامه من قوم لوط بقوله: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٧٢)، كان الأنسب أن يقول: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ بالتضعيف التي تدل على عظيم العقاب والعذاب الذي حلّ بقوم لوطٍ ونجاه الله منه، والله أعلم.

فإن قيل فما وجه قوله سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (العنكبوت: ٢٤)، فقال: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ ولم يقل: «فنجّاه»؟

قلتُ: لمّا كان إنجاء إبراهيم عليه السلام من هذه النار العظيمة المتأججة أمراً عجيباً كان الأنسب أن يقول: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ ليدل على سهولة ذلك على الله القدير المقتدر سبحانه، كما أنّ هذه النار العظيمة لا تكون النجاة منها إلّا بقدرة عظيمة لا يستطيعها إلّا الله، وهذا معلوم، فناسب ألّا يقول: «فنجّاه الله» التي تدل على ذلك؛ للعلم به، وأن يقول: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ التي تدل على سهولة ذلك عليه سبحانه، فإنّه ربما توَّهم متوِّهم أنّ ذلك كان شاقاً صعباً على الله، فأزال قوله: ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ ذلك التوّهم، وهذا أكمل ممّا لو قال: «فنجّاه الله»، والله أعلم.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم: ١٣)، فقال: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ ﴾ ولم يقل: «وأوحى» ليدل على أنّ عتو الكافرين وتجبرهم لمّا وصل إلى ذروته جاء وحي الله سريعاً بالنصر للمؤمنين وهلاك الظالمين، فالفاء تدل على التعقيب، فليعلم الدعاة إلى الله في كل زمانٍ ومكان أنّ الكفر إذا وصل أهله إلى كمال العتو والجبروت فالنصر آتٍ عن قريب.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ (إبراهيم: ٣٠)، فقال: ﴿ مَصِيرَكُمْ ﴾ ولم يقل: «صيرورتكم»؛ قال د. **فاضل**: المصدر الميمي «مصير» يدل على بلوغ النهاية، فقولنا: «مصير الخشب رماد» أي نهاية أمره، ومثله: ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ (الرعد: ٣٦)، فإنّ ﴿ مَـَٔابِ ﴾ يعني نهاية الأوب، وأمّ الإياب فإنه

الرجوه ولا يعني منتهى الأوب، ومثله: ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (الكهف: ٣٦)، أي: عاقبة ومصيراً، وقوله: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٢٧) أي: عاقبة أمرهم ونهايتهم، وكذا قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ (النجم: ٣٠) أي: منتهى علمهم أو مقدار علمهم، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم: ٤٢) فإنها تعني نهاية المصير إلى الله بخلاف «نهايتك» فإنها تعني الفناء، وكذا قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (الرعد: ٣٠)؛ قال **الراغب الأصفهاني**: المتاب تعني التوبة التامة، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل. أ.هـ. فكأنه أراد الغاية في التوبة أو منتهاها.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، فقال: ﴿ لَظَلُومٌ ﴾ على صيغة «فعول»، بينما قال: ﴿ كَفَّارٌ ﴾ على صيغة «فعّال». قال **د. فاضل**: اسم الشيء الذي يُفعل به يكون على «فَعول» غالباً كالوَضوء والوَقود والسَّحور والغَسول، فالوَضوء: هو الماء الذي يتوضأ به، والوَقود: هو ما توقد به النار، والسَّحور: هو ما يُتسحر به، وكذا الفَطور لما يفطر عليه، ومن هنا استعير البناء إلى المبالغة فعندما تقول: «هو صَبور» كان المعنى كأنه مادة تُستنفد في الصبر وتفنى فيه كالوقود الذي يُستهلك في الاتقاد ويفنى فيه، وكالوَضوء الذي يُسنفد في الوضوء، وكذا حين تقول: «هو شَكور» كأنه مادة معدة للشكر تستهلك فيه، ولذا قال تعالى ـ والله أعلم ـ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ: ١٣).

وقال أيضاً: من المعلوم أنّ العرب تنسب إلى الحرف والصنعة بصيغة «فعّال» غالباً كالفرّاء والنسّاج والنجّار والطبّاع والدّبّاج والنحّاس والتمّار واللحّام، وهذا البناء يقتضي المزاولة والتجديد لأنّ صاحب الصنعة مداوم على صنعته ملازمٌ لها، فعندما تقول: «هو كذاب» كان المعنى كأنما هو شخصٌ حرفته الكذب وهو مداوم عليه كثير المعاناة له مستمر على ذلك لا ينقطع، فقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾، كفار: أي مستمر على ذلك يزاوله ويعاينه ويجدده. اهـ.

قلتُ: ولكن يبقى التساؤل لماذا لم يقل: «إنّ الإنسان لظلام كفور» وقال: ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، فالله أعلم بذلك، وقد يُقال: في الآية ما يشبه الاحتباك، ويكون أصل الكلام: إن الإنسان لظلامٌ ظلومٌ كفارٌ كفورٌ، فحذف «ظلام» ودلّ عليها بـ ﴿كَفَّارٌ﴾ وحذف «كفور» ودلّ عليها بـ ﴿لَظَلُومٌ﴾، هذا ما يظهر لي، فإن قيل: فلماذا اختار ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ دون «ظلّامٌ كفورٌ»؟ **قلتُ**: لتوافق رؤوس الآيات قبلها وبعدها.

فإن قيل: فلماذا بدأ بذكر الظلم قبل الكفر ولم يقل: «كفارٌ ظلوم»؟ قلتُ: لأنّ المرء قد يكفر بالشيء وهو محقٌّ كمن كفر بالطاغوت، فبدء بذكر الظلم لأنّ الكفر المذموم هو الكفر بالحق وأمّا الكفر بكل باطلٍ عُبد من دون الله فهو واجب.



سُورَةُ الحِجرِ

✪ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر: ٣).

قال بعض أهل العلم: ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ تهديد وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تهديدٌ آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين؟ أفاده **البغوي**.

✪ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ⁽¹⁴⁾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ** ﴾ (الحجر: ١٤، ١٥).

قال **ابن عاشور**: وإقحام كلمة ﴿ **قَوْمٌ** ﴾ هنا دون أن يقولوا: «بل نحن مسحورون» لأن ذكرها يقتضي أن السحر قد تمكن منهم واستوى فيه جميعهم حتى صار من خصائص قوميتهم كما تقدم تبيينه عند قوله تعالى: ﴿ **لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ في سورة البقرة. وتكرر ذلك.

✪ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ⁽³⁰⁾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ⁽³¹⁾** قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٣٠ - ٣٢)، فقال: ﴿ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ بينما قال في سورة ص: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ⁽⁷³⁾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (ص: ٧٣، ٧٤) فقال: ﴿ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، وقال في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤)، فقال: ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾، ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ سورة الحجر ذُكر فيها الأمر بمعية المؤمنين وخفض الجناح لهم ﴿ **لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الحجر: ٨٨)، وذكر فيها أيضاً عاقبة ترك زوجة لوط لمعية المؤمنين ﴿ **إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ⁽⁵⁹⁾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ** ﴾ (الحجر: ٥٩، ٦٠)، وقال عن آل لوط: ﴿ **لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ أي معاً مجتمعين، فهذا جزاء معية المؤمنين وذاك جزاء معية الكافرين، وكذا

ذكر فيها جزاء صحبة المؤمنين وتآخيهم في الدنيا ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ (الحجر : ٤٥ - ٤٧)، فكما كانوا إخواناً في الدنيا يكونون إخواناً في الجنة مع زيادة نزع ما قد يكون في صدور بعضهم لبعض، فناسب ذلك أن يذكر فيها عاقبة ترك إبليس لمعية الملائكة الساجدين لآدم، فقال: ﴿ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر : ٣١).

وأمّا سورة ص فذكر فيها عدم استكبار داود وسليمان عن التوبة لربهما: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (ص : ٢٤، ٢٥)، ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (ص : ٣٤ - ٣٦)، فهذه هي عاقبة التواضع وعدم الاستكبار مع عظيم ملكهما، وكذا ذكر فيها استكبار كفار قريش عن الإيمان برسول الله ﷺ ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ (ص : ١، ٢)، فكان عاقبة تعززهم الباطل النار والعياذ بالله، فناسب أن يذكر فيها استكبار إبليس ليُعلم أنّ جزاءه كجزاء المستكبرين، ولو تواضع وأناب لكان جزاؤه كجزاء المتواضعين التائبين.

وأمّا سورة البقرة، فذكر فيها إباء اليهود واستكبارهم عن قبول الحق والانقياد له مع علمهم بصدق رسول الله ﷺ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦)، ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة : ٨٩)، وذكر فيها كذلك صوراً من إباءهم واستكبارهم عن الانقياد حتى لشرعهم الذي يقرون به ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ٨٥)،

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة: ٨٧)، فناسب أن يذكر فيها إباء واستكبار إبليس عن انقياده للحق.

۞ **قال تعالى**: في سورة الحجر: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (الحجر: ٥١ - ٥٦).

بينما قال في سورة الذاريات: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الذاريات: ٢٤ - ٣٠).

قال د. **فاضل السامرائي**: فوصف الضيف في سورة «الذاريات» بأنهم «مكرَمون» فقال: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ ولم يصفهم بذاك في سورة «الحجر» بل قال: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وقد أدى هذا إلى الاختلاف بين السياقين في أمور عدة منها:

١- أنّه ذكر في سورة الذاريات، أن إبراهيم عليه السلام ردّ التحية عليهم حين حيَّوه فقال: ﴿ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾، ولم يذكر ذلك في الحجر. وإنما ذكر أنهم حيوه ولم يذكر أنه رد التحية عليهم. ولا شك أن رَدَّ التحية هو الذي يقتضيه الإكرام. فلما وصفهم بأنهم مكرمون ناسب ذلك ذكر رد التحية، فإنه من إكرامهم.

كما أنّه ردّ التحية عليهم بخيرٍ من تحيتهم، فإنهم حيّوه بالنصب ﴿ سَلَٰمًا ﴾ وحياهم بالرفع ﴿ سَلَٰمٌ ﴾. فهم حيّوه بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، أي: نُسلّمُ سلاماً، وهو قد حياهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت. والاسم أقوى وأثبت من

الفعل، كما هو معلوم في اللغة، وكما مَرَّ توضيحه في سورة الفاتحة، وذلك نحو يطّلع ومطّلع، ويتعلّم ومتعلِّم. فهو حياهم بالسلام الشامل الثابت الدائم فيكون قد حياهم بخيرٍ من تحيتهم.

جاء في «**التفسير الكبير**»: «إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتى بالجملة الاسمية، فإنها أدل على الدوام والاستمرار».

وجاء في «**معاني القرآن**» **للفراء**: «وأما قوله تعالى: ﴿ **فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ** ﴾ (البقرة : ١٧٨) فإنه رفع وهو بمنزلة الأمر في الظاهر كما تقول: (من لقي العدو فصبراً واحتساباً)، فهذا نصبه ورفعه جائز. وإنما كان الرفع وجه الكلام، لأنه عام فيمن فعل، ويراد بها من لم يفعل، فكأنه قال: فالأمر فيها على هذا فيرفع. وينصب الفعل إذا كان أمراً عند الشيء يقع ليس بدائم، مثل قولك للرجل: إذا أخذت في عملك فجدّاً جدّاً وسيراً سيراً. نصبتَ لأنَّك لم تَنْوِ به العموم فيصير كالشيء الواجب على مَنْ أتاه وفعله... وأما قوله: ﴿ **فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ** ﴾ (محمد : ٤) فإنه حَثَّهم على القتل إذا لقوا العدو، ولم يكن الحث كالشيء الذي يجب بفعل قبله، فلذلك نصب، وهو بمنزلة قولك: إذا لقيتم العدو فتهليلاً وتكبيراً وصِدْقاً عند تلك الوقعة.. كأنه حثٌّ لهم».

وجاء في «شرح ابن يعيش» أن: «الفرق بين النصب والرفع، أنك إذا رفعتها فكأنك ابتدأت شيئاً قد ثبت عندك واستقر وفيها ذلك المعنى.. وإذا نصبت كنت ترجّاه في حال حديثك، وتعمل في إثباته».

٢- ذكر في سورة الذاريات، أنه جاءهم بعجل ووصف هذا العجل بأنه سمين وقَرَّبه إليهم ليأكلوه. وهذا مما يدل على تكريم ضيفه واحتفائه بهم، ولم يقل مثل ذلك في «الحجر». وكلٌّ من الحالين المذكورين هو المناسب لموطنه وسياقه.

٣- ذكر في آيات «الذاريات» أنه أوجس منهم خيفة، ولم يواجه ضيفه بما أحسَّ في نفسه. في حين أنه واجههم بذاك في سورة الحجر، فقال مخاطباً إياهم: ﴿ **إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ** ﴾.

وواضح أن ما جاء في آيات الذاريات هو المناسب لمقام الإكرام، فليس مناسباً لجو التكريم أن يعلن لضيفه، أنه غير مطمئنٍّ إليهم، وأنه منهم وَجِلٌ. وهكذا ترى أن كل تعبير هو المناسب للسياق الذي ورد فيه.

٤- أظهر التعبير أن حالة الخوف والوجل في آيات الحجر، أكثر مما هي في آيات الذاريات. فإنه واجه ضيفه بالخوفِ منهم، في سورة «الحجر» بالجملة الاسمية المؤكدة بـ «إن»، وجاء مع ذلك بالصفة المشبهة ﴿ وَجِلُونَ ﴾ الدالة على شدة الخوف، ثم أخرجه مخرج العموم والشمول لأهل البيت أجمعين، فذكره بصورة الجمع: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾. في حين ذكر ذلك في «الذاريات» بالجملة الفعلية غير المؤكدة، فقال: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وذكره بصورة الإفراد. ولا شك أن الحالة النفسية لسيدنا إبراهيم عليه السلام وما صَرَّحَ به من شدة الفزع، جعلت المقام لا يتناسب هو وذكر التكريم فإن التكريم يحتاج إلى انشراح نفسي وانفتاح، وهو غير موجود في آيات «الحجر»، بل إن كل تعبير فيها يدل على القلق وعدم الارتياح. فناسب كُلُّ تعبيرٍ موطِنَهُ.

٥- ولما واجههم بالخوف منهم والوجل في سورة «الحجر» واجهوه بالبشرى، فإنه لما قال لهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ قالوا له: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ . ولما لم يواجههم بذلك في سورة الذاريات، بل ذكره بصيغة الغيبة: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ لم يواجهوه بالبشرى بل وردت بصيغة الغيبة أيضاً: ﴿وَبَشَّرُوهُ ﴾ .

٦- لما ذكر الوجل منهم بالصيغة الاسمية في سورة الحجر: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ بشروه بالجملة الاسمية أيضاً ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ . ولما ذكر الخوف منهم بالصيغة الفعلية في سورة الذاريات: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ بشروه بالصيغة الفعلية أيضاً: ﴿وَبَشَّرُوهُ ﴾.

٧- قال في آيات الذاريات: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ بتقديم ﴿مِنْهُمْ﴾ على ﴿ خِيفَةً ﴾. وهذا التقديم، يفيد الاختصاص والحصر، أي: أن الخوف كان منهم لا من غيرهم. ولو قال: «فأوجس خيفة منهم» لكان أخبر أنه خاف منهم ولم يخبر أنه لم يخف من غيرهم،

بل ربما كان ثمة خوف آخر من غيرهم. فإن التعبير الوارد في الآية جعل الضيف وحدهم سببَ الخوف وقصرَ ذلك عليهم. وأما التعبير الآخر، أعني: «فأوجس خيفة منهم» فلا يقصر الخوف عليهم، بل ربما كان هناك سبب آخر معهم وهذا نظير قولك: «بكَ وثقتُ» و«وثقتُ بكَ» فإن الجملة الأولى أخبرتَ بها أنك قصرتَ الثقةَ على المخاطب ولم تثق بأحدٍ آخر. أما الجملة الثانية فإنها تفيد أنك وثقت به ولم تُفِدْ أنك قصرتَ الثقة عليه، بل قد تكون وثقت بغيره أيضاً. ومما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (الملك: ٢٩)، فقد أخر الجار والمجرور ﴿ بِهِۦ ﴾ عن الفعل ﴿ ءَامَنَّا ﴾ وقدم الجار والمجرور ﴿ وَعَلَيْهِ ﴾ على الفعل ﴿ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

ذلك أن «الإيمان لَمَّا لم يكن منحصراً في الإيمان بالله؛ بل لا بد معه من رُسُله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقَّفُ صحةُ الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرُّدِه بالقدرة والعلم الأوليين الباقيين قَدَّمَ الجارَّ والمجرور فيه ليؤذنَ باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره، لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه». وكذلك ذكر في سورة الحجر فقد قال: ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ بتقديم ﴿ مِنكُمْ ﴾ على ﴿ وَجِلُونَ ﴾ مما يفيد أنهم هم سبب الخوف. وهذا التقديم يفيد القصر كما في آية الذاريات. فكلتا الآيتين أفادت الدلالة على أن الخوف كان من الضيف وحدهم، لا من غيرهم بدلالة تقديم الجار والمجرور على مُتعلّقه. غير أنه أخرج ذلك على سبيل المواجهة المؤكدة في آيات الحجر، وعلى سيبل الغيبة غير المؤكدة في آيات الذاريات.

٨- ذكر في آيات الذاريات أن امرأة سيدنا إبراهيم عندما سمعت بالبشرى، أقبلت في جَلَبَةٍ وصكّت وجهها متعجبة مما أخبروه به. ولم يذكر ذلك في الحجر؛ ذلك أن الخوف الذي ذكر في الحجر، كان عاماً شاملاً لأهل البيت أجمعين: ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ وفي مثل هذا الموقف، قعدت العجوزُ المُسِنَّةُ خائفةً وجلة من هؤلاء الغرباء الذين أدخلوا الخوفَ على البيت كله. فناسب ذلك عدم ذكر خروجها لهم ومواجهتهم.

أما في آيات الذاريات، فليس فيها هذا الشمول، فلم يمنع ذلك من خروجها، فناسب كل موقف موطنه. اهـ.

قلتُ: لمّا ذكر في سورة الحجر مواجهته لهم بوجله وخوفه منهم ناسب أن يذكر فيها استنكاره للبشرى ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ (الحجر: ٥٤) دون أن يذكر ذلك في سورة الذاريات التي لم يواجههم فيها بوجله منهم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الحجر: ٨٥، ٨٦).

قال **ابن عاشور**: وفي صفة بـ ﴿ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ إيماء وبشارة للنبي ﷺ بأنّ الله يخلق من أولئك من يعلم أنّهم يكونون أولياء للنبي ﷺ وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية والذين ولدوا، كقول النبي ﷺ: «**لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده**». وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان في أيام الجاهلية من المؤذين للنبي ﷺ:

دعــاني داع غــير نفــسي وردني ... إلى الله مــن أطردتــه كــل مُطــرد

يعني بالداعي النبي ﷺ. وتلك هي نكتة ذكر وصف ﴿ ٱلْخَلَّٰقُ ﴾ دون غيره من الأسماء الحسنى.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤)، فقال: ﴿ فَٱصْدَعْ ﴾ ليدل على أكثر من معنىً بلفظ واحد، فإنّ كلمة ﴿ فَٱصْدَعْ ﴾ تعني لغةً الجهر والإظهار، من قولهم: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، كقولك: صرح بها. وتعني أيضاً التفريق والشق في الشيء الصلب كالزجاج والحائط ومنه قوله تعالى: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ (الروم: ٤٣) أي يتفرقون ـ على ما ذُكر ـ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ (الروم: ١٤) أي ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ (الشورى: ٧)، وعلى هذا، فالمراد بالآية: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: فرّق بين الحق والباطل بما أمرك الله بتبليغه، ولو قال: «فاجهر» أو «ففرّق» لدل على معنىً واحد، فلمّا قال: ﴿فَٱصْدَعْ﴾ دلّ على المعنيين معاً.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧).

قال **الشنقيطي**: السبع المثاني والقرآن العظيم في هذه الآية الكريمة هو فاتحة الكتاب، فقد روى البخاري في صحيحه: «**أمُّ القرآن هي السبع المثاني والقرءان العظيم**»، وقيل لها: ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ لأنها تثنى قراءتها في الصلاة، وقيل لها: ﴿سَبْعًا﴾ لأنها سبع آيات، وقيل لها: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ لأنها أعظم سورة في القرآن كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لأبيّ: «**ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن؟**» فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**»، وإنما عطف القرءان العظيم على السبع المثاني مع أنّ المراد بها واحد وهو الفاتحة لما علم في اللغة العربية من أنّ الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحداهما على الأخرى تنزيلاً لتغاير الصفات بمنزلة تغاير الذوات، ومنه قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ (الأعلى: ١ – ٤).

سُورَةُ النَّحْلِ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (النحل: ١٠، ١١)، فقال: ﴿ وَٱلنَّخِيلَ ﴾ بينما قال في سورة عبس: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ (عبس: ٢٤ – ٢٩)، فقال: ﴿ وَنَخْلًا ﴾، ووجه ذلك ـ كما قال د. **فاضل**: أنه قال في النحل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وقال في عبس: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ والصب أكثر من الإنزال علاوة على أنه أكده بقوله: ﴿ صَبًّا ﴾.

وقال في النحل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير الغيبة، وقال في عبس: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا ﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم وهذا يقتضي الزيادة في التفضل على الإنسان فيما ذكر ثم انظر كيف أنه لما زاد في الكمية والأنواع في عبس جاء بضمير الجمع فقال: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا ﴾. وجاء بضمير الإفراد في النحل.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (ق: ٩ – ١١). فاستعمل ﴿ وَٱلنَّخْلَ ﴾ في آية ق ولم يستعمل ﴿ وَٱلنَّخِيلَ ﴾ كما في النحل. ويتضح سبب ذلك في النظر في الآيتين فقد أسند إنزال الماء في ق إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾ في حين أسنده في النحل إلى ضمير الغائب كما أسلفنا. والإسناد إلى المتكلم يقتضي زيادة التفضل والإحسان. كما أنّه قال في النحل: ﴿ أَنزَلَ ﴾ وقال في ق: ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾ بالتضعيف للدلالة على التكثير فالماء في ق أكثر. كما

أنّه قال في النحل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وقال في ق: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ فوصف الماء في ق بأنه مبارك ولم يصفه بذلك في النحل. والمبارك هو الكثير الزائد؛ فإن البركة هي: النماء والزيادة، فما في النحل يصدق على الإنزال القليل والكثير بخلاف ما في ق. اهـ.

✿ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.
(النحل: ١١ - ١٣)

قال **ابن عاشور**: وقد أبدى الفخر في كتاب درة التنزيل وجهاً للفرق بين إفراد «آية» في المرة الأولى والثالثة وبين جمع آيات في المرة الثانية: بأن ما ذكر أولاً وثالثاً يرجع إلى ما نجم من الأرض، فجميعه آية واحدة تابعة لخلق الأرض وما تحتويه «أي هو كله ذو حالة واحدة وهي حالة النبات في الأرض في الأول وحالة واحدة وهي حالة الذرء في التناسل في الحيوان في الآية الثالثة» وأما ما ذكر في المرة الثانية فإنه راجع إلى اختلاف في أحوال الشمس والقمر والكواكب، وفي كل واحد منها نظام يخصه ودلائل تخالف دلائل غيره، فكان ما ذُكر في ذلك مجموع آيات «أي لأن بعضها أعراض كالليل والنهار وبعضها أجرام لها أنظمة مختلفة ودلالات متعددة».

وأبدى الفخر في درة التنزيل وجهاً لاختلاف الأوصاف في قوله تعالى: ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقوله: ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وقوله: ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾: بأنّ ذلك لمراعاة اختلاف شدة الحاجة إلى قوة التأمل فدلالة المخلوقات الناجمة عن الأرض يحتاج إلى التفكير، وهو إعمال الفكر المؤدي إلى العلم. ودلالة ما ذرأه في الأرض من الحيوان محتاجة إلى مزيد تأمل في التفكير للاستدلال على اختلاف أحوالها وتناسلها وفوائدها،

فكانت بحاجة إلى التذكير وهو التفكير مع تذكر أجناسها واختلاف خصائصها. وأما دلالة تسخير الليل والنهار والعوالم العلوية فلأنها أدق وأحوج إلى التعمق فعبَّر عن المستدلين عليها بأنهم يعقلون. والتعقل هو أعلى أحوال الاستدلال. أ.هـ.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥، ١٦).

قال **ابن عاشور**: وعدل عن الخطاب إلى الغيبة التفاتاً يومئ إلى فريق خاص وهم السيارة والملاحون فإن هدايتهم هذه النجوم لا غير.

فائدة: تأمل سر تعليق الاهتداء بالنجم لأن النجوم المرادة ثابتة لا تتغير ولا تنكسف وضوؤها مستقر لا يختلف لذاتها وإنما لعوامل أخرى. ومعرفتها أيسر من معرفة منازل القمر وعلى قدر إتقانها تكون الدلالة على الطريق والوصول إلى الهدف. فكذلك أدلة المنهج فهي ثابتة مطردة بينة ميسرة وعلى قدر معرفتها والالتزام بها تكون السلامة والوصول إلى الغاية وإلا كان الاضطراب والضلال والهلاك. أفاده د. **ناصر العمر**.

ـ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل: ٢٢).

قال **ابن عاشور**: وعبر بالجملة الاسمية ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للدلالة على أن الإنكار ثابت لهم دائم لاستمرارهم على الإنكار بعد ما تبين من الأدلة. وذلك يفيد أن الإنكار صار لهم سجية وتمكن من نفوسهم لأنهم ضروا به من حيث أنهم لا يؤمنون بالآخرة فاعتادوا عدم التبصر في العواقب. وكذلك جملة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ بنيت على الاسمية للدلالة على تمكن الاستكبار منهم. وقد خولف ذلك في آية سورة الفرقان ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ لأن تلك الآية لم تتقدمها دلائل على الوحدانية مثل الدلائل المذكورة في هذه الآية.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٢٨).

قال **ابن عاشور**: وأسندوا العلم إلى الله دون أن يقولوا: «إنا نعلم ما كنتم تعملون»، أدباً مع الله. وإشعاراً بأنهم ما علموا ذلك إلا بتعليم من الله.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل: ٤١، ٤٢).

قال **ابن عاشور**: والتعبير في جانب الصبر بالماضي وفي جانب التوكل بالمضارع إيماء إلى أن صبرهم قد أذن بالانقضاء لانقضاء أسبابه، وأن الله قد جعل لهم فرجاً بالهجرة الواقعة والهجرة المترقبة. فهذا بشارة لهم. وأنّ التوكل مستمر لأنهم يستقبلون أعمالاً جليلة تتم لهم بالتوكل على الله في أمورهم فهم يكررونه. وفي هذا بشارة بضمان النجاح.

قلتُ: يعني الصبر على هذا النوع من البلاء هو الذي قد آذن بالرحيل، وأمّا أنواع البلاءات الأخرى، بل والصبر على النعماء وعلى طاعة الله فلا انقضاء لها حتى الموت.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (النحل: ٩٤).

قال **ابن عاشور**: وزلل القدم تمثيل لاختلال الحال والتعرض للضر، لأنه يترتب عليه السقوط أو الكسر، كما أن ثبوت القدم تمكن الرجل من الأرض، وهو تمثيل لاستقامة الحال ودوام السير. ولما كان المقصود تمثيل ما يجره نقض الإيمان من الدخل شبهت حالهم بحال الماشي في طريق بينما كانت قدمه ثابتة إذا هي قد زلت به فصرع. فالمشبه بها حال رجل واحد، ولذلك نكرت ﴿ قَدَمٌۢ ﴾ وأفردت، إذ ليس المقصود قدماً معينة ولا عدداً من الأقدام، فإنك تقول لجماعة يترددون في أمر: «أراكم تقدمون رجلاً

وتؤخرون أخرى» تمثيلاً لحالهم بحال الشخص المتردد في المشي إلى الشيء. وزيادة ﴿ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مع أن الزلل لا يتصور إلا بعد الثبوت لتصوير اختلاف الحالين، وأنه انحطاط من حال سعادة إلى حال شقاء ومن حال سلامة إلى حال محنة.

۞ **قَالَ تعَالَىٰ:** ﴿ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ . (النَّحل : ١٠٠)

قال **ابن عاشور** مبيناً سر قوله: ﴿ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ ﴾ بالمضارع، مع ﴿ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ بالجملة الاسمية: وعبر بالمضارع للدلالة على تجدد التولي، أي الذين يجددون تولّيه، للتنبيه على أنهم كلما تولوه بالميل إلى طاعته تمكن منهم سلطانه، وأنه إذا انقطع التولي بالإقلاع أو التوبة انسلخ سلطانه عليهم. وجعلت الصلة جملة اسمية لدلالتها على الدوام والثبات، لأن الإشراك صفة مستمرة لأن قرارها القلب، بخلاف المعاصي لأن مظاهرها الجوارح، للإشارة إلى أن سلطان الشيطان على المشركين أشد وأدوم لأن سببه ثابت ودائم.

۞ **قَالَ تعَالَىٰ:** ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (النَّحل : ١٠٦)، فقال: ﴿ صَدۡرٗا ﴾ ليدل على عظيم مؤاخذة من شرح أي صدرٍ بالكفر سواءٌ كان صدره أو صدر غيره، ولم يقل: «شرح للكفر صدراً» بل قال: ﴿ بِٱلۡكُفۡرِ ﴾ ليضمنها معنى الرضى والفرح، فكأنه قال: «فرح بالكفر ورضي به وانشرح له صدره».

۞ **قَالَ تعَالَىٰ:** ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ (النَّحل : ١١٢).

قال **ابن عاشور**: والتعبير عن ضرب المثل الواقع في حال نزول الآية بصيغة الماضي للتشويق إلى الإصغاء إليه، وهو من استعمال الماضي في الحال لتحقيق وقوعه، مثل:

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ . أو لتقريب زمن الماضي من زمن الحال، مثل: قد قامت الصلاة، ويجوز أن يكون ﴿ وَضَرَبَ ﴾ مستعملاً في معنى الطلب والأمر، أي اضرب يا محمد لقومك مثلاً قرية إلى آخره، كما سيجيء عند قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ في سورة الزمر. وإنما صيغ في صيغة الخبر توسلاً إلى إسناده إلى الله تشريفاً له وتنويهاً به.

وقال أيضاً: والإذاقة: حقيقتها إحساس اللسان بأحوال الطعوم. وهي مستعارة هنا في مواضع من القرآن إلى إحساس الألم والأذى إحساساً مكيناً كتمكن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعاً. واللباس: حقيقته الشيء الذي يلبس. وإضافته إلى ﴿ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ ﴾ قرينة على أنه مستعار إلى ما يغشى من الإنسان من حالةٍ ملازمةٍ له كملازمة اللباس ... كقوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ ﴾ بجامع الإحاطة والملازمة.

ومن لطائف البلاغة جعل اللباس لباس شيئين، لأن تمام اللبسة أن يلبس المرء إزاراً ودرعاً ولما كان اللباس مستعاراً لإحاطة ما غشيهم من الجوع والخوف وملازمته أريد إفادة أن ذلك متمكن منهم ومستقر في إدراكهم استقرار الطعام في البطن إذ يذاق في اللسان والحلق ويحس في الجوف والأمعاء. فاستعير له فعل الإذاقة تمليحاً وجمعاً بين الطعام واللباس، لأن غاية القرى والإكرام أن يؤدب للضيف ويخلع عليه خلعة من إزار وبرد، فكانت استعارتان تهكميتان. فحصل في الآية استعارتان: الأولى: استعارة الإذاقة وهي تبعية مصرحة، والثانية: اللباس وهي أصلية مصرحة.

ومن بديع النظم أن جعلت الثانية متفرعة على الأولى ومركبة عليها بجعل لفظها مفعولاً للفظ الأول. وحصل بذلك أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم وملازمان لهم وأنّهم بالغان منهم مبلغاً أليماً.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (النحل: ١٢٠).

قال **ابن عاشور**: ونفى كونه من المشركين بحرف ﴿ وَلَمۡ ﴾ لأن «لم» تقلب زمن الفعل المضارع إلى الماضي، فتفيد انتفاء مادة الفعل في الزمن الماضي وتفيد تجدد ذلك

المنفي الذي هو من خصائص الفعل المضارع فيحصل معنيان: انتفاء مدلول الفعل بمادته، وتجدد الانتفاء بصيغته، فيفيد أن إبراهيم عليه السلام لم يتلبس بالإشراك قط، فإن إبراهيم عليه السلام لم يشرك بالله منذ صار مميزاً وأنه لا يتلبس بالإشراك أبداً.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

قال **ابن عاشور**: وقيدت الموعظة بالحسنة ولم تقيد الحكمة بمثل ذلك لأن الموعظة لما كان المقصود منها غالباً ردع نفس الموعوظ عن أعماله السيئة أو عن توقع ذلك منه كانت مظنة لصدور غلظة من الواعظ ولحصول انكسار في نفس الموعوظ، أرشد الله ورسوله أن يتوخى في الموعظة أن تكون حسنة، أي بإلانة القول وترغيب الموعوظ في الخير، قال تعالى خطاباً لموسى وهارون: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ .



سُورَةُ الإِسْرَاءِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** ﴾ (الإسراء: ٢٣).

قال **ابن عاشور**: ووجه تعدد فاعل ﴿ **يَبْلُغَنَّ** ﴾ مُظْهَراً دون جعله بضمير التثنية بأن يقال: «إما يبلغان عندك الكبر»، الاهتمام بتخصيص كل حالة من أحوال الوالدين بالذكر ولم يستغن بإحدى الحالتين عن الأخرى لأن لكل حالة بواعث على التفريط في واجب الإحسان إليهما، فقد تكون حالة اجتماعهما عند الابنَ تستوجب الاحتمال منهما لأجل مراعاة أحدهما الذي الابن أشد حباً له دون ما لو كان أحدهما منفرداً عنده بدون الآخر الذي ميله إليه أشد، والاحتياج إلى ذكر أحدهما في هذه الصورة للتنبيه على وجوب المحافظة على الإحسان له وقد تكون حالة انفراد أحد الأبوين عند الابن أخف كلفة عليه من حالة اجتماعهما، فالاحتياج إلى ﴿ **أَوْ كِلَاهُمَا** ﴾ في هذه الصورة للتحذير من اعتذار الابن لنفسه عن التقصير بأن حالة اجتماع الأبوين أحرج عليه، فلأجل ذلك ذكرت الحالتان وأجرى الحكم عليهما على السواء.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** ﴾ (الإسراء: ٣٢)، فقال: ﴿ **كَانَ** ﴾ ليدل على أنه فحشى الزنا مستقرٌّ في الفِطَر والشرائع منذ عهد التشريع الأول.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا** ﴾ (الإسراء: ٣٣).

قال **ابن عاشور**: ومن نكت القرآن وبلاغته وإعجازه وإشارته الإتيان بلفظ ﴿ **سُلْطَانًا** ﴾ هذا، الظاهر في معنى المصدر، أي السلطة والحق، والصالح لإرادة السلطان، وهو الإمام الذي يأخذ الحقوق من المعتدين إلى المعتدى عليهم حين تنتظم جامعة المسلمين بعد الهجرة. ففيه إيماء إلى أن الله سيجعل للمسلمين دولة دائمة، ولم يكن للمسلمين يوم نزول الآية سلطان.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (الإسراء : ٤٥)، فقال: ﴿ مَّسْتُورًا ﴾ ولم يقل: «ساتراً»، ليدل على وجود الحجاب الذي يستره ﷺ عن غيره، مع كون هذا الحجاب مستوراً عن الأعين فلا يُرى، قال **الشيخ عطية سالم:** والإعجاز أن يكون الحجاب مستوراً عن أعينهم، وهذا أبلغ في حفظ ﷺ منهم؛ لأنه لو كان الحجاب مرئياً أي ساتراً فقط مع كونه مرئياً لربما اقتحموه عليه، وهذا أيضاً أقوى في الإعجاز؛ لأنه لو كان الحجاب مرئياً لكان كاحتجاب غيره من سائر الناس، ولكن حقيقة الإعجاز فيه هو كونه مستوراً عن أعينهم، وهذا ما رجحه ابن جرير.



سُورَةُ الكَهْفِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ (الكهف: ١، ٢)، فقال: ﴿ قَيِّمًا ﴾ بعد نفي العوج عنه، قال **الشنقيطي**: هو تأكيد في المعنى لقوله: ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ لأنّه قد يكون الشيء مستقيماً في الظاهر وهو لا يخلو من اعوجاج في حقيقة الأمر. اهـ.

قلتُ: في قوله: ﴿ قَيِّمًا ﴾ دون «مستقيماً» إفادة لأكثر من معنى، كلٌّ منها صحيح، فقوله: ﴿ قَيِّمًا ﴾ يحتمل معنى الاستقامة، ويحتمل كذلك معنى القيام بمصالح الخلق الدينية والنيوية. ويحتمل كذلك معنى الهيمنة على ما قبله من الكتب السماوية، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨)، ولو قال: «مستقيماً» لدل على معنى الاستقامة فقط.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف: ٦)

قال **الشنقيطي**: «لعل» تكون للترجي في المحبوب وللإشفاق في المحذور، وتكون للنهي، واستظهر أبو حيان أنّها ها هنا للإشفاق عليه ﷺ أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم به، وقال العسكري بأنّها ها هنا للنهي، وهو معنى كلام ابن عطية وهو أظهر الأقوال عندي، وأنّ المراد بها في الآية النهي عن الحزن عليهم، وإطلاق لعل مضمنة معنى النهي في مثل هذه الآية أسلوب عربي يدل عليه سياق الكلام، ومن الأدلة على أنّ المراد بها النهي عن ذلك كثرة ورود النهي صريحاً عن ذلك كقوله: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ (فاطر: ٨)، وقوله: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الحجر: ٨٨)، وقوله: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٦٨) إلى غير ذلك من الآيات. اهـ.

قلتُ: وعليه فها هنا فائدة جليلة في سر اختيار قوله: «لعل» دون صريح النهي، لأنّ النهي لا يبين هل كان الرسول كان مشفقاً عليهم أم لا، ولكن في قوله: «لعل» بيان أنه كان كذلك مع نهيه عن ذلك في نفس الوقت، وهذا من دقائق الكتاب العزيز.

فائدة: قال **الزمخشري**: في قوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم برجلٍ فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم، وتلهفاً على فراقهم!

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾. (الكهف: ٧)

لقد اغتر بزخرف الدنيا وزينتها الذين نظروا إلى ظاهرها دون باطنها فصحبوا الدنيا صحبة البهائم وتمتعوا بها تمتع السوائم همهم تناول الشهوات من أي وجه حصلت فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت قلق لخراب ذاته وفوات لذاته لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات. أفاده **السعدي**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِ﴾ (الكهف: ١٨).

انظر الفرق! كيف نسب الله ـ في سورة الكهف ـ الكلب إلى الفتية لأنهم صالحين بينما في سورة الفيل نسب أبرهة وجيشه إلى الفيل لحقارتهم عند الله، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ (الفيل: ١)، «انظر كتاب تدبر ـ مجموعة (١)».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ (الكهف: ٣٩).

قال **ابن هبيرة**: ما قال له: «قلت ما شاء الله كان» أو «يكون» بل أطلق اللفظ ليعم الماضي والمستقبل والراهن. «ذيل طبقات الحنابلة».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (الكهف: ٤٥).

إنما شبه تعالى الدنيا بماء لأن الماء لا يستقر في موضع كذلك الدنيا لا تبقى على حال واحدة، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعاً منبتاً وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر. أفاده **القرطبي**.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩ - ٣١).

قال في (**الظلال**): ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾... أعددناها وأحضرناها.. فهي لا تحتاج إلى جهد لإبقائها، ولا تستغرق رمقاً لإعدادها! والتعبير هنا بلفظ ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ يلقي ظل السرعة والتهيؤ والاستعداد. والأخذ المباشر إلى النار المعدة المهيأة للاستقبال ! وهي نار ذات سرادق يحيط بالظالمين، فلا سبيل إلى الهروب، ولا أمل في النجاة والإفلات. ولا مطمع في منفذ تهب منه نسمة، أو يكون فيه استرواح. فإن استغاثوا من الحريق والظمأ أغيثوا.. أغيثوا بماء كدردي الزيت المغلي في قول، وكالصديد الساخن في قول! يشوي الوجوه بالقرب منها فكيف بالحلوق والبطون التي تتجرعه ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ الذي يغاث به الملهوفون من الحريق! ويا لسوء النار وسرادقها مكاناً للارتفاق والاتكاء. وفي ذكر الارتفاق في سرادق النار تهكم مرير. فما هم هنالك للارتفاق، إنما هم للاشتواء! ولكنها مقابلة مع ارتفاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات هنالك في الجنان. وشتان شتان! وبينما هؤلاء كذلك إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات عدن للإقامة. تجري من تحتهم الأنهار .... وبهجة المنظر واعتدال النسيم. وهم هنالك للارتفاق حقاً ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ وهم رافلون في ألوان من الحرير. من سندس ناعم خفيف ومن إستبرق مخمل كثيف. تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾. ومن شاء فليختر. ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ومن شاء فليجالس فقراء المؤمنين، وجباهم تفوح منها رائحة العرق أو فلينفر. فمن لم ترضه رائحة العرق من تلك الجباه، التي تضم القلوب الزكية بذكر الله. فليرتفق في سرادق النار، وليهنأ بدردي الزيت أو القيح يغاث به من النار.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: في معرض ذكر قصة موسى مع الخضر: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ (الكهف: ٦٦)، فقال له موسى: ﴿ تُعَلِّمَنِ ﴾ بكسر النون ولم يقل: «تعلمني» بالياء بينما قال له الخضر: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ (الكهف: ٧٠)، فقال: ﴿ ٱتَّبَعۡتَنِي ﴾ بالياء، ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي ﴾ أيضاً بالياء، وفي ذلك دقة بالغة لأنّ الحذف يدل على عدم المبالغة والإلحاح، فناسب أن يقول له موسى عليه السلام وهو طالب العلم: ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ بحذف الياء ليدل على أنه لن يلازمه ملازمة الثقيل المبالغ، ولن يوقعه في تعلمه منه في حرجٍ أو مشقة، وأمّا الخضر فهو المعلِّم فناسب أن يقول لموسى: ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي ﴾ بزيادة الياء ليدل على أنّ طالب العلم ينبغي له أن يلازم شيخه ولا يفارقه ليكمل انتفاعه به، كما أنّ موسى رجلٌ حييٌ ـ كما في الحديث الصحيح ـ فناسب أن يخبره الخضر بأنّه لن يتضايق ولن يتضرر من ملازمة موسى له حتى لا يتحرج موسى من ذلك، فما أعظم علمهما بآداب العلم وطلبه!!

وقال له الخضر: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي ﴾ بزيادة الياء لبيان أنّ طالب العلم ينبغي له أن يسأل عالمه حتى تتضح له المسألة و لا يكتفِ بالفهم السطحي لمسائل العلم، ولمّا كان المعلم قد يتضايق من ذلك، قال له الخضر: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي ﴾ بزيادة الياء ليعلمه أنّه لن يتضايق من ذلك بل يرحب به ولكن لا يبادر موسى بالسؤال حتى يبين له وجه ما يراه منه أو قال له ذلك لعلمه بأنّ ما سيراه موسى معه ممّا سيضيق ذرعاً منه، فلا حرج على موسى إن سأل سؤال مستفهمٍ وأمّا سؤال المنكِر المبالغ ـ كما حدث من موسى ـ فلا، ولذا قال تعالى لنوح عليه السلام لما سأله عن إغراقه لابنه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (هود: ٤٥، ٤٦)، فقال له: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ ﴾ بكسر النون وحذف الياء ليدل على نهيه عن مجرد السؤال عن هذا الأمر، فما أحلى القرءان!!

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴾ (الكهف: ٧١).

هنا ملمح لطيف فموسى عليه السلام قال: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يقل: «تغرقنا» فلم يذكر نفسه ولا صاحبه رغم أنهما كانا على ظهر السفينة؛ لأن هذه أخلاق الأنبياء يهتمون بأوضاع الناس أكثر من اهتمامهم بأنفسهم عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين. أفاده د. **عويض العطوي** «تدبر ـ المجموعة (١)».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٧٩).

قال **ابن عاشور**: والمعنى ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقد فعلت وإنما لم يقل: «فعبتها» ليدل على أن فعله وقع عن قصد وتأمل وقد تطلق الإرادة على القصد أيضاً وفي **اللسان** عزو ذلك إلى سيبويه.



سُورَةُ مَرْيَمَ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (مريم: ٢ – ٤)، فكانت الفاصلة: ﴿ زَكَرِيَّآ ...... خَفِيًّا ...... شَيْبًا ...... شَقِيًّا ﴾ ، وكذا في قصة مريم: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ (مريم: ١٦ – ١٨)، فكانت الفاصلة: ﴿ شَرْقِيًّا ...... سَوِيًّا ...... تَقِيًّا ﴾، وكذا في الكلام على أول قصة عيسى: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (مريم: ٣٠ – ٣٣)، فكانت الفاصلة: ﴿ حَيًّا ...... شَقِيًّا ...... حَيًّا ﴾ ، فلمّا ذكر الردّ على من زعم إلهية عيسى تغيرت الفاصلة: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (مريم: ٣٤ – ٤٠)، وهذه فاصلة طويلة: ﴿ يَمْتَرُونَ ...... فَيَكُونُ ...... مُّسْتَقِيمٌ ...... عَظِيمٍ ﴾ وهذه الكلمات تمد بمقدار حركتين أو أربع أو ست «مد عارض للسكون»، فلمّا ذكر قصة إبراهيم عادت الفاصلة: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ

لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ (مريم: ٤١ - ٤٥)، ولعل سر ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ الكلام عل قصة زكريا ومريم وإبراهيم كان مختصراً، فناسب أن تكون الفاصلة من غير مدّ، بينما الرد على من زعم إلهية عيسى فيه ذكرٌ للأدلة فناسب هذه الفاصلة التي فيها إطالة، كما أنّ هذه الفاصلة التي فيها مدّ تناسب التأمّل والتفكر في أمر عيسى الذي تدعو إليه هذه الآيات.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ (مريم: ٤).

قال **ابن عاشور**: وشبه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود تشبيهاً مركباً تمثيلياً قابلاً لاعتبار التفريق في التشبيه وهو أبدع أنواع المركب، فشبه الشعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار على طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل ﴿وَٱشۡتَعَلَ﴾ وأسند الاشتعال إلى الرأس وهو مكان الشعر الذي عمه الشيب لأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعم اللحية غالباً فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن. وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي لأن الاشتعال من صفات النار المشبه بها الشيب فكان الظاهر إسناده إلى الشيب فلما جيء باسم الشيب تمييزاً لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته وخصوصية التفضيل بعد الاحتمال مع إفادة تنكير ﴿شَيۡبٗا﴾ من التعظيم فحصل إيجاز بديع وأصل النظم المعتاد واشتعل الشيب في شعر الرأس. ولما في هذه الجملة من الخصوصيات من مبنى المعاني والبيان كان لها أعظم وقعٍ عند أهل البلاغة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ (مريم: ٢٥).

قال **ابن عاشور**: **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ قال ابن عاشور: فائدة أمرها بالتحريك أن يكون إثمار الجذع اليابس رطباً ببركة تحريكها إياه وتلك كرامة

أخرى لها ولتشاهد بعينها كيف يثمر الجذع اليابس رطباً، وفي ذلك كرامة لها بقوة يقينها بمرتبتها. والباء في ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتوكيد لصوق الفعل بمفعوله مثل: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، وضمن ﴿وَهُزِّيٓ﴾ معنى قربي أو أدني فعدَّى بـ «إلى» أي حركي جذع النخلة وقربيه يدن إليك ويلن بعد اليبس ويسقط عليك رطباً. والمعنى أدني إلى نفسك جذع النخلة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (مريم: ٢٦)، فقال: ﴿صَوْمًا﴾ بينما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣)، فقال: ﴿ٱلصِّيَامُ﴾، قال **د. فاضل:** الصوم في آية سورة مريم بمعنى الصمت، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن في غير هذا الموطن، وكأنها لما كانت بمعنى الصمت جيء بها على وزنه وخصها الله به، وأمّا ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ فقد وردت في تسعة مواطن من القرآن الكريم كلها بمعنى العبادة المعروفة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (مريم: ٤٩).

قال **ابن عاشور:** وإنما اقتصر على ذكر إسحاق ويعقوب دون ذكر إسماعيل فلم يقل: «وهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب» لأن إبراهيم لما اعتزل قومه خرج بزوجه سارة قرينته فهي قد اعتزلت قومها أيضاً إرضاءً لربها ولزوجها، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم ولزوجه وهي أن وهب لهما إسحاق وبعده يعقوب. ولأن هذه الموهبة لما كانت كفاء لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه كانت موهبة من يعاشر إبراهيم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب. أما إسماعيل فقد أراد الله أن يكون بعيداً عن إبراهيم في مكة ليكون جار بيت الله ـ وإنه لجوار أعظم من جوار إسحاق ويعقوب أباهما.

سُورَةُ طه

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (طه: ٦٦ - ٧٦).

قال في (**الظلال**): ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾، والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى، ومعه ربه يسمع ويرى. وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ .. لا تخف إنك أنت الأعلى. فمعك الحق ومعهم الباطل. معك العقيدة ومعهم الحرفة. معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة. أنت متصل بالله ذي القوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً مهما يكن طاغية جباراً. لا تخف ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ بهذا التنكير للتضخيم ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ . فهو سحر من تدبير ساحر وعمله. والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار، لأنه يتبع تخييلاً ويصنع تخييلاً؛ ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية. شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق. وقد يبدو باطله ضخماً فخماً، مخيفاً لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبختر ولا تتطاول ولا تتظاهر؛ ولكنها تدمغ الباطل في النهاية، فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه، فإذا هو يتوارى.

وألقى موسى.. ووقعت المفاجأة الكبرى. والسياق يصور ضخامة المفاجأة بوقعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها، والذين كانوا منذ لحظة يُحمِّس بعضهم بعضاً ويدفع بعضهم بعضاً. والذين بلغت بهم البراعة في فنهم إلى حد أن يوجس في نفسه خيفة موسى. ويخيل إليه ـ وهو الرسول ـ أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى ! يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم ووجدانهم، لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه؛ ولا يكفي النطق للإفضاء به. ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ .. إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان.

ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم، نسوا أن الله هو مقلب القلوب؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان. ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ .. ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ ... قولة الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون ـ وقد لمس الإيمان قلوبهم ـ أن يدفعوه عنها، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء. ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ ... فذلك سر الاستسلام في نظره، لا أنه الإيمان الذي دب في قلوبهم من حيث لا يحتسبون. وإنّه للرحمن يكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال. ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة؛ ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾. ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة. قوة الوحوش في الغابة. القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ ! ولكنه كان قد فات الأوان. كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل. فإذا هي قوية قويمة. وإذا القوى الأرضية كلها

ضئيلة ضئيلة. وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة. وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل. ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه. ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.. إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنماً يتسابق إليه المتسابقون. فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه. ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ فهي علينا أعز وأغلى وهو جل شأنه أكبر وأعلى. ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ ودونك وما تملكه لنا في الأرض. ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾. فسلطانك مقيد بها، ومالك من سلطان علينا في غيرها. وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا. وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله، ويأمل في الحياة الخالدة أبداً. ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصياناً؛ فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا خطايانا. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ خير قسمة وجواراً، وأبقى مغنماً وجزاء. إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى.. وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلِّم المستعلي. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ . فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى. فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرماً هي أشد عذاباً وأدوم ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حي فيتمتع. إنها هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة.. وفي الجانب الآخر الدرجات العلى.. جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وتطهر من الآثام. وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر، وواجهته بكلمة الإيمان القوية. وباستعلاء الإيمان الواثق. وبتحذير الإيمان الناصع. وبرجاء الإيمان العميق.

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ (الأنبياء : ١)، فزاد ﴿ مُّعۡرِضُونَ ﴾ لأنّ الغفلة لا يكاد ينفك عنها أحد، فمقلٌّ ومستكثر، ولكن المؤمن يرجع إلى ربه ويتوب من غفلته وينيب، وأمّا الجاهل فيعرض ويستمر في الغفلة ويزداد غياً وضلالاً.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٥).

قال **ابن عاشور**: شبهوا بزرع حُصد أي بعد أن كان قائماً على سوقه خضراً فهو يتضمن تشبيههم قبل هلاكهم بزرع في حسن المنظر والطلعة كما شبه بالزرع في قوله تعالى: ﴿ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ في سورة الفتح. ويقال للناشئ: أنبته الله نباتاً حسناً قال تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ في سورة آل عمران. فللإشارة إلى الشبيهين شبه البهجة وشبه الملك أوثر تشبيههم حين هلاكهم بالحصيد وكذلك شبهوا حين هلاكهم بالنار الخامدة فتضمن تشبيههم قبل ذلك بالنار المشبوبة في القوة والبأس كما شبه بالنار في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارًا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ في سورة المائدة وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا ﴾ في سورة البقرة فحصل تشبيهان بليغان.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء : ٧٩)، فبدء بتسبيح الجبال، ولم يقل: «وسخرنا مع داود الجبال والطير يسبحن»، وفي ذلك دقة بالغة، لأنّ الجبال جماد فتسبيحه أدل على القدرة من الطير الذي هو حيوان، وله حياة كاملة، وفصل بينهما لأنّ تسبيح الجبال غير تسبيح الطير، ولم يجمع بينهما بقوله: «وسخرنا مع داود الجبال والطير يسبحن» لئلا يُظنّ أنّ تسبيحهما بطريقة واحدة متشابهة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا** ﴾ (الأنبياء : ٨٧) بينما قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ** ﴾ (القلم : ٤٨).

فأضاف كلمة ﴿ **وَذَا** ﴾ إلى النون وكلمة ﴿ **كَصَاحِبِ** ﴾ إلى الحوت والمقصود واحد وهو يونس عليه السلام وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أن النون اسم للحوت العظيم وكلمة ﴿ **وَذَا** ﴾ تطلق مع ما يدل على العظمة. أفاده د. **عويض العطوي** «تدبر ـ المجموعة (١)».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ** ﴾ (الأنبياء : ٩٤)، فقال: ﴿ **كُفْرَانَ** ﴾ بينما قال: ﴿ **فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا** ﴾ (الإسراء : ٨٩)، وقال أيضاً: ﴿ **فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا** ﴾ (الإسراء : ٩٩)، فقال: ﴿ **كُفُورًا** ﴾، قال **د. فاضل**: الكفران أكثر استعمالاً في حجود النعمة، والكفر في الدين، والكُفور فيهما جميعاً، فقال في سورة الأنبياء: ﴿ **كُفْرَانَ** ﴾ لأنّ المراد نفي جحود السعي، وأمّا الآيات الأخرى، فالمراد بيان الجحود وكفر الدين معاً.

۞۞۞

سورة الحج

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (الحج: ٣٠).

قال ابن عاشور: وجيء بالمضارع في قوله: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ ليشمل ما نزل من القرآن في ذلك مما سبق نزول سورة الحج لأنّه تلى فيما مضى ولم يزل يتلى ويشمل ما عسى أن ينزل من بعد مثل قوله: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ ﴾ الآية في سورة العقود (المائدة).

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الحج: ٣٤، ٣٥).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قال: المطمئنين.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن أوس ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قال: المخبتون الذين لا يظلمون الناس وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قال: المتواضعين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قال: الوجلين.

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا رأى الربيع بن خثيم قال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ وقال له: ما رأيتك إلا ذكرت المخبتين.

سُورَةُ المُؤمِنُونَ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١، ٢).

قال د. **فاضل**: إن السورة مشحونة بجو الخشوع بشقيه سواء ما يتعلق بالقلب أو ما يتعلق بالجوارح وبالدعوة إليه بكل أحواله، فقد كرر الدعوة إلى التقوى، والتقوى أمر قلبي وهي من لوازم الخشوع فقال: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٢٣، ٣٢، ٨٧). وقال: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾.

والخشية والإشفاق أمر قلبي وهما من لوازم الخشوع وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾. والوجل أمر قلبي وهو من لوازم الخشوع أيضاً وذكر الكفار وذمهم بقوله: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ (المؤمنون: ٦٣) وهذه الغمرة تمنعها من الخشوع والخضوع والإعراض عما سوى الله تعالى وذكر القلوب ههنا أمر له دلالته فلم يقل: ﴿ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ كما في مكان آخر من القرآن الكريم «الذاريات» بل قال: ﴿ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ والقلب هو موطن الخشوع ومكانه فإن كان هذا القلب في غمرة فكيف يخشع؟ وقال في ذم الكفار: ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧٦) فلم يخشعوا لأن الخاشع مستكين لربه متضرع متذلل إليه وقال: ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾ والاستكبار والعلو مناقضان للخشوع؛ إذ الخشوع تطامن وتذلل وخضوع لله رب العالمين. فبدء السورة بالخشوع هو المناسب لجو السورة ثم إن البدء به له دلالة أخرى ذلك أنه ورد في الآثار أن الخشوع أول ما يُرفَعُ من الناس. وقد جاء عن عبادة بن الصامت أنه قال: يوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً. وعن حذيفة أنه قال: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة وتنقض عرى الإسلام عروة عروة. فبدأ بما يُرفع أولاً وختم بما يرفع آخراً وهو الصلاة فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ ثم انظر كيف جاء بالخشوع بالصيغة الاسمية

الدالة على الثبات ولم يقل: «يخشعون» للدلالة على أنه وصف لهم دائم في الصلاة غير عارض فإن الصلاة إذا ذهب منها الخشوع كانت ميتة بلا روح.

وذكر سبحانه الصلاة أولاً مفردة ﴿صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ثمّ ذكر ثانياً مجموعة ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، قال د. **فاضل**: جاء في «الكشاف»: وقد وحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت وجمعت آخراً لتفاد المحافظة على أعدادها وهي: الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة على كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف وصلاة الضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل. واستعمال الجمع مع المحافظة أنسب شيء للدلالة على المحافظة عليها بأجمعها.

وقد جيء بالفعل المضارع فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بخلاف ما مر من الصفات للدلالة على التجدد والحدوث لأن الصلوات لها مواقيت وأحوال تحدث وتتجدد فيها فيصلي لكل وقت وحالة فليس فيها من الثبوت ما في الأوصاف التي مرت؛ فهناك فرق مثلاً بينها وبين قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ لأن الخشوع ينبغي أن يكون مستمراً ثابتاً في الصلاة لا ينقطع فهو صفة ثابتة فيها، وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ فإنه ينبغي أن يكون الإعراض عن اللغو دائماً مستمراً لا ينقطع، وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ فإن حفظ الفروج ثابت دائم. وأما العطف بالواو في كل صفة من هذه الصفات فللدلالة على الاهتمام بكل صفة على وجه الخصوص وهذا ما تفيده الواو من عطف الإخبار والصفات.

جاء في (**تفسير فتح القدير**): وكرر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقل بموصوف متعدد.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.
(المؤمنون: ٢، ٣)

قال **ابن عاشور**: وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع وخاصة إذا كان في حال الصلاة لأن الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها، إذ الخشوع محله القلب فليس من أفعال الصلاة ولكنه يتلبس به المصلي في حالة صلاته وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له. وهذا من آداب المعاملة مع الخالق تعالى وهي رأس الآداب الشرعية ومصدر الخيرات كلها.

وعقب ذكر الخشوع بذكر الإعراض عن اللغو لأن الصلاة في الأصل الدعاء، وهو من الأقوال الصالحة، فكان اللغو مما يخطر بالبال عند ذكر الصلاة بجامع الضدية، فكان الإعراض عن اللغو بمعنيي الإعراض مما تقتضيه الصلاة والخشوع لأن من اعتاد القول الصالح تجنب الباطل ومن اعتاد الخشوع لله تجنب قول الزور.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ** ﴾ (المؤمنون : ٤)، فقال: ﴿ **فَٰعِلُونَ** ﴾، ولم يقل: «مؤدون»، ولا «مؤتون»، وفي هذا دقة تعبيرية بالغة؛ قال **د. فاضل**: وجه ذلك أنَّ «الزكاة» اسم مشترك بين عدة معان فقد يطلق على القَدْر الذي يخرجه المزكي من ماله إلى مستحقه أي قد تطلق على المال المخرج وقد يطلق على المصدر بمعنى التزكية وهو الحدث والمعنى إخراج القدر المفروض من الأموال إلى مستحقه وقد تكون بمعنى العمل الصالح وتطهير النفس من الشرك والدنس كما قال تعالى: ﴿ **فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا** ﴾ (الكهف : ٨١)، وقال: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ** ﴾ (الأعلى : ١٤، ١٥)، وقال: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾ (الشمس : ٩، ١٠). أي أفلح من طهر نفسه وخلصها من الدنس والسوء. وهذه المعاني

مجتمعة يصح أن تكون مرادة في هذا التعبير ذلك أنه يصح أن يكون المعنى والذين هم يؤدون الزكاة وذلك على تضمين ﴿ فَـٰعِلُونَ ﴾ معنى «مؤدون» أو على تقدير مضاف محذوف أي والذين هم لأداء الزكاة فاعلون فأصل الكلام على هذا المعنى «والذين هم فاعلون الزكاة» فالزكاة مفعول به لاسم الفاعل ﴿ فَـٰعِلُونَ ﴾ ثم قدم المفعول للاختصاص فصار ﴿ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴾ كما تقول: «أنا زيداً ضارب» ثم زيدت اللام لتوكيد الاختصاص وهو قياس مع مفعول اسم الفاعل تقدم أو تأخر كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (البقرة: ٩١) ونسمي هذه اللام لام التقوية وبهذين التقديرين يكون المقصود بالزكاة اسم العين وهو المال الذي يُخرج لمستحقه ويصح أن تكون «الزكاة» بمعنى التزكية وهو الحدث أي فعل المزكي فيكون ﴿ فَـٰعِلُونَ ﴾ بمعناها فيكون أصل التعبير «فاعلون الزكاة» ومعنى «فعل الزكاة» زكى أو أخرج الزكاة كما يقال للضارب فعل الضرب.

وقال د. **فاضل** أيضاً: فالزكاة إذن تحتمل العبادة المالية وتحتمل العمل الصالح والتطهير والنماء واللام تحتمل التقوية وتحتمل التعليل وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة فهو يريد الذين يؤدون الزكاة ويفعلون العمل الصالح وتطهير النفس ويفعلون من أجل ذلك ولا تجتمع هذه المعاني في أي تعبير آخر فلو أبدل كلمة «مؤتون» مكان ﴿ فَـٰعِلُونَ ﴾ لاقتصر الأمر على زكاة المال ولو حذف اللام لم يفد معنى التعليل. فانظر كيف جمع عدة معان بأيسر سبيل وقد تقول ولِمَ لَمْ يقل: «والذين هم للصلاة فاعلون» كما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴾ ؟

والجواب: إن إخراج النصاب إلى مستحقه كاف لأداء فريضة الزكاة وليس وراءه شيء يتعلق بها فإن لم يفعل ذلك فلا زكاة. أما فعل الصلاة من قيام وقعود وركوع وسجود مع هيئاتها الأخرى فليس كافٍ بل ينبغي أن يكون مع ذلك خشوع وتدبر وحضور قلب وسنن وآداب تكمل هذه الأفعال الظاهرة وتتمها ولذلك قال ﷺ: «**لك من صلاتك ما عقلت منها**». فاتضح الفرق بينهما.

ويصح أن تكون الزكاة بمعنى العمل الصالح وتطهير النفس فيحتمل أن تكون اللام زائدة مقوية دخلت على المفعول به «الزكاة» فيكون معنى «فعل الزكاة» فعل العمل الصالح وتطهير النفس كما يقال: «فعل خيراً أو فعل شراً» فيكون معنى الآية «الذين هم فاعلون العمل الصالح وتطهير النفس» واللام زائدة في المفعول ويسمونها مقوية وهي تفيد توكيد الاختصاص في المفعول المقدم أي لا يفعلون إلا ذاك. ويحتمل أن تكون اللام لام التعليل أي يفعلون من أجل الزكاة أي هم عاملون من أجل تزكية نفوسهم وتطهيرها والمفعول محذوف فيكون الفعل عاماً وهو كل ما يؤدي إلى الخير وتطهير النفس.

وجاء في (**روح المعاني**): وعن أبي مسلم أن الزكاة هنا بمعنى العمل الصالح كما في قوله تعالى: ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ (الكهف: ٨١) واختار **الراغب** أن الزكاة بمعنى الطهارة واللام للتعليل والمعنى والذين يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله تعالى أو يزكوا أنفسهم.

قال صاحب (الكشاف) معنى الآية الذين هم لأجل الطهارة وتزكية النفس عاملون الخير ويرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥) و﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ٩).

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ** ﴾ (المؤمنون: ٨).

وفيها فوائد تعبيرية نفيسة، قال **د. فاضل**: جاء في «البحر المحيط»: والأمانة الظاهر أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن ودين ودنيا والشرع كله أمانة وهذا قول الجمهور، ولذلك قال أبي بن كعب: من الأمانة أن اؤتمنت المرأة على فرجها.

وفي الحديث: «**المؤذن مؤتمن**» يعني أن المؤذن أمين الناس على صلاتهم وصيامهم فصلاة الناس وصيامهم أمانة عنده وفي الحديث أيضاً: «**المجالس بالأمانة**» وهذا ندب إلى ترك إعادة ما يجري في المجلس من قول أو فعل فكان ذلك أمانة عند من سمعه أو رآه. والأمانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان وقد جاء في كل منها

حديث وفي الحديث: «**الإيمان أمانة ولا دين لمن لا أمانة له**» وفي حديث آخر: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**» وفي الحديث: «**استودع الله دينك وأمانتك**» أي: أهلك ومن تخلفه بعدك منهم ومالك الذي تودعه.

وجاء في «**روح المعاني**» في قوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ**﴾ ... الآية عند أكثر المفسرين عامة في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الناس كالتكاليف الشرعية والأموال المودعة والأيمان والنذور والعقود ونحوها. وجمعت الأمانة دون العهد قيل لأنها متنوعة متعددة جداً بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك ولا كذلك العهد. وجاء فيه أيضاً: وكأنه لكثرة الأمانة جمعت ولم يُجمع العهد قيل إيذاناً بأنه ليس كالأمانة كثرة وقيل لأنه مصدر. ويدل على كثرة الأمانة ما روى الكلبي: كل أحد مؤتمن على ما افترض عليه من العقائد والأقوال والأحوال والأفعال ومن الحقوق في الأموال وحقوق الأهل والعيال وسائر الأقارب والمملوكين والجار وسائر المسلمين. وقال السدي: إن حقوق الشرع كلها أمانات قد قبلها المؤمن وضمن أداءها بقبول الإيمان. وقيل كل ما أعطاه الله تعالى للعبد من الأعضاء وغيرها أمانة عنده فمن استعمل ذلك في غير ما أعطاه لأجله وأذن سبحانه له به فقد خان الأمانة.

أما اختيار كلمة ﴿**رَٰعُونَ**﴾ مع الأمانة والعهود دون «الحفظ» الذي استخدم مع الفروج فله سبب لطيف ذلك أن ﴿**رَٰعُونَ**﴾ اسم فاعل من رعى وأصل الرعي حفظ الحيوان وتولي أمره وتفقد شأنه. جاء في (**الكشاف**): والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية ويقال من راعي هذا الشيء؟ أي متوليه وصاحبه.

وجاء في (**روح المعاني**) تفسير ﴿**رَٰعُونَ**﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها وأصل الرعي حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذب العدو عنه ثم استعمل في الحفظ

مطلقاً. فالرعي ليس مجرد الحفظ بل هو الحفظ والإصلاح والعناية بالأمر وتولي شأنه وتفقد أحواله وما إلى ذلك وهذا فيما يتعلق بالأمانة كثير إذ ليس مجرد الحفظ كافياً فمن ائتمن عندك أهله وصغاره فلا بد من أن تتفقد أمورهم وتنظر في أحوالهم وحاجاتهم علاوة على حفظهم وكذلك من تولى أمر الرعية ونحوه من اؤتمن على زرع أو ضرع وكذلك ما حمَّله الله للإنسان.

ثم إن اختيار كلمة ﴿ رَٰعُونَ ﴾ بالصيغة الاسمية دون الفعلية له سببه فإنه لم يقل: «يرعون» ذلك ليدل على لزوم وثبات الرعي ودوامه وعدم الإخلال به البتة. وأما تقديم الأمانة والعهد على ﴿ رَٰعُونَ ﴾ فللاهتمام والعناية بأمرهما وللدلالة على أنهما أولى من يُرعى في هذه الحياة. وزيادة اللام تفيد الزيادة في الاختصاص وتوكيده، وتفيد فائدة أخرى إلى جانب ما ذكرت؛ ذلك أن كلمة «الراعي» قد تكون بمعنى الصاحب تقول: «من راعي هذا الدار؟» و«من الراعي لهذه الدار؟» أي من صاحبها ومتولي أمرها؟ فيكون المعنى على هذا: والذين هم أصحاب الأمانات والعهود أي هم أهلها ومتولوها ولو قيل بدل ذلك: الذين هم يرعون الأمانة والعهود لم تُفِدّ هذه الفائدة الجليلة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٥).

فأكد الموت بـ«إنّ»، واللام ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ بينما قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٦)، فأكد البعث بـ «إنّ» وحدها، وذلك لحكمٍ بالغة، قال د. **فاضل**: جاء في (**روح المعاني**): ولم يؤكد سبحانه أمر البعث تأكيده لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه والمنكرين له اكتفاء بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد من خلقه تعالى الإنسان من سلالة من طين ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقاً آخر يستغرق العجائب ويستجمع الغرائب فإن في ذلك أدل دليل على حكمته وعظيم قدرته عز وجل.

وقال في (**روح المعاني**) كذلك: ولـمّـا تضمنت الجملة السابقة المبالغة في أنه تعالى شأنه أحكم خلق الإنسان وأتقنه أبلغ سبحانه عز وجل في تأكيد الجملة الدالة على موته

مع أنه غير منكر لما أن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وسمع أن الله جل جلاله أحكم خلق الإنسان وأتقنه غاية الإتقان. وهذا وجه دقيق لزيادة التأكيد في الجملة الدالة على الموت وعدم زيادته في الجملة الدالة على البعث.

وجاء في (**روح المعاني**) أيضاً: وقيل إنما بولغ في القرينة الأولى لتمادي المخاطبين في الغفلة فكأنهم نزلوا منزلة المنكرين لذلك وأخليت الثانية لوضوح أدلتها وسطوح براهينها، وربما يقال إن شدة كراهة الموت طبعاً التي لا يكاد يسلم منها أحد نزلت منزلة شدة الإنكار فبولغ في تأكيد الجملة الدالة عليه وأما البعث فمن حيث إنه حياة بعد الموت لا تكرهه النفوس ومن حيث إنه مظنة للشدائد تكرهه. فلما لم يكن حاله كحال الموت ولا كحال الحياة بل بين بين أكدت الجملة الدالة عليه تأكيداً واحداً.

وجاء في (**البحر المحيط**): إنه إنما بولغ في تأكيد الموت تنبيهاً للإنسان أن يكون الموت نُصْبَ عينيه ولا يغفل عن تَرَقُّبِه فإن مآله إليه فكأنه أكدت جملته ثلاث مرار لهذا المعنى لأن الإنسان في الحياة الدنيا يسعى فيها غاية السعي ويؤكد ويجمع حتى كأنه مُخَلّدٌ فيها فنبه بذكر الموت مؤكداً مبالغاً.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ** ﴾ (المؤمنون: ٣٥، ٣٦).

قال **ابن عاشور**: وجاء هنا فعل ﴿ **تُوعَدُونَ** ﴾ من «أوعد» وجاء قبله فعل ﴿ **أَيَعِدُكُمْ** ﴾ وهو من «وَعَدَ» مع أن الموعود به شيء واحد. قال الشيخ ابن عرفة: «لأن الأول راجع إليهم في حال وجودهم فجعل وعدا، والثاني راجع إلى حالتهم بعد الموت والانعدام فناسب التعبير عنه بالوعيد».

وأقول: أحسن من هذا أنه عبر مرة بالوعد ومرة بالوعيد على وجه الاحتباك، فإن إعلامهم بالبعث مشتمل على وعد بالخير إن صدقوا وعلى وعيد إن كذبوا، فذكر الفعلان على التوزيع إيجازاً.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ **إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ** ﴾ (المؤمنون: ١٠٩ - ١١١)، فقال: ﴿ **سِخْرِيًّا** ﴾ بياء النسب ولم يقل مثلاً: «سُخريةً»، وذلك لأنّ ياء النسب تدل على زيادة في الفعل، كما قيل في الخصوصية بمعنى الخصوص، أفاده **الزمخشري**. قال **الشنقيطي**: ومعناه: أنّ الياء المشددة في آخره تدل على زيادة سخرهم منهم ومبالغتهم في ذلك.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ **وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ** ﴾ (إبراهيم: ١٧).

أورد في **(الدر المنثور)** عن بعضهم أنّ المعنى: من كل عظمٍ وعرقٍ وعصب، وأورد أيضاً: من كل موضع شعرة في جسده.

قلتُ: فيالها من آية مخوّفة لمن تأملها.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ **رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ** ﴾ (إبراهيم: ٤١).

روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: ما يسرني بنصيبي من دعوة نوح وإبراهيم للمؤمنين والمؤمنات حمر النعم.

قلتُ: فما أحلاها من كلمة تزيد رجاء القلب وتُشعر العبد بالانتماء للأنبياء والرسل وعباد الله الصالحين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الحجر: ٨٧، ٨٨).

قال في **(الدر المنثور)**: أخرج ابن المنذر عن سفيان بن عُيينة قال: من أُعطي القرآن ثمّ نظر إلى شيء من الدنيا، فقد صغّر القرءان. ألم تسمع قول الله: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** ﴾ (الحجر: ٨٧،٨٨)، وقوله: ﴿ **وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ (طه: ١٣١)، قال: رزق ربك يعني القرءان.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

قال في (**الدر المنثور**): مرّ عليّ بن أبي طالب بقوم يتحدثون عن المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله عزّ وجل ذاك في كتابه؟ إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، فالعدل و الإنصاف والإحسان والتفضل، فما بقي بعد هذا؟! وقال الشعبي: قال عيسى بن مريم: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك. وسأل عمر بن عبد العزيز محمداً بن كعب القرظي عن العدل فقال: كُن لصغير الناس أباً ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسادهم، ولا تضربن بغضبك سوطاً واحداً متعدياً فتكون من العادين. أ.هـ . ملخصاً.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ (الكهف: ١٣).

أورد في (**الدر المنثور**) عن ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلّا وهو شاب ولا أوتي العلم عالم إلّا وهو شاب، وقرأ: ﴿**قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ**﴾ (الأنبياء: ٦٠)، و﴿**وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ**﴾ (الكهف: ٦٠)، و﴿**إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ**﴾ (الكهف: ١٣).

سُورَةُ النُّورِ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (النور : ٣١)، فقال: ﴿ ٱلطِّفْلِ ﴾ بالإفراد بينما قال: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (النور : ٥٩)، فقال: ﴿ ٱلْأَطْفَـٰلُ ﴾، ووجه ذلك أنّ المذكورين في الآية الأولى أشخاص متعدِّدوا الإحساس والمواقف بالنسبة إلى الجنس والزينة، فكل واحد له إحساس خاصٌّ به فناسب أن يقول: ﴿ ٱلْأَطْفَـٰلُ ﴾، وأمّا الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، فموقفهم واحدٌ متجانس، وهو عدم التمييز، فكأنهم شخصٌ واحد لا تمايز بينهم، فأفردهم وجعلهم كأنهم شخص واحد، ولذا قال في الثانية: ﴿ ٱلطِّفْلِ ﴾، أفاده د. **فاضل السامرائي** وهو كلامٌ نفيس.

قلتُ: وكذا يقال في سر إفراد ﴿ طِفْلًا ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ (الحج : ٥)، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ (غافر : ٦٧)، وذلك أنّ الأطفال كلّهم في هذه المراحل الخلقية واحد، فكأنّهم طفل واحد.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور : ٣١)، فقال: ﴿ جَمِيعًا ﴾ ولم يقل: «كلّكم» مثلاً بل قال: ﴿ جَمِيعًا ﴾ ليدل على أنّ الفلاح التام منوط بتوبة الكل جميعاً، وإلّا فتأخر البعض عن التوبة ـ ولو تاب الباقي ـ سببٌ لنزول البلاء على المسلمين، وفي قصة موسى عليه السلام المشهورة عند القصاص والوعاظ،

وفيها أنه لما خرج يستسقي وكان فيهم عبدٌ غير تائب لم يسقهم الله حتى تاب، فسقاهم، فلربما نزل البلاء أو رفع الخير بسبب ذنبٍ واحدٍ من عموم المسلمين، وهمّ النبي ﷺ بإخبار أصحابه بليلة القدر فتلاحى رجلان فرفعت !!

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥).

وقد أورد السيوطي رحمه الله درراً من أقوال السلف في تفسير هذا المثل العظيم من أمثلة القرءان، فأوردتُ أكثرها، قال رحمه الله:

وأخرج أبو داود والنسائي والبيهقي عن زيد بن أرقم قال: سمعت النبي ﷺ يقول في دبر صلاة الغداة وفي دبر الصلاة: «**اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد بأنك أنت الرب وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة، اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة في الدنيا والآخرة، ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب، الله أكبر الله أكبر الله نور السموات والأرض، الله أكبر الله أكبر حسبي الله ونعم الوكيل، الله أكبر الله أكبر**». (ولكنه ضعيف).

وأخرج الطبراني عن سعيد بن جبير قال: كان ابن عباس يقول: اللهم إني أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض أن تجعلني في حرزك وحفظك وجوارك وتحت كنفك. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبر الأمر فيهما، نجومهما، وشمسهما، وقمرهما.

وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي أعطاه المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ مثل الكوّة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا

﴿كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ في سفح جبل لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ قال: أعمال الكفار إذا جاؤا رأوها مثل السراب إذا أتاه الرجل قد احتاج إلى الماء فأتاه فلم يجد شيئاً. فذلك مثل عمل الكافر يرى أن له ثواباً وليس له ثواب ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ إلى قوله: ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ فذلك مثل القلب الكافر ظلمة فوق ظلمة.

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف عن الشعبي قال: في قراءة أُبي بن كعب «مثل نور المؤمن كمشكاة».

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يقول: مثل نور من آمن بالله كمشكاة قال: وهي النقرة يعني الكُوّة.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق علي عن ابن عباس ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قال: «هادي أهل السموات وأهل الأرض» ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ يقول: موضع الفتيلة يقول: كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار إذا مسته النار ازداد ضوأً على ضوئه، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا أتاه العلم ازداد هدىً على هدى ونوراً على نور.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبي العالية قال: هي في قراءة أُبي بن كعب مثل نور من آمن به. أو قال: مثل من آمن به.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن أُبي بن كعب ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قال: هو المؤمن الذي جعل الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به فكان أُبي بن

كعب يقرؤها: مثل نور من آمن به فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال: فصدر المؤمن المشكاة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ والمصباح: النور، وهو القرآن، والإيمان الذي جعل في صدره ﴿فِى زُجَاجَةٍ﴾ والزجاجة: قلبه. ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ فقلبه مما استنار فيه القرآن والإيمان كأنه كوكب دري يقول: كوكب مضيء. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ والشجرة المباركة: أصل المبارك الاخلاص لله وحده. وعبادته لا شريك له. ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: فمثله كمثل شجرة التف بها الشجر، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حالة كانت، لا إذا طلعت، ولا إذا غربت، فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصله شيء من الفتن، وقد ابتلي بها فثبته الله فيها، فهو بين أربع خلال. إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن أُعطي شكر، وإن ابتلي صبر. فهو في سائر الناس كالرجل الحي، يمشي بين قبور الأموات ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور. فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور ويوم القيامة إلى الجنة. ثم ضرب مثل الكافر فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾. قال: وكذلك الكافر يجيء يوم القيامة وهو يحسب أن له عند الله خيراً فلا يجده، ويدخله الله النار قال: وضرب مثلاً آخر للكافر فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾. فهو يتقلب في خمس من الظلم. فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومدخله ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات وإلى النار. فكذلك ميت الأحياء يمشي في الناس لا يدري ماذا له وماذا عليه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ اليهود قالوا لمحمد: كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ والمشكاة: كوة البيت. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو السراج يكون في الزجاجة. وهو مثل ضربه الله لطاعته، فسمى طاعته نوراً، ثم سماها أنواعاً شتى ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي وسط الشجرة لا تنالها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت وذلك لوجود الزيت ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ يقول:

بغير نار ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ يعني بذلك إيمان العبد وعمله ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ هو مثل المؤمن.

وأخرج الطبراني وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ قال: المشكاة. جوف محمد صلى الله عليه وسلم. والزجاجة: قلبه. والمصباح: النور الذي في قلبه. ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ الشجرة: إبراهيم. ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ لا يهودية ولا نصرانية ثم قرأ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران: ٦٧).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن شمر بن عطية قال: جاء ابن عباس رضي الله عنهما إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ قال: مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة قال: المشكاة: الكوة. ضربها مثلاً لفمه ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ والمصباح: قلبه. ﴿ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ والزجاجة: صدره. ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ شبه صدر محمد صلى الله عليه وسلم بالكوكب الدري، ثم رجع إلى المصباح. إلى قلبه فقال: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾ قال: يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أنه يضيء ولو لم تمسه نار.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال: الله هادي أهل السموات والأرض ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ يا محمد في قلبك كمثل هذا المصباح في هذه المشكاة، فكما أنّ هذا المصباح في هذه المشكاة كذلك فؤادك في قلبك. وشبه قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكوكب الدري الذي لا يخبو ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ تأخذ دينك عن إبراهيم عليه السلام. وهي الزيتونة ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ ليس بنصراني فيصلي نحو المشرق، ولا يهودي فيصلي نحو المغرب ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾ فيقول: يكاد محمد ينطق بالحكمة قبل أن يوحى إليه بالنور الذي جعل الله في قلبه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ قال: محمد ﷺ ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ ﴾ قال: يكاد من رأى محمداً ﷺ يعلم أنه رسول الله وإن لم يتكلم.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ قال: مثل نور المؤمن.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ قال: مثل هذا القرآن في القلب ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ قال: ككوة.

وأخرج ابن جرير عن أنس رضي الله عنه قال: إنّ إلهي يقول: «إنّ نوري هداي».

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ قال: هي موضع الفتيلة من القنديل.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ قال: ككوة.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ الكوة.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ بلسان الحبشة: الكوة. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ الكوة بلغة الحبشة. وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ قال: الكوة التي ليست بنافذة. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ الكوة التي ليس لها منفذ و﴿ مِصْبَاحٌ ﴾ السراج.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ قال: مثل نور الله في قلب المؤمن ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ قال: الكوة ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ قال: منير مضيء ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال: لا يفي عليها ظل شرقي ولا غربي كنا نتحدث أنها صاحبة الشمس. وهو أصفى الزيت، وأطيبه، وأعذبه، هذا مثل ضربه الله للقرآن أي قد جاءكم من الله نور وهدى متظاهران المؤمن يسمع كتاب الله. فوعاه، وحفظه، وانتفع بما فيه، وعمل به، فهذا مثل المؤمن.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ قال: يعني الزهرة. ضرب الله مثل المؤمن مثل ذلك النور يقول: قلبه نور، وجوفه نور، ويمشي في نور. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ قال: ضخم.

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قال: شجرة لا يظلها كهف ولا جبل، ولا يواريها شيء وهو أجود لزيتها.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة والضحاك رضي الله عنه ومحمد بن سيرين. مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قال: ليست شرقية ليس فيها غرب، ولا غربية ليس فيها شرق، ولكنها شرقية غربية.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قال: هي في وسط الشجر لا تصيبها الشمس في شرق ولا غرب، وهي من وجوه الشجر.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك ومحمد بن كعب. مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية. ولكنه مثل ضربه الله لنوره.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ قال: رجل صالح ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني.

وأخرج عبد بن حميد في مسنده والترمذي وابن ماجه عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة**».

وأخرج البيهقي في الشعب عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكر عندها الزيت فقالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن يؤكل، ويدهن، ويستعط به، ويقول: «**إنّه من شجرة مباركة**».

فائدة: قال **البغوي**: قال تعالى: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ (النور: ٣٥).

شبه الله تعالى الزجاجة بالكوكب ولم يشبهها بالشمس والقمر لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف والكواكب لا يلحقها الخسوف.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (النور: ٤٣).

قال **ابن عاشور**: وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وهو كقوله في سورة البقرة: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ سوى أن هذه الآية زيد فيها لفظ ﴿سَنَا﴾ لأن هذه الآية واردة في مقام الاعتبار بتكوين السحاب وإنزال الغيث فكان المقام مقتضياً للتنويه بهذا البرق وشدة ضيائه حتى يكون الاعتبار بأمرين: بتكوين البرق في السحاب، وبقوة ضيائه حتى يكاد يذهب بالأبصار، وآية البقرة واردة في مقام التهديد والتشويه لحالهم حين كانوا مظهرين الإسلام ومنطوين على الكفر والجحود فكانت حالهم كحالة الغيث المشتمل على صواعق ورعد وبرق فظاهره منفعة وفي باطنه قوارع ومصائب.

ومن أجل اختلاف المقامين وضع التعبير هنا بـ ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وهنالك بقوله: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ لأن في الخطف من معنى النكاية بهم والتسلط عليهم ما ليس في ﴿يَذْهَبُ﴾ إذ هو مجرد الاستلاب. وأما التعبير هنا ﴿بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ معرفاً باللام فلأن المقصود أن البرق مقارب أن يزيل طائفةً من جنس الأبصار إذ اللام هنا لام الحقيقة كما في قوله: ﴿أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وقولهم: ادخل السوق، لأنّ الحكم على حالة البرق الشديد من حيث هي بخلاف آية البقرة فإنها في مقام التوبيخ لهم بأن ما شأنه أن ينفع الناس به قد أشرف على الضر بهم دون غيرهم، فلذلك ذكر لفظ أبصار مضافاً إلى ضميرهم.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (الفُرْقَانِ : ١٢).

قال في **الدر المنثور**: وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: من مسيرة مائة عام.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس قال: إن العبد ليُجرَّ إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف، وإن الرجل من أهل النار ما بين شحمة أذنية وبين منكبيه مسيرة سبعين سنة، وإن فيها لأودية من قيح تكال ثم تصب في فيه.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ قال: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ترعد فرائصه حتى إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليجثو على ركبتيه ويقول: يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

وأخرج ابن وهب في الأهوال عن العطاف بن خالد قال: «يؤتى بجهنم يومئذ يأكل بعضها بعضاً يقودها سبعون ألف ملك، فإذا رأت الناس فذلك قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ زفرت زفرة لا يبقى نبي ولا صديق إلا برك لركبتيه ويقول: يا رب نفسي نفسي ويقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمتي.. أمتي**»».

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن مغيث بن سمي قال: ما خلق الله من شيء إلا وهو يسمع زفير جهنم غدوة وعشية، إلا الثقلين الذين عليهم الحساب والعقاب.

وأخرج آدم بن أبي إياس في تفسيره عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: من مسيرة مائة عام وذلك إذا أتي بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك، لو تركت لأتت على كل بر وفاجر ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا

وَزَفِيرًا﴾ تزفر زفرة لا يبقى قطرة من دمع إلا بدرت، ثم تزفر الثانية فتنقطع القلوب من أماكنها، وتبلغ القلوب الحناجر.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن كعب قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد، ونزلت الملائكة صفوفاً فيقول الله لجبريل: ائت بجهنم؛ فيأتي بها تقاد بسبعين ألف زمام حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام، زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق، ثم تزفر زفرة ثانية، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى لركبتيه، ثم تزفر الثالثة، فتبلغ القلوب الحناجر، وتذهل العقول، فيفزع كل امرئٍ إلى عمله حتى إنّ إبراهيم عليه السلام يقول: بخُلَّتي لا أسألك إلا نفسي. ويقول موسى: بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي. ويقول عيسى: بما أكرمتني لا أسألك إلا نفسي، لا أسألك مريم التي ولدتني. ومحمد صلى الله عليه وسلم يقول: أمتي.. أمتي.. لا أسألك اليوم نفسي. فيجيبه الجليل جل جلاله: ألا إنّ أوليائي من أمتك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فوعزتي لأقرن عينك في أمتك، ثم تقف الملائكة بين يدي الله تعالى ينتظرون ما يؤمرون.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (الفرقان: ١٣).

قال **الشنقيطي**: اعلم أنه تعالى في هذه الآية الكريمة قال: ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ وكذلك في الأنعام في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (الأنعام: ١٢٥)، وقال في هود: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ (هود: ١٢)، فما وجه التعبير في سورة هود بقوله: ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ على وزن فاعل وفي الفرقان والأنعام بقوله: ﴿ضَيِّقًا﴾ على وزن فيعل مع أنه في المواضع الثلاثة هو الوصف من ضاق يضيق فهو ضيق؟

والجواب عن هذا هو أنه تقرر في فن الصرف أن جميع أوزان الصفة المشبهة باسم الفاعل إن قصد بها الحدوث والتجدد جاءت على وزن فاعل مطلقاً كما أشار له ابن مالك في لاميته بقوله:

وفاعل صالح للكل إن قصد الـ ... حدوث نحو غداً ذا فارحٍ جذلاً

وإن لم يقصد به الحدوث والتجدد بقي على أصله، وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ (هود: ١٢) أريد به أنّه يحدث له ضيق الصدر ويتجدد له بسبب عنادهم وتعنتهم في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ (هود: ١٢) ولما كان كذلك قيل فيه: ضائق بصيغة اسم الفاعل أما قوله: ﴿ضَيِّقًا﴾ في الفرقان والأنعام فلم يرد به حدوث ولذلك بقي على أصله.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾**(الفرقان :١٥،١٦).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ يقول: سلوا الذي وعدتكم تنجزوه.

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طريق سعيد بن هلال عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ قال: إن الملائكة تسأل لهم ذلك في قولهم: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ (غافر: ٨) قال سعيد: وسمعت أبا حازم يقول: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا، فانجز لنا ما وعدتنا. فذلك قوله: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾** (الفرقان: ٢٤).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿**أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا**﴾ قال: أحسن منزلاً، وخير مأوى.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال: مصيراً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال: في الغرف من الجنة. وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة، وذلك الحساب اليسير، وذلك مثل قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾.

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء. ثم قرأ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وقرأ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنما هي ضحوة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين.

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة نصف النهار، فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فذلك قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن الصوّاف قال: بلغني أنّ يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم ليقيلون في رياض الجنة حتى يفرغ الناس من الحساب. وذلك قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي مأوى ومنزلاً قال قتادة: حدث صفوان ابن محرز قال: إنّه ليجاء يوم القيامة برجلين كان أحدهما ملكاً في الدنيا، فيحاسب، فإذا عبد لم يعمل

خيراً فَيُؤْمَرُ به إلى النار. والآخر كان صاحب كساء في الدنيا، فيحاسب، فيقول: يا رب ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به فيقول: صدق عبدي، فأرسلوه، فيؤمر به إلى الجنة، ثم يتركان ما شاء الله، ثم يدعى صاحب النار، فإذا هو مثل الحممة السوداء فيقال له: كيف وجدت مقيلك؟ فيقول: شر مقيل. فيقال له: عد. ثم يدعى صاحب الجنة، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر فيقال له: كيف وجدت مقيلك؟ فيقول: رب خير مقيل. فيقال: عد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. الساعة التي يكون فيها ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة. فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة، فينطلق بهم إلى الجنة، فكانت قيلولتهم في الجنة، وأطعموا كبد الحوت فأشبعهم كلهم، فذلك قوله: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾.

وأخرج ابن عساكر عن عكرمة أنه سئل عن يوم القيامة أمن الدنيا هو أم من الآخرة؟ فقال: صَدْرُ ذلك اليوم من الدنيا، وآخره من الآخرة.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الفرقان: ٤٨ – ٥٠).

قال **ابن عاشور**: وتقديم ذكر الأنعام على الأناس اقتضاه نسج الكلام على طريقة الإحكام في تعقيبه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ولو قدم ذكر ﴿ وَأَنَاسِيَّ ﴾ لتفكك النظم. ولم يقدم ذكرها في قوله تعالى: ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ في سورة النازعات لانتفاء الداعي للتقديم فجاء على أصل الترتيب.

وقال **الشنقيطي في قوله تعالى:** ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الفرقان : ٥٠): الضمير في قوله: ﴿ صَرَّفْنَٰهُ ﴾ عائد إلى المطر كما قال **ابن عباس وابن مسعود وعكرمة ومجاهد.** «**قلتُ**: لكونه أقرب مذكور» وعليه فالمعنى: لقد صرفنا المطر بين الناس فأنزلنا مطراً كثيراً في بعض السنين على بعض البلاد، فيكثر فيها الخصب، فيتذكروا نعمة الله عليهم، فيشكروا له، وأنزلنا مطراً قليلاً أو منعنا المطر في بعض السنين عن بعض البلاد، ليتذكر من نزل بهم البلاء، فيبادروا بالتوبة إلى الله ليرحمهم ويسقيهم. واختار **القرطبي والزمخشري** أنّ الضمير يعود إلى القرءان، وهو قول عطاء، والأول هو التحقيق.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان : ٦٢).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ قال: أبيض وأسود.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ قال: هذا يخلف هذا، وهذا يخلف هذا ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ قال: يذكر نعمة ربه عليه فيهما ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ قال: شكور نعمة ربه عليه فيهما. وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ قال: يختلفان. هذا أسود وهذا أبيض، وإن المؤمن قد ينسى بالليل ويذكر بالنهار، وينسى بالنهار ويذكر بالليل.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ يقول: من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار، ومن فاته شيء من النهار أن يعمله أدركه بالليل.

وأخرج الطيالسي وابن أبي حاتم عن الحسن: أن عمر أطال صلاة الضحى فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه فقال: إنه بقي عليَّ من وردي شيء وأحببت أن أتمه. أو قال أقضيه. وتلا هذه الآية: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ يقول: جعل الليل خلفاً من النهار، والنهار خلفاً من الليل، لمن فرط في عمل أن يقضيه.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ قال: إن لم يستطع عمل الليل عمله بالنهار، وإن لم يستطع عمل النهار عمله بالليل. فهذا خلفة لهذا.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله: ﴿ جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ قال: من عجز بالليل كان له في أول النهار مستعتب، ومن عجز بالنهار كان له في الليل مستعتب.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة. أن سلمان جاءه رجل فقال: لا أستطيع قيام الليل قال: إن كنت لا تستطيع قيام الليل فلا تعجز بالنهار قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده إنّ في كل ليلة ساعة. لا يوافقها رجل مسلم يصلي فيها، يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه**». قال قتادة: فأروا الله من أعمالكم خيراً في هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان تحملان الناس إلى آجالهم، تقربان كل بعيد، وتبليان كل جديد، وتجيئان بكل موعود، إلى يوم القيامة.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

(الفرقان: ٦٧)

قال **ابن عاشور**: أفاد قوله: ﴿ إِذَآ أَنفَقُواْ ﴾ أن الإنفاق من خصالهم فكأنه قال: والذين ينفقون وإذا أنفقوا إلخ. وأريد بالإنفاق هنا الإنفاق غير الواجب. وذلك إنفاق المرء على أهل بيته وأصحابه لأن الإنفاق الواجب لا يذم الإسراف فيه، والإنفاق الحرام لا يحمد مطلقاً بله أن يذم الاقتصار فيه على أن في قوله: ﴿ إِذَآ أَنفَقُواْ ﴾ إشعاراً بأنهم اختاروا أن ينفقوا ولم يكن واجباً عليهم.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ (الفرقان : ٧٣)، فقال: ﴿ وَعُمۡيَانٗا ﴾، هذا هو الموضع الوحيد، بينما قال في المواضع الأخرى: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ (البقرة : ١٨)، وقال: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (البقرة : ١٧١)، وقال: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ ﴾ (النمل : ٨١، الروم : ٥٣)، قال **د. فاضل**: ووجه ذلك أنّ «فُعلان» تُستعمل غالباً للدلالة على القلة النسبية، ولذا قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ (الشورى : ٤٩، ٥٠)، فقال في الأولى: ﴿ ٱلذُّكُورَ ﴾، وقال في الثانية: ﴿ ذُكۡرَانٗا ﴾ لأنّ العادة أنه إذا ولدت المرأةُ ذكوراً فقط كان عددهم أكثر من أن تلد ذكراناً وإناثاً.

ومثله قوله تعالى: ﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء : ١٦٥)، وقوله عن مشركين العرب: ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا ﴾ (الأنعام : ١٣٩)، وذلك لأنّ قوم لوط كانوا لا يأتون جميع الذكور وإنما يأتون صنفاً خاصاً منهم، ألا ترى أنهم لا يأتون الأطفال والشيوخ، وإنما يأتون من تستسيغه نفوسهم المنكوسة من الذكران بخلاف قوله تعالى: ﴿ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا ﴾ فإنه يشمل جميع الذكور بلا استثناء. فلمّا كان عباد الرحمن أقل في عددهم، قال: ﴿ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ (الفرقان :٧٣)، بينما أهل الكفر والضلال كثرة، فقال: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ ﴾، ﴿ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا ﴾.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان : ٧٤).

تأمل وجه إشارة القرآن إلى طلب علو الهمة في دعاء عباد الرحمن أواخر سورة الفرقان: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ثم تأمل كيف مدح الناطق بهذا الدعاء فكيف بمن بذل الجهد في طلبه؟ ثم إنّ مدح الداعي بذلك دليل على جواز وقوعه، جعلنا الله تعالى أئمة للمتقين. أفاده **د. محمد العواجي** «تدبر ـ المجموعة (١)».

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (الشعراء: ١٨ - ٢٠).

قال **ابن عاشور**: كانت رباطة جأش موسى وتوكله على ربه باعثة له على الاعتراف بالفعلة وذكر ما نشأ عنها من خير له، ليدل على أنه حمد أثرها وإن كان قد اقترفها غير مقدِّر ما جرته إليه من خير؛ فابتدأ بالإقرار بفعلته ليعلم فرعون أنه لم يجد لكلامه مدخل تأثير في نفس موسى. وأخر موسى الجواب عن قول فرعون ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ لأنّه علم أن القصد منه الإقصار من مواجهته بأن رباً أعلى من فرعون أرسل موسى إليه. وابتدأ بالجواب عن الأهم من كلام فرعون وهو ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ﴾ لأنه علم أنه أدخل في قصد الإفحام، وليظهر لفرعون أنه لا يوجل من أن يطالبوه بذحل ذلك القتيل ثقة بأن الله ينجيه من عدوانهم.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٤٩ - ٥١).

قال في (**الظلال**): ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية، حينما يشعر بالخطر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة، بلا تحرج من قلب أو ضمير.. وإنها لحماقة فرعون الطاغية المتجبر الذي يملك تنفيذ ما يقول، فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور! إنها كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان. القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان. القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير.

فقالوا: ﴿ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٥٠، ٥١). لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف. لا ضير في التصليب والعذاب. لا ضير في الموت والاستشهاد. ﴿ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ وليكن في هذه الأرض ما يكون. فالمطمع الذي نتعلق به ونرجوه ﴿ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ جزاء ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وأن كنا نحن السابقين. يالله! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر وإذ يفيض على الأرواح. وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس. وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين. وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ (الشعراء: ٥٢).

وسماهم بالاسم الشريف: عبادي، فلما ضعف توكلهم ولم يستشعروا كفاية الله لهم سلبهم هذا الوصف الشريف فقال عنهم ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (الشعراء: ٦١). أفاده د. **محمد بن عبد الله القحطاني**. «تدبر ـ المجموعة (١)».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** عن المجرمين: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ٩٤ - ٩٨)، فقال: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ ﴾ ولم يقل: «فألقوا» بل أتى بهذه الكلمة التي فيها قلقلة الباء التي تناسب حركتهم، كما أنّ جرسها يناسب صوت الحركة التي تتم بها، أفاده في **التصوير الفني في القرءان**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء: ١٦٥، ١٦٦).

قال **ابن عاشور**: والمعنى: أتأتون الذكران مخالفين جميع العالمين من الأنواع التي فيها ذكور وإناث فإنها لا يوجد فيها ما يأتي الذكور فهذا تنبيه على أن هذا الفعل الفظيع مخالف للفطرة لا يقع من الحيوان العجم فهو عمل ابتدعوه ما فعلوا غيرهم، ونحوه

قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. وفي الإتيان بالجملة الاسمية في قوله: ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ دون أن يقول: بل كنتم عادين، مبالغة في تحقيق نسبة العدوان إليهم. وفي جعل الخبر ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ دون اقتصار على ﴿عَادُونَ﴾ تنبيه على أن العدوان سجية فيهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣). وكذا قال: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ (القدر: ٤).

قال د. **فاضل**: فقال في هذه الآيات ﴿تَنَزَّلُ﴾ في حين قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠). فقال في آيتي القدر والشعراء: ﴿تَنَزَّلُ﴾ بحذف إحدى التاءين وقال في فصلت: ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ من دون حذف وذلك ـ والله أعلم ـ أن التَّنزُّلَ في آية فصلت أكثر مما في الآيتين الأخريين ذلك أن المقصود بها: أنّ الملائكة تنزل على المؤمنين عند الموت لتبشرهم بالجنة وهذا يحدث على مدار السنة في كل لحظة ففي كل لحظة يموت مؤمن مستقيم فتتنزل لتبشره بالجنة فأعطى الفعل كل صيغته ولم يحذف منه شيئاً. وأما آية الشعراء فإن التَّنزُّلَ فيها أقل لأن الشياطين لا تتنزَّلُ على كل الكفرة وإنما تنزل على الكهنة أو على قسم منهم وهم الموصوفون بقوله: ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ ولا شك أن هؤلاء ليسوا كثيراً في الناس وهم ليسوا بكثرة الأولين ولا شطرهم بل هم قلة فاقتطع من الحدث فقال: ﴿تَنَزَّلُ﴾ بحذف إحدى التاءين. وكذلك ما في آية سورة القدر فإن تَنزُّلَ الملائكة (هذا التنزل الخاص) إنما هو في ليلة واحدة في العام وهي ليلة القدر فهو أقل من التَّنزُّل الذي يحدث باستمرار على من يحضره الموت

فاقتطع من الحدث. فأنت ترى أنه اقتطع من الفعل إحدى التاءين في آيتي الشعراء وآية القدر. لأن التَّنزُّل أقل ولم يحذف من آية فصلت لأنه أكثر والله أعلم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ولا أنكى لقلوب المتأملين ولا أصدع لأكباد المتدبرين وذلك قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ وإطلاقه وقوله: ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وإبهامه. وكان السلف الصالح يتواعظون بها. أفاده **الزمخشري**.



سُورَةُ النَّمْلِ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ (النَّمْلِ: ٧ - ١٢)، بينما قال في سورة القصص: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ۝٣١ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝٣٢ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ (القَصَص: ٢٩ - ٣٣).

فالقصة في سورة القصص، إذن مفصلة مطولة، وفي سورة النمل مُوجَزة مجملة. وهذا الأمر ظاهر في صياغة القصتين، واختيار التعبير لكل منهما.

هذا أمر، والأمر الثاني أن المقام في سورة النمل، مقامُ تكريمٍ لموسى أوضح مما هو في القصص، ذلك أنه في سورة القصص، كان جو القصة مطبوعاً بطابع الخوف الذي يسيطر على موسى عليه السلام بل إن جو الخوف كان مقترناً بولادة موسى عليه السلام فقد خافت أمه فرعون عليه، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾.

ويستبدُّ بها الخوفُ أكثر حتى يصفها رب العزة بقوله: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾.

ثم ينتقل الخوفُ إلى موسى عليه السلام ويساوره وذلك بعد قتله المصري: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾. فنصحه أحدُ الناصحين بالهرب من مصر لأنه مهدد بالقتل: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾، وطلب من ربه أن ينجيه من بطش الظالمين: ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. فهرب إلى مدين وهناك اتصل برجل صالح فيها، وقَصَّ عليه القصص فطمأنه قائلاً: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وهذا الطابع ـ أعني طابع الخوف ـ يبقى ملازماً للقصة إلى أواخرها، بل حتى إنه لما كلفه ربه بالذهاب إلى فرعون راجعه وقال له: إنه خائف على نفسه من القتل: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾. وطلب أخاه ظهيراً له يُعِينُه ويصدّقه لأنه يخاف أن يكذّبوه: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾.

في حين ليس الأمر كذلك في قصة النمل، فإنها ليس فيها ذِكْرٌ للخوف إلا في مقام إلقاء العصا. فاقتضى أن يكون التعبير مناسباً للمقام الذي ورد فيه.

فقال في النمل: ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾. وقال في القصص: ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾. فبنى الكلام في النمل على القطع ﴿ سَـَٔاتِيكُم ﴾ وفي القصص على الترجي ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم ﴾. وذلك أن مقام الخوف في القصص لم يناسب أن يقطع بالأمر فإن الخائف لا يستطيع القطع بما سيفعل بخلاف الآمن. ولما لم يذكر الخوف في سورة النمل بناه على الوثوق والقطع بالأمر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنّ ما ذكره في النمل هو المناسب لمقام التكريم لموسى بخلاف ما في القصص.

وكرر فعل الإتيان في النمل، فقال: ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ ﴾، ولم يكرره في القصص، بل قال: ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ فأكد الإتيان في سورة النمل لقوة يقينه وثقته، والتوكيد يدل على القوة، في حين لم يكرر فعل الإتيان في القصص

مناسبة لجو الخوف. وقال في سورة النمل: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. وقال في القصص: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. فذكر في سورة النمل أنه يأتيهم بشهاب قبس، والشهاب: هو شعلة من النار ساطعة.

ومعنى «القَبَس»: شعلة نار تقتبس من معظم النار، كالمقباس يقال: قبس يقبس منه ناراً، أي: أخذ منه ناراً، وقبس العلمَ استفادَه.

وأما «الجذوة»: فهي الجمرة أو القبسة من النار وقيل: هي ما يبقى من الحطب بعد الالتهاب، وفي معناه ما قيل: هي عود فيه نار بلا لهب.

والمجيء بالشهاب أحسن من المجيء بالجمرة، لأن الشهاب يدفيء أكثر من الجمرة لما فيه من اللهب الساطع، كما أنه ينفع في الاستنارة أيضاً. فهو أحسنُ من الجذوة في الاستضاءة والدفء. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ذكر أنه سيأتي بالشهاب مقبوساً من النار، وليس مُخْتَلَساً أو محمولاً منها، لأن الشهاب يكون مقبوساً وغير مقبوس، وهذا أدلّ على القوة وثبات الجنان، لأن معناه أنه سيذهب إلى النار ويقبس منها شعلة ساطعة.

أما في القصص فقد ذكر أنه ربما أتى بجمرة من النار، ولم يقل إنه سيقبسها منها.

والجذوة قد تكون قبساً وغير قبس. ولا شك أن الحالة الأولى أكمل وأتم لما فيها من زيادة نفع الشهاب على الجذوة، ولما فيها من الدلالة على الثبات وقوة الجنان.

وقد وضع كل تعبير في موطنه اللائق به، ففي موطن الخوف، ذكر الجمرة وفي غير موطن الخوف، ذكر الشهاب القبس.

وقال في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ﴾. وقال في سورة القصص: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ﴾. فما الفرق بينهما؟

قال **الراغب الأصفهاني** مفرقاً بين الإتيان والمجيء: «الإتيان مجيءٌ بسهولة، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتي». وقال: «المجيء كالإتيان، لكن المجيء أعم، لأن الإتيان مجيءٌ بسهولة». اهـ.

ولم يذكر أهل المعجمات ما ذكره الراغب، وإنما هم يفسرون واحداً بالآخر، فيفسرون جاء بأتى، وأتى بجاء، غير أنهم يذكرون في بعض تصريفات «أتى» ما يدلُّ على السهولة، فيقولون مثلاً في تفسير الطريق الميتاء من «أتي» «طريق مسلوك يسلكه كل أحد» وذلك لسهولته ويسره. ويقولون: «كل سيل سهلته الماء، أتيّ» و«أتّوا جداولها: سهلوا طرق المياه إليها» يقال: «أتّيت الماء» إذا أصلحت مجراه حتى يجري إلى مقارّه... ويقال: أتّيت للسيل، فأنا أؤتّيه إذا سهلت سبيله من موضع إلى موضع ليخرج إليه.. وأتّيت الماء تأتيةٌ وتأتّياً، أي: سَهَّلتُ سبيله ليخرج إلى موضع.

والذي استبان لي أن القرآن الكريم، يستعملُ المجيءَ لما فيه صعوبةٌ ومشقة، أو لما هو صعب وأشق مما تُستعمل له «أتى» فهو يقول مثلاً: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ (المؤمنون : ٢٧). وذلك لأنّ المجيء فيه مشقة وشدة. وقال: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ (ق : ١٩). وقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ (الكهف : ٧١). وقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ (الكهف : ٧٤). وقال: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ (مريم : ٢٧). وقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ (مريم : ٨٨ - ٩٠). وقال: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء : ٨١). وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (عبس : ٣٣، ٣٤). وهذا كله مما فيه صعوبة ومشقة. أ. هـ.

تنبيه: فإن قيل: فلِمَ قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ ولم يقل: «جاء» رغم شدة الغاشية؟

قلتُ: ليدل على سهولة ذلك على الله رغم ما يصحبها من أهوال وفظائع وعجائب، إلّا أنّ ذلك كله على الله يسير!!

تابع سورة النمل:

١- قال د. **فاضل: قَالَ تَعَالَىٰ** في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾، وقال في سورة القصص: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ ذلك أن ما قطعه موسى على نفسه في النمل أصعب مما في

القصص فقد قطع في النمل على نفسه أن يأتيهم بخبر أو شهاب قبس في حين ترجى ذلك في القصص والقطع أشق وأصعب من الترجي، كما أنه قطع في النمل أن يأتيهم بشهاب قبس أي بشعلة من النار ساطعة مقبوسة من النار التي رآها في حين أنه ترجى في القصص أن يأتيهم بجمرة من النار والأولى أصعب. ثم إن المهمة التي ستوكل إليه في النمل أصعب وأشق مما في القصص فإنه طُلبَ إليه في النمل أن يُبلِّغ فرعون وقومه رسالة ربه في حين طلب إليه في القصص أن يبلغ فرعون وملأه وتبليغ القوم أوسع وأصعب من تبليغ الملأ ذلك أن دائرة الملأ ضيقة وهم المحيطون بفرعون في حين أن دائرة القوم واسعة لأنهم منتشرون في المدن والقرى كما أن التعامل مع هذه الدائرة الواسعة من الناس صعب شاق فإنهم مختلفون في الأمزجة والاستجابة والتصرف. فما في النمل أشق وأصعب فجاء بالفعل «جاء» دون «أتى» الذي هو أخف ويدل على ذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴾ ذلك لأنه أمره بالذهاب إلى فرعون ولم يذكر أحداً آخر ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ فانظر كيف لما أرسله إلى فرعون قال: ﴿ أَتَىٰهَا ﴾ ولما أرسله إلى فرعون وملئه قال: ﴿ أَتَىٰهَا ﴾ أيضاً في حين لما أرسله إلى فرعون وقومه قال: ﴿ جَآءَهَا ﴾ وأنت ترى الفرق بين الموطنين ظاهراً.

٢- **قَالَ تَعَالَىٰ** في سورة النمل: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴾ (النَّمل: ٩) بينما قال في القصص: ﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ ﴾ (القَصَص: ٣٠) قال **د. فاضل**: فجاء بـ ﴿ أَن ﴾ المفسرة في القصص ولم يأت بها في النمل وذلك لأكثر من سبب منها: أن المقام في النمل مقام تعظيم لله سبحانه وتكريم لموسى كما ذكرنا فشرفه بالنداء المباشر في حين ليس المقام كذلك في القصص فجاء بما يفسر الكلام أي: ناديناه بنحو هذا أو بما هذا معناه فهناك فرق بين قولك: «أشرت إليه أن أذهب» و«قلت له اذهب» فالأول معناه أشرت إليه بالذهاب أي لفظ أو دلالة تدل على هذا المعنى وأما الثاني فقد قلت له هذا القول نصاً ومثله قوله تعالى: ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (الصافات: ١٠٤، ١٠٥) أي بما هذا تفسيره أو بما هذا معناه بخلاف قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ (هود: ٤٦)، ومنها أن المقام في سورة القصص مقام تبسط وتفصيل فجاء بـ ﴿أَن﴾ زيادة في التبسط، ومنها أن ثقل التكليف في النمل يستدعي المباشرة في النداء ذلك أن الموقف يختلف بحسب المهمة وقوة التكليف كما هو معلوم.

٣- قال د. **فاضل**: قال في النمل: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ وقال في القصص: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ ذلك أن المقام في سورة القصص مقام الخوف والخائف يحتاج إلى الأمن فأمنه قائلاً: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾. أما في سورة النمل فالمقام مقام التكريم والتشريف فقال: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ فألمح بذلك إلى أنه منهم وهذا تكريم وتشريف ثم انظر كيف قال: ﴿لَدَيَّ﴾ مشعراً بالقرب وهو زيادة في التكريم والتشريف، ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما قال في سورة النمل: ﴿لَدَيَّ﴾ المفيدة للقرب ناداه بما يفيد القرب فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ ولم يقل: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ كما قال في القصص ففصل بين المنادِي والمنادَى بما يفيد البعد. وأمره أيضاً بما يفيد القرب بلا فاصل بينهما فقال: ﴿أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ ولم يقل: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ للدلالة على قرب المأمور منه فناداه من قرب وأمره من قرب وذلك لأنه كان منه قريباً فانظر علو هذا التعبير ورفعته.

٤- قال في النمل: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ وقال في القصص: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾. لقد استعمل في سورة القصص أمر الفعل ﴿ٱسۡلُكۡ﴾ الذي يستعمل كثيراً في سلوك السبل فيقال: سلك الطريق والمكان سلكاً. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ (نوح: ١٩، ٢٠). ذلك لأنه تردد سلوك الأمكنة والسبل في قصة موسى في القصص بخلاف ما ورد في النمل فقد ورد فيها ـ أي في سورة القصص ـ سلوك الصندوق بموسى وهو ملقى في اليم إلى قصر فرعون وسلوك أخته وهي تقص أثره وسلوك موسى الطريق إلى مدين بعد فراره من مصر وسلوكه

السبيل إلى العبد الصالح في مدين وسير موسى بأهله وسلوكه الطريق إلى مصر حتى إنه لم يذكر في النمل سيره بأهله بعد قضاء الأجل بل إنه طوى كل ذكرٍ للسير والسلوك في القصة مبتدئاً ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ بخلاف ما ورد في القصص فإنه قال: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ فحسن ذكر السلوك في القصص دون النمل.

ومن ناحية أخرى إن الإدخال أخص من السلك أو السلوك اللذين هما مصدر الفعل سلك لأن السلك أو السلوك قد يكون إدخالاً وغير إدخال تقول: سلكت الطريق وسلكت المكان أي سرت فيه وتقول: سلكت الخيط في المخيط أي أدخلته فيه فالإدخال أخص وأشق من السلك والسلوك فإن السلك قد يكون سهلاً ميسوراً، قال تعالى في النحل: ﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ (النحل : ٦٩). فانظر كيف قال: ﴿ ذُلُلًا ﴾ ليدلل على سهولته ويسره وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الزمر : ٢١). وهل هناك أيسر من سلوك الماء في الأرض وغوره فيها؟ فناسب وضع السلوك في موطن السهولة واليسر ووضع الإدخال في موطن المشقة والتكليف الصعب. لقد ناسب الإدخال أن يوضع مع قوله: ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا ﴾ ومهمة التبليغ إلى فرعون وقومه، وناسب أن يوضع السلوك في مقام الخوف وأن يوضع الإدخال في مقام الأمن والثقة. وناسب أن يوضع الإدخال وهو أخص من السلوك مع «الشهاب القبس» الذي هو أخص من الجذوة وأن يوضع السلوك وهو أعم من الإدخال مع الجذوة من النار التي هي أعم من الشهاب القبس.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النمل : ١٥).

قال **ابن عاشور**: وحكاية قولهما: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا ﴾ كناية عن تفضيلهما بفضائل غير العلم ألا ترى إلى قوله: ﴿ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ومنهم أهل العلم

وغيرهم، وتنويه بأنهما شاكران نعمته. ولأجل ذلك عطف قولهما هذا بالواو دون الفاء لأنه ليس حمداً لمجرد الشكر على إيتاء العلم. والظاهر أن حكايةً وقعت بالمعنى، بأن قال كل واحد منهما: الحمد لله الذي فضلني، فلما حُكي القولان جمع ضمير المتكلم. ويجوز أن يكون كل واحد شكر الله على منحه ومنح قريبه، على أنه يكثر استعمال ضمير المتكلم المشارك لا لقصد التعظيم بل لإخفاء المتكلم نفسه بقدر الإمكان تواضعاً كما قال سليمان عقب هذا: ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وجعلا تفضيلهما على كثير من المؤمنين دون جميع المؤمنين؛ إمّا لأنهما أرادا بالعباد المؤمنين كل من ثبت له هذا الوصف من الماضين وفيهم موسى وهارون، وكثير من الأفضل والمساوي، وإما لأنهما اقتصدا في العبارة إذ لم يحيطا بمن ناله التفضيل، وإمّا لأنهما أرادا بالعباد أهل عصرهما فعبرا بـ ﴿ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ﴾ تواضعاً لله.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ (النَّمْل: ٢٢).

قال **ابن عاشور**: و﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي قريب قرباً يوصف بضد البعد أي يوشك أن يكون بعيداً. وهذا وجه إيثار التعبير بـ ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ لأن ﴿ غَيْرَ ﴾ تفيد دفع توهم أن يكون بعيداً وإنما يتوهم ذلك إذا كان القرب يشبه البعد. (**قلتُ**: وهذا كلامٌ نفيس).

قَالَ تَعَالَىٰ في شأن بلقيس قبل أن تعلن إسلامها: ﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ (النَّمْل: ٤٤).

ففيه دلالة على أن ثوبها كان طويلاً ساتراً لساقيها وهي من؟ امرأة كافرة؟ في حين أن بعض المسلمات وللأسف الشديد يتنافسن في خلع جلباب الحشمة والحياء فيما ترتديه من ملابس بلا حياء ولا خوف من الله؛ أليس من المدمي أن تكون امرأة كافرة أكثر حشمةً وتستراً من بعض نساء المسلمين؟! «**كتاب تدبر**: المجموعة (١)».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ (النَّمْل: ٦٧).

قال **ابن عاشور**: والتعبير عنهم باسم الموصول لما في الموصول من الإيماء إلى علة قولهم هذه المقالة وهي ما أفادته الصلة من كونهم كافرين، فكأنه قيل: وقالوا بكفرهم

أإذا كنا تراباً... إلى آخره استفهاماً بمعنى الإنكار. أتوا بالإنكار في صورة الاستفهام لتجهيل معتقد ذلك وتعجيزه عن الجواب بزعمهم. والتأكيد بـ «أن» لمجاراة الكلام المردود عليه بالإنكار. والتأكيد تهكم.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل: ٧٥)، فقال: ﴿غَآئِبَةٍ﴾ بالتأنيث للدلالة على أنّ الشيء البالغ غيابه عن الناس لا يغيب عن الله عزّ وجل، ولذا أيضاً قال عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٨)، ليدل على أنّ الشيء البالغ خفاؤه على الناس لا يخفى في ذلك اليوم.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ (النمل: ٨٠).

قال **ابن عاشور**: و﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ و﴿ٱلصُّمَّ﴾: مستعاران للقوم الذين لا يقبلون القول الحق ويكابرون من يقوله لهم. شبهوا بالموتى على طريقة الاستعارة في انتفاء فهمهم معاني القرآن، وشبهوا بالصم كذلك في انتفاء أثر بلاغة ألفاظه عن نفوسهم.

وللقرآن أثران: أحدهما ما يشتمل عليه من المعاني المقبولة لدى أهل العقول السليمة وهي المعاني التي يدركها ويسلم لها من تبلغ إليه ولو بطريقة الترجمة بحيث يستوي في إدراكها العربي والعجمي وهذا أثر عقلي، والأثر الثاني دلالة نظمه وبلاغته على أنه خارج عن مقدرة البلغاء العرب. وهذا أثر لفظي وهو دليل الإعجاز وهو خاص بالعرب مباشرة، وحاصل لغيرهم من أهل النظر والتأمل إذا تدبروا في عجز البلغاء من أهل اللسان الذي جاء به القرآن، فهؤلاء يوقنون بأن عجز البلغاء أهل ذلك اللسان على معارضته دال على أنّه فوق مقدرتهم؛ فالمشركون شبهوا بالموتى بالنظر إلى الأثر الأول، وشبهوا بالصم بالنظر إلى الأثر الثاني، فحصلت استعارتان. ونفي الإسماع فيهما ترشيحان للاستعارتين وهما مستعاران لانتفاء معالجة إبلاغهم. ولأجل اعتبار كلا الأثرين المبني عليهما ورود تشبيهين كرر ذكر الترشيحين فعطف ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ على ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ولم يكتف بأن يقال: إنك لا تسمع الموتى ولا الصم. وتقييد

الصم بزمان توليهم مدبرين لأن تلك الحالة أوغل في انتفاء إسماعهم لأن الأصم إذا كان مواجهاً للمتكلم قد يسمع بعض الكلام بالصراخ أو يستفيد المعنى المقصود بحركة الشفتين فإذا تولى فذلك أبعد له عن السمع.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ ﴾ (النمل : ٨١).

قال **ابن عاشور:** وقوله: ﴿ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ ﴾ يتضمن استعارة مكنية قرينتها حالية. شبه الدين الحق بالطريق الواضحة، وإسناد الضلالة إلى سالكيه ترشيح لها، والضلالة أيضاً مستعارة لعدم إدراك الحق تبعاً للاستعارة المكنية، وأطلقت هنا على عدم الاهتداء للطريق، وضمير ﴿ ضَلَٰلَتِهِمۡ ﴾ عائد إلى العمى، ولتأتي هذه الاستعارة الرشيقة عدل عن تعليق ما حقه أن يعلق بالهدى فعلق به ما يقتضيه نفي الهدى من الصرف والمباعدة. فقيل: ﴿ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ ﴾ بتضمين ﴿ بِهَٰدِي ﴾ معنى صارف. فصار: ما أنت بهاد، بمعنى: ما أنت بصارفهم عن ضلالتهم كما يقال: سقاه عن العيمة، وهي شهوة اللبن.

وعدل في الجملة عن صيغة النفيين السابقين في قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ الواقعين على مسندين فعليين، إلى تسليط النفي هنا على جملة اسمية للدلالة على ثبات النفي. وأكد ذلك الثبات بالباء المزيدة لتأكيد النفي. ووجه إيثار هذه الجملة بهذين التحقيقين هو أنه لما أفضى الكلام إلى نفي اهتدائهم وكان اهتداؤهم غاية مطمع الرسول ﷺ كان المقام مشعراً ببقية من مطمعه في اهتدائهم حرصاً عليهم فأكد له ما يقلع طمعه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ ﴾.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (النمل : ٨٤).

قال **ابن عاشور:** ومن لطائف البلاغة أنه جاء بالمعادل الأول مصرحاً به لأنه المحقق منهم فقال: ﴿ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي ﴾ وحذف معادله الآخر تنبيهاً على انتفائه كأنه قيل: أهو ما عهد منكم من التكذيب أم حدث حادث آخر، فجعل هذا المعادل متردداً فيه، وانتقل الكلام إلى استفهام وهذا تبكيت لهم.

وقال في (**الكشاف**): ومثاله أن تقول لراعيك وقد علمت أنه راعي سوء: أتأكل نعمي أم ماذا تعمل بها، فتجعل ما ابتدأت به وجعلته أساس كلامك وهو الذي صح عندك من أكله وفساده وترمي بقولك: أم ماذا تعمل بها، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبهته. ويجوز أن يكون الإستفهام تقديراً وتكون «أم» متصلة وما بعدها هو معادل الاستفهام باعتبار المعنى كأنه قيل: أكذبتم أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم تكذبوا فإنكم لم تتبعوا آياتي.



سُورَةُ القَصَصِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ (القصص : ١٢).

قال **ابن عاشور**: والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية في قوله: ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ لقصد تأكيد أن النصح من سجاياهم ومما ثبت لهم فلذلك لم يقل: وينصحون له كما قيل: ﴿ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ لأن الكفالة أمر سهلٌ بخلاف النصح والعناية.

وتعليق ﴿ لَهُۥ ﴾ بـ ﴿ نَٰصِحُونَ ﴾ ليس على معنى التقييد بل لأنه حكاية الواقع. فالمعنى: أن النصح من صفاتهم فهو حاصل له كما يحصل لأمثاله حسب سجيتهم.

والنصح: العمل الخالص الخلي من التقصير والفساد. اهـ.

قلتُ: ويحتمل أن يُقال تخصيص ﴿ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ لئلا يُتوهم أنهم سيرفعون معه غيره كما تفعل المرضعات من إرضاعهنّ لأكثر من طفل، فنفت ذلك لتدل على أنّها ستوفر لبنها ورعايتها له دون غيره.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (القصص : ٢٠).

قال **ابن عاشور**: ظاهر النظم أن الرجل جاء على حين محاورة القبطي مع موسى فلذلك انطوى أمر محاورتهما إذ حدث في خلاله ما هو أهم منه وأجدى في القصة.

والظاهر أن أقصى المدينة هو ناحية قصور فرعون وقومه فإن عاده الملوك السكنى في أطراف المدن توقياً من الثورات والغارات لتكون مساكنهم أسعد بخروجهم عند الخوف. وقيل: الأطراف منازل الأشراف. وبهذا يظهر وجه ذكر المكان الذي جاء منه الرجل وأن الرجل كان يعرف موسى.

قَالَ تَعَالَىٰ فيما قصّه ممّا كان بين موسى وصالح مدين: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ (القصص : ٢٧)، فقال: ﴿حِجَجٖ﴾ ولم يقل: ﴿سِنِينَ﴾ بينما قال عن أهل الكهف: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ (الكهف : ٢٥)، فقال: ﴿سِنِينَ﴾، وكذا قال عن يوسف: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ (يوسف : ٤٢)، وفي ذلك دقة بالغة؛ قال في **لسان العرب:** يقال حججت فلاناً إذا أكثرت زيارته والاختلاف إليه. وقال أيضاً: السَّنَة: العام. والسَّنَةُ مطلقةً: السنة المجدبة، أوقعوا ذلك عليها إكباراً لها وتشنيعاً واستطالةً. يقال أصابتهم السنة. والسَّنة: الأزمة وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ (الأعراف : ١٣٠) أي بالقحوط. وتصغير سنة: سُنَيهة وسُنَيَّة وتجمع سَنَوات وسَنَهات، فإذا جمعتها جمع الصحة كسرت السين فقلت: سنين وسُنون. اهـ.

قلتُ: فوجه قول صالح مدين لموسى: ﴿حِجَجٖ﴾ ليدل على أنه سأله أن يكثر في هذه السنين من زيارته والاختلاف إليه ليرى ابنته من ناحية، وربما ليزودهما بما قد يحتاجانه من طعامٍ وغيره على ما جرت عادة الآباء الأثرياء الكرماء به مع بناتهم وأزواجهنّ قليلي ذات اليد. وأمّا في قصة يوسف وأصحاب الكهف، فقد كانت سنين لم تتخللها زيارة من يوسف ولا من أصحاب الكهف لغيرهم ولا حتى زيارة غيرهم لهم، كما أنها كانت طوالاً شداداً وإن كان الله قد هونها عليهم، كما أنها كانت سنين أزمة بلا شك، فناسب كل ذلك أن يقال: ﴿سِنِينَ﴾ دون ﴿حِجَجٖ﴾ مع أنّ كلاً منهما بمعنى الأعوام. وللدلالة على طولها ومشقتها قال ﴿سِنِينَ﴾ دون «سنوات».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ

تَصۡطَلُونَ﴾ (القصص: ٢٩)، فقال: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ بينما قال في سورة النمل: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ (النمل: ٧)، ولم يقل: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ لأنّ المكث هو الإقامة في المكان، لأنّ قصة موسى ذكرت باختصار وإيجاز شديد في سورة النمل، فالقارئ يمر عليها مروراً فناسب عدم ذكر أمره لأهله بالمكث فيها، بينما ذكرت القصة بشيء من التفصيل في سورة القصص، فناسب ذكر المكث للدلالة على ذلك، وللإشارة إلى أنه ينبغي التمهل في قراءة ودراسة هذه القصة في سورة القصص لأخذ العبر البليغة منها.

ولذا أيضاً قال في سورة طه: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ (طه: ٩، ١٠)، فقال: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ أيضاً لنفس العلة، والمتأمل المتمهل في سورتي القصص وطه بالذات يجد عبراً كثيراً ودروساً بليغةً. وقال في سورتي القصص وطه: ﴿لَّعَلِّيٓ﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ لإفادة رجاء العظة والعبرة في المكث مع هذه القصة في هاتين السورتين، والله أعلم.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ (القصص: ٣٣، ٣٤)، فبدء بذكر خوف موسى من القتل ثمّ خوفه من التكذيب بينما قال في الشعراء: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ (الشعراء: ١٠ - ١٤)، فبدء بذكر خوفه من التكذيب، ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ قصة قتل موسى للقبطي قد ذكرت بالتفصيل في سورة القصص، فناسب ذكرها أولاً، وأمّا في سورة الشعراء فإنه ذكر فيها تعيير فرعون لموسى بهذه الفعلة، وأنه ظنّ أنّ ذلك يفت في عضد موسى، وذكر ردّ موسى عليه بثبات قلبٍ وثقةٍ ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرۡتُ

مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الشعراء : ١٩ - ٢٢)، فلم يناسب أن يبدء بذكر خوفه من أمر قتله القبطي.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ (القصص : ٤٢).

قال **ابن عاشور**: والتخالف بين صيغتي قوله: ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ﴾ وقوله: ﴿ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾، لأن اللعنة في الدنيا قد انتهى أمرها بإغراقهم، أو لأن لعن المؤمنين إياهم في الدنيا يكون في أحيان يذكرونهم، فكلا الاحتمالين لا يقتضي الدوام فجيء معه بالجملة الفعلية، وأما تقبيح حالهم يوم القيامة فهو دائم معهم ملازم لهم فجيء في جانبه بالاسمية المقتضية الدوام والثبات.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (القصص : ٥٤).

قال **ابن عاشور**: أي إنهم يؤتون أجرين على إيمانهم، أي يضاعف لهم الثواب لأجل أنّهم آمنوا بكتابهم من قبل ثم آمنوا بالقرآن، فعبر عن مضاعفة الأجر ضعفين بالمرتين تشبيهاً للمضاعفة بتكرير الإيتاء وإنما هو إيتاء واحد. وفائدة هذا المجاز ظهار العناية حتى كأن المثيب يعطي ثم يكرر عطاءه ففي ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ تمثيله.

- **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ (القصص : ٦١).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ ﴾: هو المؤمن. سمع كتاب الله فصدق به وآمن بما وعد فيه من الخير والجنة. ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قال: هو الكافر. ليس كالمؤمن. ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ قال: من المحضرين في عذاب الله. وأخرج ابن أبي شيبة وابن

أبي حاتم عن مسروق رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ فلم يتجاوزها. وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ قال: أهل النار أحضروها.

وأخرج البخاري في تاريخه عن عطاء بن السائب قال: كان ميمون بن مهران إذا قدم ينزل على سالم البراد، فقدم قدمة فلم يلقه فقالت له امرأته: إنّ أخاك قرأ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ﴾ قالت: فشغل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من استطاع منكم أن يضع كنزه حيث لا يأكله السوس فليفعل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب رضي الله عنه قال: مكتوب في التوراة. ابن آدم ضع كنزك عندي فلا غرق، ولا حرق، أدفعه إليك أفقر ما تكون إليه يوم القيامة.

وأخرج مسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يقول الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، فيقول: رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، ويقول: يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، فيقول: أي رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول تبارك وتعالى: أما علمت أن عبدي فلاناً استسقاك فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي. قال: ويقول: يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. فيقول: أي رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً استطعمك فلم تطعمه، أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي**».

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد الله بن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال: «يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا، وأعطش ما كانوا، وأعرى ما كانوا، فمن

أطعم لله عز وجل أطعمه الله، ومن كسا لله عز وجل كساه الله، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله، ومن كان في رضا الله كان الله على رضاه أقدر».

۞ **قَالَ تعَالَى:** ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾ (القَصَص : ٧٦)، فقال: ﴿ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ ﴾ ولم يقل: «من بني إسرائيل» لما في إضافة ﴿ قَوۡمِ ﴾ إلى موسى من الإيماء إلى أنّ لقارون اتصالاً خاصاً بموسى فهو اتصال القرابة، أفاده **ابن عاشور**.

وقال أيضاً: وافتتاح الجملة بحرف التوكيد يجوز أن يكون لإفادة تأكيد خبر ﴿ إِنَّ ﴾ وما عطف عليه وتعلق به مما اشتملت عليه القصة وهو سوء عاقبة الذين تغرهم أموالهم وتزدهيهم فلا يكترثون بشكر النعمة ويستخفون بالدين، ويكفرون بشرائع الله؛ لظهور أن الإخبار عن قارون بأنه من قوم موسى ليس من شأنه أن يتردد فيه السامع حتى يؤكد له، فمصب التأكيد هو ما بعد قوله: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ ﴾ إلى آخر القصة المنتهية بالخسف.

ويجوز أن تكون ﴿ إِنَّ ﴾ لمجرد الاهتمام بالخبر ومناط بالاهتمام هو مجموع ما تضمنته القصة من العبر التي منها أنه من قوم موسى فصار عدواً له ولأتباعه، فأمره أغرب من أمر فرعون.

۞ **قَالَ تعَالَى:** ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ (القَصَص : ٧١، ٧٢)

قال **ابن عاشور**: ووصف الليل بـ﴿ تَسۡكُنُونَ فِيهِ ﴾ إدماج للمنة في أثناء الاستدلال للتذكير بالنعمة المشتملة على نعم كثيرة. وتلك هي نعمة السكون فيه فإنها تشمل لذة الراحة، ولذة الخلاص من الحر، ولذة استعادة نشاط المجموع العصبي الذي به التفكير والعمل، ولذة الأمن من العدو. ولم يوصف الضياء بشيء لكثرة منافعه واختلاف أنواعها.

قَالَ تَعَالَىٰ بعد ذكر قصة قارون: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣).

قال **ابن عاشور**: انتهت قصة قارون بما فيها من العبر من الخير والشر، فأعقبت باستئناف كلام عن الجزاء على الخير وضده في الحياة الأبدية وأنها معدة للذين حالهم بضد حال قارون، مع مناسبة ذكر الجنة بعنوان الدار لذكر الخسف بدار قارون للمقابلة بين دار زائلة ودار خالدة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (القصص: ٨٥).

قال **ابن عاشور**: عبر عن جانب المهتدي بفعل ﴿مَن جَآءَ﴾ للإشارة إلى أن المهتدي هو الذي جاء بهدى لم يكن معروفاً من قبل كما يقتضيه: جاء بكذا، وعبر عن جانب الضالين بالجملة الاسمية المقتضية ثبات الضلال المشعر بأن الضلال هو أمرهم القديم الراسخ فيهم مع ما أفاده حرف الظريفة من انغماسهم في الضلال وإحاطته بهم. ويكون المعنى حينئذ على حد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لظهور أن المبلِّغ بهذا الكلام لا يفرض في حقه أن يكون هو الشق الضال فيتعين أن الضال من خالفه. وبالنسبة إلى الوجه الثاني تكون بمنزلة الوداع والمتاركة وقطع المجادلة.

❁❁❁

سُورَةُ العَنكبُوتِ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (العَنكبُوتِ: ١٣).

وفيه بيان لما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلاً. والتعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة. أفاده **الألوسي**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العَنكبُوتِ: ٢٤).

قال **الفيروز أبادي**: قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وقال بعده: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فجمع الأولى ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾، ووحد الثانية، لأن الأولى إشارة إلى إثبات النبوة، وفي النبيين «صلوات الله وسلامه عليهم» كثرة والثاني إشارة إلى التوحيد وهو ـ سبحانه ـ واحد لا شريك له.



سُورَةُ الرُّومِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ (الرُّومِ: ٦، ٧).

قال في (**الظلال**): والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل؛ وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم؛ فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً؛ ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون. ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم في الوجود. ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة. وقدر زهيد من النصيب الضخم. ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها، مع آخر يعيش لهذه الدنيا ولا ينتظر ما وراءها. لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ولا قيمة واحدة من قيمها الكبيرة؛ ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشئون فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاوية للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال.. هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن، ونواميس شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء. وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلام البشرية إليه ويرفعها إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان الخليفة في الأرض.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (الرُّومِ: ٤١).

قال **ابن عاشور**: وأطلق الظهور على حدوث حادث لم يكن، فشبه ذلك الحدوث بعد العدم بظهور الشيء الذي كان مختفياً. ومحمل صيغة فعل ﴿ظَهَرَ﴾ على حقيقتها من المضي يقتضي أن الفساد حصل وأنه ليس بمستقبل، فيكون إشارة إلى فساد مشاهد أو محقق الوقوع بالأخبار المتواترة. وقد تحمل صيغة الماضي على معنى توقع حصول الفساد والإنذار به فكأنه قد وقع على طريقة ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.



سُورَةُ لُقْمَانَ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (لُقْمَانَ : ٢٢ - ٢٤).

قال في (**الظلال**): إنّه الاستسلام المطلق لله ـ مع إحسان العمل والسلوك ـ الاستسلام بكامل معناه، والطمأنينة لقدر الله والانطياع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة، والاسترواح للرعاية، والرضى الوجداني رضى السكون والارتياح. كل أولئك يرمز له بإسلام الوجه إلى الله. والوجه أكرم وأعلى ما في الإنسان. ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. العروة التي لا تنقطع ولا تهن ولا تخون ممسكاً بها في سراء أو ضراء ولا يضل من يشد عليها في الطريق الوعر والليلة المظلمة، بين العواصف والأنواء! هذه العروة الوثقى هي الصلة الوثيقة الثابتة المطمئنة بين قلب المؤمن المستسلم وربه. هي الطمأنينة إلى كل ما يأتي به قدر الله في رضى وفي ثقة وفي قبول. طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها ورباطة جأشها في مواجهة الأحداث وفي الاستعلاء على السراء فلا تبطر، وعلى الضراء فلا تصغر، وعلى المفاجآت فلا تذهل! وعلى اللأواء في طريق الإيمان، والعقبات تتناثر فيه من هنا ومن هناك. إن الرحلة طويلة وشاقة وحافلة بالأخطار. وخطر المتاع فيها والوجدان ليس أصغر ولا أقل من خطر الحرمان فيها والشقاء. وخطر السراء فيها ليس أهون ولا أيسر من خطر الضراء، والحاجة إلى السند الذي لا يهن، والحبل الذي لا ينقطع. حاجة ماسة دائمة، والعروة الوثقى هي عروة الإسلام لله والاستسلام والإحسان. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾. وإليه المرجع والمصير. فخير أن يسلم الانسان وجهه إليه منذ البداية، وأن يسلك إليه الطريق على

ثقة وهدى ونور. ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾. تلك نهاية من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن وهذه نهاية من يكفر ويخدعه. متاع الحياة ... متاع نهايته في الدنيا وفي هذا تهوين شأنه على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين. ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾.. فشأنه أهون من أن يحزنك وأصغر من أن يهمك. ونهايته في الآخرة التهوين من شأنه كذلك وهو في قبضة الله لا يفلت وهو مأخوذ بعمله، والله أعلم بما عمل وبما يخفيه في صدره من نوايا. ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. ومتاع الحياة الذي يخدعه قليل، قصير الأجل، زهيد القيمة. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾. والعاقبة بعد ذلك مروعة فظيعة وهو مدفوع إليها دفعاً لا يملك لها رداً. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾. ووصف العذاب بالغلظ يجسمه ـ على طريقة القرآن ـ والتعبير بالاضطرار يلقي ظل الهول الذي يحاول الكافر ألا يواجهه مع العجز عن دفعه، فأين هذا ممن يسلم وجهه إلى الله ويستمسك بالعروة الوثقى، ويصير إلى ربه في النهاية هادئ النفس مطمئن الضمير.

❁❁❁

سُورَةُ السَّجْدَةِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة: ٩).

قال **ابن عاشور**: والعدول عن أن يقال: وجعلكم سامعين مبصرين عالمين إلى ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾. لأن ذلك أعرق في الفصاحة، ولما تؤذن به اللام من زيادة المنة في هذا الجعل، إذ كان جعلا لفائدتهم ولأجلهم، ولما في تعليق الأجناس من السمع والبصر والأفئدة بفعل الجعل من الروعة والجلال في تمكن التصرف، ولأن كلمة ﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ أجمع من كلمة عاقلين لأن الفؤاد يشمل الحواس الباطنة كلها والعقل بعض منها.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (السجدة: ١٦).

قال **ابن عاشور**: وجيء فيها بالمضارع لإفادة تكرار ذلك وتجدده منهم في أجزاء كثيرة من الأوقات المعدة للاضطجاع وهي الأوقات التي الشأن فيها النوم. والتجافي: التباعد والمتاركة. والمعنى: أن تجافي جنوبهم عن المضاجع يتكرر في الليلة الواحدة، أي يكثرون السهر بقيام الليل والدعاء لله؛ وقد فسره النبي ﷺ بصلاة الرجل في جوف الليل، كما في حديث معاذ عند الترمذي.

۞۞۞

سورة الأحزاب

✿ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ (الأحزاب: ٤).

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ (المجادلة: ٢) وقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ٤).

فقال في كل ذلك: ﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾ بالهمز في حين قال: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ (النساء: ١٥). وقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ (النساء: ٢٣). وقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (يوسف: ٥٠).

قال د. **فاضل**: من الملاحظ في استعمال هاتين الكلمتين أنه استعمل ﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾ بالهمزة في حالتي الظهار والطلاق ولم يستعملها في غيرها وكان ذلك لثقل الهمزة فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة النادرة وهي حالات المفارقة. ومن الطريف أن بناء ﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾ وجرسها يوحي بذلك فكأنها مشتقة من اللَّأْي وهو الإبطاء والاحتباس والجهد والمشقة والشدة. والمُظَاهِرُ والمُطَلِّقُ محتبس عن امرأته مبطئ عنها وفي ذلك ما فيه من الجهد والمشقة والشدة للطرفين فانظر حسن المناسبة في اللفظ والمعنى والاستعمال.

✿ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ١٠، ١١)

قال د. **فاضل**: فمد الظنون وأطلقها وذلك لأنهم ظنوا ظنوناً كثيرة مختلفة فأطلقها في الصوت مناسبة لتعددها وإطلاقها. ولو قال: «الظنون» لوقف على الساكن والساكن مقيد فناسب إطلاق الألف إطلاق الظنون. والمؤمنون ههنا في موقف ضيق وخوف شديدين وزلزلة عظيمة كما أخبر عنهم ربنا فغزتهم الظنون وشرقوا وغربوا فيها، فأطلق الصوت مناسبة لإطلاق الظنون وتعددها. فإن قلت: ولِمَ لَمْ يقل: «وتظنون بالله ظنونا» وهي مطلقة أصلاً؟ قلنا: كان ذلك لأكثر من سبب؛ فإن هذا إطلاقه واجب فلا يفيد أنه أطلق الصوت لإطلاق الظنون ولا أنه أطلقه لنكتة ثم إن الظنون التي ظنها أصحاب رسول الله ﷺ معلومة لهم معلومة له سبحانه فهي معارف لا نكرات فناسب ذلك التعريف والمد.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٨)، فقال عن الطلاق: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، وفي ذلك دقة بالغة لأنّ مادة «سرح» تدور حول السهولة والتعجيل، وتفريج الضيق والشدة، فكأنه قال لهنّ: أطلقكنّ طلاقاً سهلاً معجلاً أعطيكنّ فيه متعةً تزول معها شكواكنّ من الضيق والشدة.

قال في (**لسان العرب**): السَّرْح: المال السارحُ. وسَرَّح عنه: فرَّج. وإذا ضاق شيء ففرَّجت عنه قلت: سَرَّحتُ عنه تسريحاً. والتسريح: التسهيل. وافعل ذلك في سراحٍ ورواحٍ أي في سهولة. وأمرٌ سريح أي معجَّل. والاسم منه السراح. وتسريح المرأة: تطليقها والاسم منه السراح . أ.هـ .

قـلتُ: ولكن يـلاحظ أنـه سبحـانه قـال: ﴿سَرَاحًا﴾ ولم يقل: «تسريحاً» مع أنه يقال: سَرَّح تسريحاً وسَرَحَ سَرْحاً، فكلمة سراحاً اسم وليست مصدراً، وعلة ذلك -والله أعلم- بيان المبالغة في التعجيل، فالسراح: العجلة نفسها «أي الاسم»، وكذا هو السهولة نفسها، كمـا يستفاد من كلام **ابن منظور في (لسان العرب)**، وهذا أبلغ من المصدر.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

قال **ابن عاشور**: وضُمِّن ﴿يُؤْذَنَ﴾ معنى تدعون فعدى بـ ﴿إِلَىٰ﴾ فكأنه قيل: إلا أن تُدْعَوْا إلى طعام فيؤذن لكم لأن الطفيلي قد يؤذن له إذا استأذن وهو غير مدعو فهي حالة غير مقصودة من الكلام. فالكلام متضمن شرطين هما الدعوة والإذن فإن الدعوة قد تتقدم على الإذن وقد يقترنان. وموقع الاستدراك لرفع توهم أن التأخر عن إبان الطعام أفضل فأرشد الناس إلى أن تأخر الحضور عن إبان الطعام لا ينبغي بل التأخر ليس من الأدب لأنه يجعل صاحب الطعام في انتظار. وكذلك البقاء بعد انقضاء الطعام فإنه تجاوز لحد الدعوة لأن الدعوة لحضور شيء تقتضي مفارقة المكان عند انتهائه لأن تقييد الدعوة بالغرض المخصوص يتضمن تحديدها بانتهاء ما دعي لأجله. وكذلك الشأن في كل دخول لغرض من مشاورة أو محادثة أو سمر أو نحو ذلك. وكل ذلك يتحدد بالعرف وما لا يثقل على صاحب المحل فإن كل محل لا يختص به أحد كدار الشورى والنادي فلا تحديد فيه.

قَالَ تَعَالَىٰ عن نساء النبي ﷺ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ (الأحزاب: ٥٥)، فقال: ﴿أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ولم يقل: ﴿بَنِىٓ﴾ بينما قال في سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ (النور: ٣١)، فقال: ﴿بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾، ووجه

ذلك ـ كما قال د. **فاضل**: ـ أنّ لفظ ﴿ بَنِيٓ ﴾ تدل على الكثرة وأنها تشمل أكثر مما يشمله الأبناء نحو بني آدم وبني إسرائيل ولم يرد في القرءان: أبناء آدم، ولا أبناء إسرائيل، فلمّا كان أبناء الإخوة والأخوات أكثر من أبناء المرأة وأبناء بعولتهنّ ناسب أن يقول: ﴿ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ ولا يقول: «أبناء إخوانهنّ أو أبناء أخواتهنّ» عند الكلام على عموم المسلمين، وأمّا عند الكلام عن أزواج النبي ﷺ فقال: ﴿ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ لقلّة أبناء إخوانهنّ وأبناء إخوانهنّ بالنسبة لعموم المسلمين.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وعبر بالنبي دون اسمه ﷺ على خلاف الغالب في حكايته تعالى عن أنبيائه عليهم السلام إشعاراً بما اختص به ﷺ من مزيد الفخامة والكرامة وعلو القدر وأكد ذلك الإشعار بـ «أل» إشارة أنه المعروف الحقيق بهذا الوصف. أفاده **الألوسي**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ (الأحزاب: ٦٦، ٦٧).

قال د. **فاضل**: قال تعالى: ﴿ ٱلرَّسُولَا۠ ﴾، و﴿ ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ بمد «الرسول» و«السبيل» مع أن القياس لا يقتضي المد وهو لم يمد «السبيل» في أول السورة وإنما قال: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ والفرق بينهما أن آيتي المد هما من قول أهل النار وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء كما أخبر عنهم ربنا بقوله: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ (فاطر: ٣٧) فالمقام هنا مقام صراخ ومد صوت فناسب المد. في حين أن الآية الأخرى ليست كذلك وإنما هي قول الله مقرراً حقيقة عقلية معلومة؛ قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾.

فالمقام لا يقتضي المد ههنا بخلاف ذاك.

سُورَةُ سَبَإٍ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (سَبَإٍ: ٢٤).

قال **ابن عاشور**: ومن لطائفه هنا أن اشتمل على إيماء إلى ترجيح أحد الجانبين في أحد الاحتمالين بطريق مقابلة الجانبين في ترتيب الحالتين باللف والنشر المرتب وهو أصل اللف؛ فإنه ذكر ضمير جانب المتكلم وجماعته وجانب المخاطبين ثم ذكر حال الهدى وحال الضلال على ترتيب ذكر الجانبين، فأومأ إلى أن الأولين موجهون إلى الهدى والآخرين موجهون إلى الضلال المبين لا سيما بعد قرينة الاستفهام، وهذا أيضاً من التعريض وهو أوقع من التصريح لاسيما في استنزال طائر الخصم. وفيه أيضاً تجاهل العارف، فقد التأم في هذه الجملة ثلاثة محسنات من البديع ونكتة من البيان فاشتملت على أربع خصوصيات. وجيء في جانب أصحاب الهدى بحرف الاستعلاء المستعار للتمكن تمثيلاً لحال المهتدي بحال متصرف في فرسه يُركضه حيث شاء أو متمكن من شيء بلغ به مقصده، وهي حالة مماثلة لحال المهتدي على بصيرة فهو يسترجع مناهج الحق في كل صوب متسع النظر منشرح الصدر، ففيه تمثيلية مكنية وتبعية. وجيء في جانب الضالين بحرف الظرفية المستعار لشدة التلبس بالوصف تمثيلاً لحالهم في إحاطة الضلال بهم بحال الشيء في ظرف محيط به لا يتركه يفارقه ولا يتطلع منه على خلاف ما هو فيه من ضيق يلازمه. وفيه أيضاً تمثيلية تبعية وهذا يُنظَّر إلى قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾. فحصل في الآية أربع استعارات وثلاثة محسنات من البديع وأسلوب بياني وحجة قائمة وهذا إعجاز بديع.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سَبَإٍ: ٢٥).

قال **ابن عاشور**: وإسناد الإجرام إلى جانب المتكلم ومن معه مبني على زعم المخاطبين وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾. كان المشركون يؤنبون

المؤمنين بأنه خاطئون في تجنب عبادة أصنام قومهم، وهذه نكتة صوغه في صياغة الماضي لأنّه متحقق على زعم المشركين. وصيغ ما يعمل المشركون في صيغة المضارع لأنهم ينتظرون منهم عملاً؛ تعريضاً بأنهم يأتون عملاً غير ما عملوه أي يؤمنون بالله بعد كفرهم. وهذا ضرب من المشاركة والموادعة ليخلوا بأنفسهم فينظروا في أمرهم ولا يلهيهم جدال المؤمنين عن استعراض ومحاسبة أنفسهم. وأسندوا العمل على إطلاقه في جانب المخاطبين لأن النظر والتدبر بعد ذلك يكشف عن كنه كلا العملين.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سَبَإٍ: ٣١).

قال: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ جملة اسمية ليفيد طول الوقوف بين يدي الله طولاً يستوجب الضجر ويملأ القلوب رعباً وهو ما أشار إليه حديث: «تدنو الشمس من رؤوس الخلائق فيشتد عليهم حرها فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يُريحنا من مكاننا» الحديث، وأما قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سَبَإٍ: ٣١). فالسين والتاء في ﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ للعد والحسبان أي الذين يعدهم الناس ضعفاء لا يؤبه بهم وإنما يعدهم الناس كذلك لأنهم كذلك، ويعلم أنهم يستضعفون أنفسهم بالأولى لأنهم أعلم بما في أنفسهم. ومن مشمولاته الضعة والضراعة ولذلك قوبل بـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي عدوا أنفسهم كبراء وهم ما عدوا أنفسهم كبراء إلا لما يقتضي استكبارهم لأنهم لو لم يكونوا كذلك لوصفوا بالغرور والإعجاب الكاذب؛ ولهذا عبر في جانب الذين استضعفوا بالفعل المبني للمجهول وفي جانب الذين استكبروا بالفعل المبني للمعلوم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ (سَبَإٍ: ٥٠)

قال **ابن عاشور**: واختير في جانب الهدى فعل ﴿ ٱهۡتَدَيۡتُ ﴾ الذي هو مضارع «هدى» لما فيه من الإيماء إلى أن له هادياً وبينه بقوله: ﴿ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ﴾ ليحصل شكره لله إجمالاً ثم تفصيلاً وفي قوله: ﴿ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ﴾ إيماءً إلى أنه على هدى لأنه أثبت أن وحياً من الله وارد إليه. وقد استفيد أن الضلال المفروض إن حصل فسببه من قبل نفسه من إسناد فعل «أضل» إلى ضمير المتكلم ثم مما عقبه من قصر الضلال على الحصول من المتكلم وهو أغرق في التعلق به.

فائدة: في مناسبة خاتمة آخر سورة سبأ مع أول فاطر:

قال **أبو حيان**: لما ذكر سبحانه في آخر سبأ هلاك المشركين أعداء المؤمنين وأنزلهم منازل العذاب، تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره لنعمائه ووصفه بعظيم آلائه، أي وهذه مناسبة جعل سورة فاطر التي تبدأ بحمد الله بعد سبأ. أ.هـ.

قلتُ: لمّا ذكر في آخر سبأ انقطاع الأمل واليأس عند الكفار الذين حيل بينهم وبين ما يشتهون، كان من المناسب جعل سورة فاطر بعدها لما في أولها من ذكر نعم الله على خلقه في الدنيا بإرسال الملائكة ﴿ رُسُلًا أُوْلِيٓ ﴾، ورزقه للخلق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾، فهو الرحمن الرحيم، وما ظلم هؤلاء الكفار ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم وكذبوا الرسل وما اتعظوا بنصح الرسل ووعظهم، ولا استجابوا لتحذير الله إياهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾ (فاطر: ٥ - ٧)، كما أنّ أول سورة فاطر يبين طريق النجاة من حال الكفار المشين وهو طريق الفوز بالدنيا والآخرة وهو الاعتماد على الله وحده والتوكل عليه وحده: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (فاطر: ٢).

سُورَةُ فَاطِر

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ ﴾ (فاطر: ٨).

قال **ابن عاشور**: والنهي موجه إلى نفس الرسول ﷺ أن تذهب حسرات على الضالين ولم يوجه إليه بأن يقال فلا تَذْهب عليهم حسرات والرسول ﷺ ونفسه متحدان فتوجيه النهي إلى نفسه دون أن يقال فلا تذهب عليهم حسرات للإشارة إلى أن الذهاب مستعار إلى التلف والانعدام كما يقال طارت نفسها شعاعاً. ومثله في كلامهم كثير لتحصل فائدة توزيع النهي والخطاب على شيئين في ظاهر الأمر فهو تكرير الخطاب والنهي لكليهما وهي طريقة التجريد المعدود في المحسنات. وفائدة التكرير الموجب تقرير الجملة في النفس. وانتصب ﴿ حَسَرَٰتٍ ﴾ على المفعول لأجله أي لا تتلف نفسك لأجل الحسرة عليهم وهو كقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ ﴾. أي من حزن نفسه لا من حزن العينين. وجُمعت الحسرات مع أن اسم الجنس صالح للدلالة على تكرار الأفراد قصداً للتنبيه على إرادة أفراد كثيرة من جنس الحسرة لأن تلف النفس يكون عند تعاقب الحسرات الواحدة تلو الأخرى لدوام المتحسر منه؛ فكل تحسر يترك حزازة وكمداً في النفس حتى يبلغ إلى الحد الذي لا تطيقه النفس فينفطر له القلب؛ فإنه قد علم في الطب أن الموت من شدة الألم كالضرب المبرح وقطع الأعضاء سببه اختلال حركة القلب من توارد الآلام عليه.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ (فاطر: ١٠).

قال في (**الظلال**): ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾. وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر في القلوب أن تبدل المعايير كلها، وتبدل الوسائل والخطط أيضاً! إن العزة كلها

لله. وليس شيء منها عند أحد سواه. فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره. ليطلبها عند الله، فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد، ولا في أي كنف، ولا بأي سبب ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

إن الناس الذين كانت قريش تبتغي العزة عندهم بعقيدتها الوثنية المهلهلة؛ وتخشى اتباع الهدى ـ وهي تعترف أنه الهدى ـ خشية أن تصاب مكانتها بينهم بأذى. إن الناس هؤلاء، القبائل والعشائر وما إليها، إن هؤلاء ليسوا مصدراً للعزة، ولا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.. وإذا كانت لهم قوة فمصدرها الأول هو الله. وإذا كانت لهم منعة فواهبها هو الله. وإذن فمن كان يريد العزة والمتعة فليذهب إلى المصدر الأول، لا إلى الآخذ المستمد من هذا المصدر. ليأخذ من الذي يملك وحده كل العزة، ولا يذهب يطلب قمامة الناس وفضلاتهم. وهم مثله طلاب محاويج ضعاف!

إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية. وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل النهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب! ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب لتقف به أمام الدنيا كلها عزيزاً كريماً ثابتاً في وقفته غير مزعزع، عارفاً طريقه إلى العزة، طريقه الذي ليس هنالك سواه! إنه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر. ولا لعاصفة طاغية. ولا لحدث جلل. ولا لوضع ولا لحكم. ولا لدولة ولا لمصلحة، ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً. وعلام؟ والعزة لله جميعاً. وليس لأحد منها شيء إلا برضاه؟ ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح. ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾.. ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضخمة مغزاه وإيحاؤه. فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله. القول الطيب والعمل الصالح. القول الطيب الذي يصعد إلى الله في علاه؛ والعمل الصالح الذي يرفعه إليه ويكرمه بهذا الارتفاع. ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء.

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس. حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله. حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي. يستعلي بها على شهواته المذلة، ورغائبه القاهرة، ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس. ومتى استعلى على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه. فإنما تذل الناس شهواتهم ورغباتهم، ومخاوفهم ومطامعهم. ومن استعلى عليها فقد استعلى على كل موضع وعلى كل شيء وعلى كل إنسان.. وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان!

إن العزة ليست عناداً جامحاً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل. وليست طغياناً فاجراً يضرب في عتو وتجبر وإصرار. وليست اندفاعاً باغياً يخضع للنزول ويذل للشهوة. وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح.. كلا! إنما العزة استعلاء على شهوة النفس، واستعلاء على القيد والذل، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله. ثم هي خضوع لله وخشوع؛ وخشية لله وتقوى، ومراقبة لله في السراء والضراء.. ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه. ومن هذه الخشية لله تصمد لكل ما يأبه. ومن هذه المراقبة لله لا تُعنَى إلا برضاه. هذا مكان الكلم الطيب والعمل الصالح من الحديث عن العزة، وهذه هي الصلة بين هذا المعنى وذاك في السياق.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (فاطر: ١٠).

قال **ابن عاشور**: وإنما جيء في جانب العمل الصالح بالإخبار عنه بجملة ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ ولم يعطف على ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ في حكم الصعود إلى الله مع تساوي الخبرين لفائتدين: أولهما الإيماء إلى أن نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب على الجملة لأن معظم العمل الصالح أوسع نفعاً من معظم الكلم الطيب «عدا كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنة مثل دعاء يوم عرفة» فلذلك أسند إلى الله رفعه بنفسه كقول النبي ﷺ: «**من تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً تلقاها**

الرحمن بيمينه وكلتا يديه يمين فيربيها له كما يربي أحدكم فُلُوَّة حتى تصير مثل الجبل» وثانيهما: أن الكلم الطيب يتكيف في الهواء فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته وأما العمل الصالح فهو كيفيات عارضة لذوات فاعلة ومفعولة فلا يناسبه إسناد الصعود إليه وإنما يحسن أن يجعل متعلقاً لرفع يقع عليه ويسخره إلى الارتفاع.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾** (فَاطِر: ١٩ - ٢٢).

قال **ابن عاشور**: وقدم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه ابتداءً لأن الغرض الأهم من هذا التشبيه هو تفظيع حال الكافر ثم الانتقال إلى حسن حال ضده لأن هذا التشبيه جاء لإيضاح ما أفاده القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ كما تقدم آنفاً من أنه قصر إضافي قصر قلب. ثم شبه الكفر بالظلمات في أنه يجعل الذي أحاط هو به غير متبين للأشياء فإن من خصائص الظلمة إخفاء الأشياء والكافر خفيت عنه الحقائق الاعتيادية وكلما بينها له القرآن لم ينتقل إلى مكان أجلى كما لو وصفت الطريق للسائر في الظلام. وضُرب الظل مثلاً لأثر الإيمان وضده وهو الحرور مثلاً لأثر الكفر فالظل مكان نعيم في عرف السامعين الأولين وهم العرب أهل البلاد الحارة التي تتطلب الظل للنعيم غالباً إلا في بعض فصل الشتاء، وقوبل بالحرور لأنه مؤلم ومعذب في عرفهم كما علمت. وفي مقابلته بالحرور إيذان تشبيه بالظل في حالة استطابته. والحرور حر الشمس ويطلق أيضاً على الريح الحارة وهي السموم، أو الحرور الريح الحارة التي تهب بليل والسموم تهب بالنهار. فحال المؤمن يشبه حال الظل تطمئن فيه المشاعر وتصدر فيه الأعمال عن تبصر وتريث وإتقان وحال الكافر يشبه الحرور تضطرب فيه النفوس ولا تتمكن معه العقول من التأمل والتبصر وتصدر فيها الآراء والمساعي معجلة متفككة.

فلما كانت الحياة هي مبعث المدارك والمساعي كلها وكان الموت قاطعاً للمدارك والمساعي شبه الإيمان بالحياة في انبعاث خير الدنيا والآخرة منه وفي تلقي ذلك وفهمه

وشبه الكفر بالموت في الانقطاع عن الأعمال والمدركات النافعة كلها وفي عدم تلقي ما يلقى إلى صاحبه فصار المؤمن شبيهاً بالحي مشابهة كاملة لما خرج من الكفر إلى الإيمان فكأنه بالإيمان نضحت فيه الحياة بعد الموت كما أشار إليه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ وكان الكافر شبيهاً بالميت ما دام على كفره.

قال في (**الظلال**) معلقاً على قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ (فاطر: ٢٢)، ولن يستوي عند الله الإيمان والكفر، والخير والشر، والهدى والضلال؛ كما لا يستوي العمى والبصر، والظلمة والنور، والظل والحرور، والحياة والموت وهي مختلفة الطبائع من الأساس.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ .. وبين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت صلة. كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل والحياة.. إن الإيمان نور، نور في القلب ونور في الجوارح، ونور في الحواس. نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينهما من ارتباطات ونسب وأبعاد. فالمؤمن ينظر بهذا النور، نور الله، فيرى تلك الحقائق، ويتعامل معها ولا يخبط في طريقه ولا يبطش في خطواته! والإيمان بصر، يرى. يرى رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مخلخلة. ويمضي بصاحبه في الطريق على نور وعلى ثقة وفي اطمئنان. والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة في التيه المظلم بلا دليل! والإيمان حياة. حياة في القلوب والمشاعر. حياةو في القصد والاتجاه. كما أنه حركة مثمرة. قاصدة لا خمود فيها ولا همود ولا عبث فيها ولا ضياع. والكفر عمى. عمى في طبيعة القلب. وعمى عن رؤية دلائل الحق وعمى عن رؤية حقيقة الوجود وحقيقة الارتباطات فيه وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء. والكفر ظلمة أو ظلمات فعندما يبعد الناس عن نور الإيمان يقعدون في ظلمات من الأنواع والأشكال ظلمات تعز فيها الرؤية الصحيحة لشيء من الأشياء.

والكفر هاجرة. حرور. تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف، وعدم الاطمئنان إلى نشأة أو مصير. ثم تنتهي إلى حر جهنم ولفحة العذاب هناك. والكفر موت. موت في الضمير وانقطاع عن الحياة (الحقيقية). وانفصال عن الطريق الواصل. وعجز عن الانفعال والاستجابة ولكل طبيعته ولكل جزاؤه، ولن يستوي عند الله هذا وذاك.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ (فاطر: ٢٥).

قال **ابن عاشور**: وإذ قد كان سياق الحديث في شأن الأمم جعلت التسلية في هذه الآية بحال الأمم مع رسلهم عكس ما في آية آل عمران: ﴿**فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ**﴾. لأن سياق آية آل عمران كان في رد محاولة أهل الكتاب إفحام الرسول لأن قبلها ﴿**ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ**﴾. وقد خولف أيضاً في هذه الآية أسلوب آية آل عمران إذ قرن كل من ﴿**وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ**﴾ هنا بالباء وجردا منها في آية آل عمران، وذلك لأن آية آل عمران جرت في سياق زعم اليهود أن لا تقبل معجزة رسول إلا معجزة قربان تأكله النار فقيل في التفرد ببهتانهم قد كذبت الرسل الذين جاء الواحد منهم بأصناف المعجزات مثل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معجزاتهم قرابين تأكلها النار فكذبتموهم فترك إعادة الباء هنالك إشارة إلى أن الرسل جاءوا بالأنواع الثلاثة ولما كان المقام هنا لتسلية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل، فمنهم الذين آتوا بآيات أي خوارق عادات فقط مثل صالح وهود ولوط. ومنهم من أتوا بالزبر وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها وزبرها أي تخطيطها لتكون محفوظة وتردد على الألسن كزبر داود وكتب أصحاب الكتب من أنبياء بني إسرائيل مثل أرمياء وإيلياء. ومنهم من جاءوا بالكتاب المنير يعني كتاب

الشرائع مثل إبراهيم وموسى وعيسى فذكر الباء مشير إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ (فَاطِر : ٢٧)

قال **ابن عاشور**: وقصد الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات لأن في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد في الحديث: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها**».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ (فَاطِر : ٢٧، ٢٨).

قال **ابن عاشور**: وجيء في جملة ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ﴾ و﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ بالاسمية دون الفعلية كما في الجملة السابقة لأن اختلاف ألوان الجبال والحيوان الدال على اختلاف أحوال الإيجاد اختلافاً دائماً لا يتغير وإنما يحصل مرة واحدة عند الخلق وعند تولد النسل.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فَاطِر : ٢٨).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: العلماء بالله الذين يخافونه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: الذين يعلمون أنّ الله على كل شيء قدير.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية.

وأخرج ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير قال: العالم من خشي الله.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: أعلمهم بالله أشدهم له خشية.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان عن أبي حيان التيمي عن رجل قال: كان يقال العلماء ثلاثة. عالم بالله، وبأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله، ويعلم الحدود والفرائض. والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي عن مالك بن أنس رضي الله عنه قال: إنّ العلم ليس بكثرة الرواية، إنما العلم نور يقذفه الله في القلب.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال: الإيمان من خشي الله بالغيب، ورغب فيما رغَّب الله فيه، وزهد فيما أسخط الله، ثم تلا ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. وأخرج عبد بن حميد عن مسروق قال: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كفى بخشية الله علماً، وكفى باغترار المرء جهلاً.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال: الفقيه من يخاف الله.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن العباس العمي قال: بلغني أن داود عليه السلام قال: سبحانك! تعاليت فوق عرشك، وجعلت خشيتك على من في السموات والأرض، فأقرب خلقك إليك أشدهم لك خشية، وما علم من لم يخشك، وما حكيم من لم يطع أمرك.

وأخرج أحمد في الزهد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية.

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم عن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**العلم علمان. علم في القلب، فذاك العلم النافع. وعلم على اللسان، فتلك حجة الله على خلقه**».

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: بحسب المرء من العلم أن يخشى الله.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس يفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخلطون، وبخشوعه إذ الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن ألّا يكون صخاباً، ولا صياحاً، ولا حديداً.

وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن وهب بن منبه قال: أقبلت مع عكرمة أقود ابن عباس رضي الله عنهما بعدما ذهب بصره حتى دخل المسجد الحرام، فإذا قوم يمترون في حلقة لهم عند باب بني شيبة فقال: أمل بي إلى حلقة المراء، فانطلقت به حتى أتاهم، فسلم عليهم، فأرادوه على الجلوس، فأبى عليهم وقال: انتسبوا إليّ أعرفكم فانتسبوا إليه فقال: أما علمتم أن لله عباداً أسكتتهم خشيته من غير عي ولا بكم، إنهم لهم الفصحاء، النطقاء، النبلاء، العلماء بأيام الله، غير أنهم إذا ذكروا عظمة الله طاشت عقولهم من ذلك، وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استقاموا من ذلك سارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية، فأين أنتم منهم؟ ثم تولى عنهم، فلم ير بعد ذلك رجلان.

وأخرج الخطيب فيه أيضاً عن سعيد بن المسيب قال: وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثماني عشرة كلمة حكم كلها قال: ما عاقبت من عصى الله فيك مثل أن تطيع الله فيه، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك منه ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عرَّض نفسه للتهمة فلا

يلومن من أساء الظن به، من كتم سره كانت الخيرة في يده، وعليك بأخوان الصدق تعش في أكفانهم فإنهم زينة في الرخاء، عدة في البلاء، وعليك بالصدق وإن قتلك، ولا تعرض فيما لا يعني، ولا تسأل عما لم يكن، فإنّ فيما كان شغلاً عما لم يكن، ولا تطلب حاجتك إلى من لا يحب نجاحها لك، ولا تهاون بالحلف الكاذب فيهلكك الله، ولا تصحب الفجار لتعلم من فجورهم، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله، وتخشع عند القبور، وذل عند الطاعة، واستعصم عند المعصية، واستشر الذين يخشون الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

وأخرج عبد بن حميد عن مكحول قال: سئل رسول الله ﷺ عن العالم والعابد فقال: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**». ثم تلا النبي ﷺ هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. ثم قال: «**إن الله وملائكته، وأهل السماء، وأهل الأرض، والنون في البحر، ليصلون على معلمي الخير**».

سُورَةُ يسٓ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (يسٓ: ٤٩، ٥٠).

فقال: ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ بينما قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (الزُّمَر: ٣١). فقال: ﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾، وذلك لأنّ فعل ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ بالتضعيف يفيد قوة الاختصام وكثرته والمبالغة فيه، وهكذا تقوم الساعة على شرار الخلق المبالغين في الاختصام، وأمّا قوله في سورة الزمر: ﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾ بفك الإدغام يدل على تطاول وتكرار الاختصام، وهكذا يكون الأمر يوم القيامة، فمـا أطوله من يوم!! وما أكثر الاختصام فيه!! والقاعدة اللغوية في ذلك ما ذكره د. **فاضل** أنّ التضعيف «التشديد» يدل على المبالغة والكثرة، وفك التضعيف يدل على التطاول في المدة والتكرار، والله أعلم.



سورة الصافات

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الصافات: ٩٩).

قال في (**الظلال**): هكذا إني ذاهب إلى ربي... إنها الهجرة. وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية. هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل. ويهاجر إلى ربه متخففاً من كل شيء، طارحاً وراءه كل شيء، مسلماً نفسه لربه لا يستبقي فيها شيئاً موقن أن ربه سيهديه، وسيرعى خطاه وينقلها في الطريق المستقيم.

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن أواصر شتى إلى آصره واحدة لا يزحمها في النفس شيءٌ. إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين.

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ (الصافات: ١٠٣).

قال في (**الظلال**): ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة. وعظمة الإيمان، وطمأنينة الرضى وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان.. إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً. وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعاً. وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً.

لقد أسلما.. فهذا هو الإسلام. هذا هو الإسلام في حقيقته. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم.. وتنفيذ. وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم. إنها ليست الشجاعة والجراءة. وليس الاندفاع والحماسة لقد يندفع المجاهد في الميدان، يَقْتل ويُقتل. ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود. ولكن هذا كله شيء، والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر.. ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنما هو

الاستسلام الواعي المتعقل من القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هو الرضى الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا. كانا قد أسلما. كانا قد حققا الأمر والتكليف ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل ويسيل دمه وتزهق روحه. وهذا أمرٌ لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما.. كان الابتلاء قد تم والامتحان قد وقع ونتائجه قد ظهرت وغاياته قد تحققت ولم يَعُدْ إلا الألم البدني وإلا الدم المسفوح. والجسد الذبيح. والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء ولا يريد دمائهم وأجسادهم في شيء. ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكيانهم فقد أدوا، وقد حققوا التكليف، وقد جازوا الامتحان بنجاح وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما. فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا.



سُورَةُ صٓ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ (صٓ: ١)، معنى الذكر: الشرف وعلو القدر، والمراد القسم على شرف القرءان، ودلّ سبحانه على ذلك في المقسم به، وهذا من أبلغ ما يكون، فبدلاً من أن يقول: «ص وعزتي إنّ القرءان لذي ذكر» مثلاً، قال: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ ليدل على المقسم عليه مع المقسم به معاً، وهذا أسلوبٌ عربيٌ عظيم؛ قال **ابن القيم**: وتارة يُحذف المقسم عليه من القسم وهو مراد، إما لكونه قد ظهر وعرف إما بدلالة الحال كمن قيل له كل فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو أو بدلالة السياق وأكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه وهي طريقة القرآن فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، كمن أراد أن يقسم على أن الرسول حق فقال: والذي أرسل محمداً بالهدى ودين الحق وأيده بالآيات البينات وأظهر دعوته وأعلى كلمته ونحو ذلك فلا يحتاج إلى ذكر الجواب استغناء عنه بما في القسم من الدلالة عليه كمن أراد أن يقسم على التوحيد وصفات الرب ونعوت جلاله فقال: والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الأول الآخر الظاهر الباطن وكمن أراد أن يقسم على علوه فوق عرشه فقال: والذي استوى على عرشه فوق سمواته يصعد إليه الكلم الطيب.

ونظائر ذلك لم يحتج إلى جواب القسم وكان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه. فمن هذا قوله تعالى: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه وللشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه وكونه حقاً من عند الله غير مفترى كما يقول الكافرون. وهذا معنى قول كثير من المفسرين ـ متقدميهم ومتأخريهم ـ إن الجواب هاهنا محذوف تقديره: إن القرآن لحق، وهذا مطرد في كل شأنه ذلك.

قلتُ: وهذا كلامٌ طيب لابن القيم رحمه الله ولكن يُضاف ها هنا فائدة أبداها عبد القاهر الجرجاني رحمه الله وهي أنّ قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ (ص: ٢)، في قوله: ﴿ بَلِ ﴾ ما يدل على المقسم عليه، فإنّ ﴿ بَلِ ﴾ رافعٌ لخبرٌ قبله ومثبت لخبرٍ بعده، فقد ظهر ما بعده وظهر ما قبله، وما بعده دليلٌ على ما قبله، فالظاهر يدل على الباطن، فإذا كان كذلك وجب أن يكون قوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ (ص: ٢) مخالفاً لهذا المضمر، فكأنه قيل: والقرءان ذي الذكر إنّ الذين كفروا يزعمون أنهم على الحق، وعزتي ـ مثلاً ـ إنّهم لكاذبون بل هم في عزةٍ وشقاق. ولا تعارض بين كلامهما، بل قوله ﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ دليلٌ على أنّه يقسم على ذلك أيضاً ـ كما ذكرنا آنفاً عن ابن القيم ـ فكأنّه قال: ص وعزتي وجلالي إنّ القرءان لذي ذكر، وإنّ الذين كفروا ليزعمون أنّهم على الحق، وهم كاذبون بل هم في عزةٍ وشقاق، فاختُصر ذلك كله، وقال: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ (ص: ١، ٢)، فلله إعجازه وإيجازه!!

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (ص: ١٦)، فقال: ﴿ قِطَّنَا ﴾ ولم يقل: «نصيبنا» وفي ذلك دقة بالغة، لأنّ القط في الأصل ـ كما قال **الشنقيطي** ـ هو كتاب الجائزة لأنّ الملك يكتب فيه النصيب الذي يعطيه لكل إنسان، وجمعه قطوط، ومنه قول الأعشى:

ولا الملـــك الـــنعمان حـــين لقيتـــه ... بغبطته يعطي القطوط ويأفق. أ.هـ.

قلتُ: فقوله: ﴿ قِطَّنَا ﴾ إذاً فيه مناسبة لدلالة على أنّ هذا النصيب مكتوب مسبقاً عند الله كالقط الذي يكتبه الملك، ومن جهةٍ أخرى يدل على استهزاءهم حيث جعلوا العذاب الذي يهدَّدون به كالجائزة التي يعطيها الملك، ولو قال: «نصيبنا» لما دلّ على ذلك، فما أدق كلام الله!! وما أحلاه!!

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩).

قال **الشنقيطي**: وأما كون هذا الكتاب مباركاً، فقد ذكره في آيات من كتابه: ﴿ **وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ (الأنعام: ٩٢)، وقوله: ﴿ **وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٥٥). والمبارك كثير البركات، من خير الدنيا والآخرة. ونرجو الله القريب المجيب، إذ وفقنا لخدمة هذا الكتاب المبارك أن يجعلنا مباركين أينما كنا، وأن يبارك لنا وعلينا، وأن يشملنا ببركاته العظيمة في الدنيا والآخرة، وأن يعم جميع إخواننا المسلمين، الذين يأتمرون بأوامره بالبركات في الدنيا والآخرة، إنه قريب مجيب!! أ.هـ.

قلتُ: لا أعلم أحداً اشتغل بصدقٍ وإخلاصٍ بهذا الكتاب المبارك ـ كتاب الله العظيم ـ إلّا وبارك الله فيه وله وصار له الصيت بين الناس في الدنيا مع ما يُرجى له في الآخرة، وصدق عمر بن الخطاب إذ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين**»، والعجب أنّ الزمخشري والفخر الرازي على فساد اعتقادهما في مسائل كثيرة إلّا أنهّما نالا صيتاً بين الناس لمّا اشتغلا بالتفسير.

فائدة: قال **القرطبي**: يجب على من عَلِمَ كتاب الله أن يزدجر بنواهيه ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحييه؛ فإنه حُمِّل أعباء الرسل وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل، فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ويتدبر حقائق عبارته ويتفهم عجائبه ويتبين غرائبه.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ **وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ** ﴾ (ص: ٤٨).

قال **ابن عاشور**: فُصل ذكر إسماعيل عن عَدِّه مع أبيه إبراهيم وأخيه إسحاق لأن إسماعيل كان جد الأمة العربية أي معظمها فإنه أبو العدانيين وجد للأم لمعظم القحطانيين لأن زوج إسماعيل جرهمية فلذلك قطع عن عطفه على ذكر إبراهيم وعاد الكلام إليه هنا وأما قرنه ذكره بذكر أليسع وذي الكفل بعطف اسميهما على اسمه

فوجهه دقيق في البلاغة وليس يكفي في توجيهه ما تضمنه قوله: ﴿ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ لأن التماثل في الخيرية ثابت لجميع الأنبياء والمرسلين فلا يكون ذكرهما بعد ذكر إسماعيل أولى من ذكر غيرهما من ذوي الخيرية الذين شملهم لفظ الأخيار والاصطفاء فإن شرط قبول العطف بالواو أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جامع عقلي أو وهمي أو خيالي كما قال في المفتاح. فأما عطف اليسع على إسماعيل فلأن اليسع كان مقامه في بني إسرائيل كمقام إسماعيل في بني إبراهيم لأن اليسع كان بمنزلة الابن للرسول إلياس «إيليا» وكان إلياس يدافع ملوك يهود أو ملوك إسرائيل عن عبادة الأصنام وكان اليسع في إعانته كما كان إسماعيل في إعانة إبراهيم وكان إلياس لما رفع إلى السماء قام اليسع مقامه وأما عطف ذي الكفل على إسماعيل فلأنه مماثل لإسماعيل في صفة الصبر قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.



سورة الزمر

۞ **قَالَ تعَالَىٰ:** ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر : ١٠).

قال في (**الظلال**): والتقوى هي تلك الحساسية في القلب، والتطلع إلى الله في حذر وخشية، وفي رجاء وطمع، ومراقبة غضبه ورضاه في توقر وإرهاف.. إنها تلك الصورة الوضيئة المشرقة التي رسمتها الآية السابقة لذلك الصنف الخاشع القانت من عباد الله. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾. وما أجزل الجزاء! حسنة في الدنيا القصيرة الأيام الهزيلة المقام تقابلها حسنة في الآخرة دار البقاء والدوام. ولكنه فضل الله على هذا الإنسان. الذي يعرف منه ضعفه وعجزه وضآلة جهده. فيكرمه ويرعاه! ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾. فلا يقعد بكم حب الأرض وإلف المكان، وأواصر النسب والقربى والصحبة في دار عن الهجرة منها، إذا ضاقت بكم في دينكم، وأعجزكم فيها الاحسان. فإن الالتصاق بالأرض في هذه الحالة مدخل من مداخل الشيطان؛ ولون من اتخاذ الأنداد لله في قلب الإنسان. وهي لفتة قرآنية لطيفة إلى مداخل الشرك الخفية في القلب البشري، في معرض الحديث عن توحيد الله وتقواه، تنبئ عن مصدر هذا القرآن. فما يعالج القلب البشري هذا العلاج إلا خالقه البصير به، العليم بخفاياه.

والله خالق الناس يعلم أن الهجرة من الأرض عسيرة على النفس، وأن التجرد من تلك الوشائج أمر شاق، وأن ترك مألوف الحياة ووسائل الرزق واستقبال الحياة في أرض جديدة تكليف صعب على بني الإنسان.

۞ **قَالَ تعَالَىٰ:** ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر : ٢٢، ٢٣).

قال في (**الظلال**): وكما ينزل الماء من السماء، فينبت لهم به زرعاً مختلفاً ألوانه، كذلك ينزل من السماء ذكراً تتلقاه القلوب الحية؛ فتتفتح وتنشرح وتتحرك حركة الحياة، وتتلقاه القلوب القاسية كما تتلقاه الصخرة القاسية التي لا حياة فيها ولا نداوة!

والله يشرح للإسلام قلوباً يعلم منها الخير، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضيء. والفرق بين هذه القلوب وقلوب أخرى قاسية فرق بعيد. ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به. وتصور حالها مع الله حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة والإشراق والاستنارة. كما تصور حقيقة القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها، وعتمتها وظلامها. ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره ليس قطعاً كالقاسية قلوبهم من ذكر الله. وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء. كذلك تصور الآية الثانية هيئة تلقي المؤمنين لهذا القرآن هذا الكتاب المتناسق الذي لا اختلاف في طبيعته ولا في اتجاهاته، ولا في روحه ولا في خصائصه. فهو ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ وهو ﴿مَّثَانِىَ﴾ تكرر مقاطعه وقصصه وتوجيهاته ومشاهده. ولكنها لا تختلف ولا تتعارض، إنما تعاد في مواضع متعددة وفق حكمة تتحق في الإعادة والتكرار. في تناسق وفي استقرار على أصول ثابتة ومتشابهة. لا تعارض فيها ولا اصطدام.

والذين يخشون ربهم ويتقونه، ويعيشون في حذر وخشية، وفي تطلع ورجاء يتلقون هذا الذكر في وجل وارتعاش، وفي تأثر شديد تقشعر منه الجلود، ثم تهدأ نفوسهم، وتأنس قلوبهم بهذا الذكر، فتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣).

قال **ابن عاشور**: وإنما جُمع بين الجلود والقلوب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ولم يكتف بأحد الأمرين عن الآخر كما اكتفى في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ

مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾ لأن اقشعرار الجلود حالة طارئة عليها لا يكون إلا من وجل القلوب وروعتها فكنى به عن تلك الروعة. وأما لين الجلود عقب تلك القشعريرة فهو رجوع الجلود إلى حالتها السابقة قبل اقشعرارها. وذلك قد يحصل عن تناس أو تشاغل بعد تلك الروعة فعطف عليه لين القلوب ليعلم أنه لين خاص ناشئ عن اطمئنان القلوب بالذكر كما قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ وليس مجرد رجوع الجلود إلى حالتها التي كانت قبل القشعريرة. ولم يكتف بذكر القلوب عن لين الجلود لأنه قصد أن لين القلوب أفعمها حتى ظهر أثره على ظاهر الجلود.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ﴾.
(الزمر: ٣٦، ٣٧)

قال في (**الظلال**): ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾. بلى! فمن ذا يخيفه، وماذا يخيفه؟ إذا كان الله معه؟ وإذا كان هو قد اتخذ مقام العبودية وقام بحق هذا المقام؟ ومن ذا يشك في كفاية الله لعبده وهو القوي القاهر فوق عباده؟ ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾. فكيف يخاف؟ والذين من دون الله لا يخيفون من يحرسه الله. وهل في الأرض كلها إلا من هم دون الله؟ إنها قضية بسيطة واضحة، لا تحتاج إلى جدل ولا كد ذهن.. إنه الله. ومن هم دون الله. وحين يكون هذا الموقف لا يبقى هنالك شك ولا يكون هناك اشتباه. وإرادة الله هي النافذة ومشيئته هي الغالبة. وهو الذي يقضي في العباد قضاءه. في ذوات أنفسهم، وفي حركات قلوبهم ومشاعرهم. ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾. وهو يعلم من يستحق الضلالة فيضله، ومن يستحق الهدى فيهديه. فإذا قضى بقضاءه هكذا أو هكذا فلا مبدل لما يشاء. ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ﴾. بلى. وإنه لعزيز قوي. وإنه ليجازي كلاً بما يستحق. وإنّه لينتقم ممن يستحق الانتقام. فكيف يخشى أحداً أو شيئاً من يقوم بحق العبودية له، وهو كافله وكافيه؟

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴾ (الزمر: ٤٧).

قال **بكر العابد**: سمعت الفضيل بن عياض يقول في قول الله عز وجل ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ قال: أتوا بأعمال ظنوها حسنات فإذا هي سيئات. قال بكر: فرأيت يحيى بن معين بكى. وقام ابن المنكدر يصلي من الليل فكثر بكاؤه في صلاته ففزع أهله فأرسلوا إلى صديقه أبي حازم فسأله ما الذي أبكاك فقال: مر بي قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ (الزمر : ٤٧) فبكى أبو حازم معه واشتد بكاؤهما فقال أهل ابن المنكدر: جئنا بك لتفرج عنه فزدته. فأخبرهم ما الذي أبكاهما.

فائدة : قال **القرطبي** في قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ (الزمر : ٤٧). من أجلّ ما روي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال : عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات، وقال **السعدي** وقيل عملوا أعمالاً توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا وقد كانوا يظنون أنهم ينجون بالتوبة. ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة فـ ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ من دخول النار. وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء. هذه آياتهم وقصتهم. وقال عكرمة بن عمار جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له : ماهذا الجزع ؟ قال: أخاف آية من كتاب الله ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر : ٥٣).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج ابن جرير عن عليّ رضي الله عنه : ما في القرآن أوسع آية من ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أنّ المسيح هو الله، ومن زعم أنّ

المسيح ابن الله، ومن زعم أنّ عزيزاً ابن الله، ومن زعم أنّ الله فقير، ومن زعم أنّ يد الله مغلولة، ومن زعم أنّ الله ثالث ثلاثة. يقول الله تعالى لهؤلاء ﴿ **أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (المائدة : ٧٤) ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء. من قال ﴿ **أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ** ﴾ (النازعات : ٢٤) وقال ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى** ﴾ (القصص : ٣٨) قال ابن عباس رضي الله عنهما: من آيس العباد من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب عليه.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال: إنّ إبليس قال: يارب زدني قال: صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرى الدم قال: يارب زدني. قال: ﴿ **وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ (الإسراء: ٦٤) فقال آدم عليه السلام: يارب قد سلطته عليّ وإني لا أمتنع منه إلا بك فقال: لا يولد لك ولد الا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يارب زدني. قال: الحسنة عشراً أو أزيد، والسيئة واحدة أو محوها قال: يارب زدني قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد. قال: يارب زدني قال: ﴿ **يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾.

وأخرج أحمد وأبو يعلى والضياء عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السمـاء والأرض ثم استغفرتم الله لغفر لكم. والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرن فيغفر لهم**».

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم**».

وأخرج الخطيب عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود إنّ العبد من عبيدي ليأتيني بالحسنة فأحكمه في الجنّة قال داود عليه السلام: وما تلك الحسنة؟

قال: كربة فرجها عن مؤمن. قال داود عليه السلام: اللهم حقيق على من عرفك حق معرفتك أن لا يقنط منك.

وأخرج الحكيم الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قال لي جبريل عليه السلام: يا محمد إنّ الله يخاطبني يوم القيامة، فيقول يا جبريل ما لي أرى فلان بن فلان في صفوف أهل النار؟ فأقول يا رب إنا لم نجد له حسنة يعود عليه خيرها اليوم. فيقول الله: إني سمعته في دار الدنيا يقول: يا حنان يا منان، فأته فاسأله وهل من حنان ومنان غيري؟ فآخذ بيده من صفوف أهل النار، فأدخله في صفوف أهل الجنة**».
(ضعيف السند وليس ببعيدٍ عن فضل الله)

وأخرج ابن الضريس وأبو القاسم بن بشير في أماليه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إنّ الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى، ولم يرخص لهم في معاصيه، ولم يؤمنهم عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة منه إلى غيره. إنّه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا في علم لا فهم فيه، ولا في قراءة لا تدبر فيها.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: إنّ للمقنطين جسراً يطأ الناس يوم القيامة على أعناقهم. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن عائشة رضي الله عنها إنها قالت لرجلٍ: ألم أُحَدَّثْ إنك تعظ الناس؟ قال: بلى. قالت: فإياك وإهلاك الناس وتقنيطهم.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن زيد بن أسلم رضي الله عنه إنّ رجلاً كان في الأمم الماضية يجتهد في العبادة، ويشدد على نفسه، ويقنط الناس من رحمة الله تعالى، ثم مات فقال: أي رب مالي عندك؟ قال: النار قال: فأين عبادتي واجتهادي؟ فقيل له كنت تقنط الناس من رحمتي، وأنا أقنطك اليوم من رحمتي.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال: ذكر لنا إنّ ناساً أصابوا في الشرك عظاماً فكانوا يخافون أن لا يغفر لهم، فدعاهم الله بهذه الآية ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ ﴾.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.

(الزمر: ٧٣، ٧٤)

قال في (**الدر المنثور**): أمّا قوله تعالى: ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ (الزمر: ٧٣).

فقد أخرج البخاري ومسلم والطبراني عن سهل بن سعد رضي الله عنه. إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**في الجنّة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون**».

وأخرج مالك وأحمد البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن صلى الله عليه وسلم قال: «**من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد**». فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال: «**نعم وأرجو أن تكون منهم**».

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة وأبو يعلى والطبراني والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**للجنة ثمانية أبواب. سبعة مغلقة، وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه**».

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: للجنة ثمانية أبواب. باب للمصلين، وباب للصائمين، وباب للحاجين، وباب للمعتمرين، وباب للمجاهدين، وباب للذاكرين، وباب للشاكرين.

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لكل عمل أهل من أبواب الجنة يدعون منه بذلك العمل**».

وأخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا كان يوم القيامة دعي الإنسان بأكبر عمله، فإذا كانت الصلاة أفضل دعي بها، وإن كان صيامه أفضل دعي به، وإن كان الجهاد أفضل دعي به**». فقال أبو بكر رضي الله عنه: أحد يدعى بعملين؟ قال: «**نعم . أنت**».

وأخرج الطبراني في الأوسط والخطيب في المتفق والمفترق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إنّ في الجنّة باباً يقال له الضحى، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كانوا يديمون صلاة الضحى؟ هذا بابكم فادخلوه برحمة الله**».

وأخرج أحمد عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه. إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما بين مصراعين من مصاريع الجنة أربعون عاماً، وليأتين عليهم يوم وإنّه لكظيظ**».

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**والذي نفسي بيده لما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر. أو كما بين مكة وبصرى**».

وأخرج ابن أبي شيبة عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه أنه خطب فقال: إنّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لمسيرة أربعين عاماً، وليأتين على أبواب الجنة يوم وليس منها باب إلا وهو كظيظ.

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب رضي الله عنه قال: ما بين مصراعي الجنة أربعون خريفاً للراكب المجد، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلمي قال إنّ الرجل ليوقف على باب الجنة مائة عام بالذنب عمله، وإنّه ليرى أزواجه وخدمه.

وأخرج أحمد والبزار عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مفاتيح الجنة شهادة أن لا إلا الله**».

وأخرج الطيالسي والدرامي عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مفاتيح الجنة الصلاة**».

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدرامي ومسلم وأبو داود وابن ماجة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال: «**ما منكم من أحد يسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله إلّا فتحت له من الجنة ثمانية أبواب. من أيها شاء دخل**».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ (الزمر: ٧٥).

قال **ابن عاشور**: والخطاب للنبي ﷺ فيكون إيذاناً بأنها رؤية دنو من العرش وملائكته وذلك تكريم له بأن يكون قد حواه موكب الملائكة الذين حول العرش. والـحَفُّ: الإحداق بالشيء والكون بجوانبه وجملة ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حال أي يقولون أقوالاً تدل على تنزيه الله تعالى وتعظيمه ملابسة لحمدهم إياه فالباء في ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للملابسة تتعلق بـ ﴿ يُسَبِّحُونَ﴾. وفي استحضار الله تعالى بوصف ربهم إيماء إلى أن قربهم من العرش ترفيع في مقام العبودية الملازمة للخلائق.

قلتُ: بل هو قرب حقيقي على ظاهره.

سُورَةُ غَافِرٍ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (غافر: ٣).

قال **ابن عاشور**: وتقديم ﴿غَافِرِ﴾ على ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ مع أنه مرتب عليه في الحصول للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعد لتدارك أمره فوصف ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ تعريض بالترغيب، وصفتا ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ تعريض بالترهيب. والتوب مصدر تاب والتوب بالمثناة والثوب بالمثلثة والأوب كلها بمعنى الرجوع أي الرجوع إلى أمر الله وامتثاله بعد الابتعاد عنه. وإنما عطفت صفة ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ بالواو على صفة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ ولم تفصل كما فصلت صفتا «العليم غافر الذنب» وصفة ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ إشارة إلى نكتة جليلة وهي إفادة أن يجمع للمذنب التائب بين رحمتين؛ بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعة وبين أن يمحو عنه الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها فيصبح كأنه لم يفعلها وهذا فضل من الله. أ. هـ.

قلتُ: ذي الطول يطلق على سعة الفضل وسعة المال ويطلق على القدرة أيضاً، فوجه اختياره الترهيب مع الإيماء إلى جانب فضله العظيم على أوليائه في محل كرامته ولو قال: «ذي الانتقام» مثلاً لما دلّ على ذلك.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (غافر: ٧ - ٩).

قال **القرطبي**: قال إبراهيم النخعي: كان أصحاب عبد الله يقولون الملائكة خير من ابن الكوّاء (من الخوارج)؛ هم يستغفرون لمن في الأرض وابن الكوّاء

يشهد عليهم بالكفر. قال إبراهيم: وكانوا يقولون لا يحجبون الاستغفار عن أحد من أهل القبلة.

وقال مطرف بن عبد الله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية.

وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها فما في العالم آية أرجى منها، إن ملكاً واحداً لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم. كيف وجميع الملائكة وحملة العرش يستغفرون للمؤمنين.

وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنت أقرأ على سليمة بن عيسى فلما بلغت و﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بكى ثم قال: يا خلف: ما أكرم المؤمن على الله نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (غافر : ٥٨).

قال **ابن عاشور**: وإنما قدم ذكر ﴿ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ على ذكر ﴿ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ من أن البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة والمشبه بالبصير أشرف من المشبه بالأعمى؛ إذ المشبه بالبصير المؤمنون فقد ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة. وأما قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾. فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماماً بشرف المؤمنين. وأعيدت ﴿ وَلَا ﴾ النافية بعد واو العطف على النفي وكان العطف مغنياً عنها فإعادتها لإفادتها تأكيد نفي المساواة. ومقام التوبيخ يقتضي الإطناب، ولذلك تعد ﴿ وَلَا ﴾ في مثله زائدة كما في مغني اللبيب وكان الظاهر أن تقع ﴿ وَلَا ﴾ قبل ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فَعَدَل عن ذلك للتنبيه على أن المقصود عدم مساواة المسيء لمن عمل الصالحات وأن ذكر الذين آمنوا قبل المسيء للاهتمام بالذين آمنوا.

سُورَةُ فُصِّلَتْ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فُصِّلَتْ : ١١).

قال في (**الظلال**): إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون (لأمر ربه)، وإلى اتصال هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته. فليس هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذي يخضع (لقدر ربه) كرهاً في أغلب الأحيان، فإنّه خاضع حتماً لهذا (القدر)، لا يملك أن يخرج عنه، وهو ترس صغير جداً في عجلة الكون الهائلة والقوانين الكونية الكلية تسري عليه رضي أم كره. ولكنه هو وحده الذي لا ينقاد طائعاً طاعة الأرض والسماء. إنما يحاول أن يتفلت وينحرف عن المجرى الهين اللين، فيصطدم (بالسنن) التي لابد أن تغلبه ـ وقد تحطمه وتسحقه ـ فيستسلم خاضعاً غير طائع. إلا عباد الله الذين تصلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإرادتهم ورغباتهم واتجاهاتهم ... تصطلح كلها مع أوامر ربهم، فتأتي طائعة وتسير هينة لينة مع الكون، متجهة إلى ربها مع الموكب، متصلة بكل ما فيه من قوى، وحينئذ تصنع الأعاجيب، وتأتي بالخوارق.

إننا نخضع كرهاً فليتنا نخضع طوعاً. ليتنا نلبي تلبية الأرض والسماء في رضى وفي فرح مع (كائنات) الوجود الخاضعة المطيعة الملبية المستسلمة لله رب العالمين.

إننا نأتي أحياناً حركات مضحكة .. عجلة القدر تدور بطريقتها وبسرعتها ولوجهتها ويدور الكون كله معها وفق سنن ثابتة .. ونأتي نحن فنريد أن نسرع أو أن نبطىء، نحن من بين هذا الموكب الضخم الهائل نحن بما يطرؤ على نفوسنا ـ حين ننفك عن العجلة وننحرف عن خط السير ـ في قلق واستعجال وأنانية وطمع ورغبى ورهبة ... ونظل نشرد هنا وهناك والموكب ماض. ونحتك بهذا الترس وذاك ونتألم. ونصطدم هنا وهناك ونتحطم والعجلة ماضية في سرعتها وبطريقتها إلى وجهتها، وتذهب قوانا وجهودنا كلها سدى. فأما حين تؤمن قلوبنا حقاً وتستسلم لله حقاً، فإننا ـ حينئذ ـ نعرف دورنا على

حقيقته، وننسق بين خطانا و(مواقع) القدر، ونتحرك بقوة مستمدة من خالق الوجود ونصنع أعمالاً عظيمة فعلاً، دون أن يدركنا الغرور، لأننا نعرف مصدر القوة التي صنعنا بها هذه الأعمال العظيمة، ونوقن أنها ليست قوتنا الذاتية. ويا للرضى ويا للسعادة ويا للراحة ويا للطمأنينة التي تغمر قلوبنا يومئذ في رحلتنا القصيرة على هذا الكوكب الطائع الملبي، السائر معنا في رحلته الكبرى إلى ربه في نهاية المطاف.. ويا للسلام الذي يفيض في أرواحنا ونحن نعيش في كون صديق. كلُّه مستسلم لربه، ونحن معه مستسلمون لا تشذ خطانا عن خطاه ولا يعادينا ولا نعاديه لأننا منه ولأننا معه في الاتجاه.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ (فُصِّلَتْ : ١٦)، فقال: ﴿ صَرْصَرًا ﴾ وفي ذلك دقة بالغة لأن كلمة ﴿ صَرْصَرًا ﴾ تدل على أكثر من معنى في وقت واحد وكلها حق؛ قال **الشنقيطي**: لعلماء التفسير في كلمة الصرصر وجهان معرفان:

(أ) أنّ الريح الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يسمع لهبوبها صوت شديد. وعلى هذا فالصرصر من الصرة التي هي الصيحة المزعجة. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ (الذَّارِيَاتِ : ٢٩) أي في صيحة. ومن هذا المعنى: صرير الباب والقلم أي صوتهما.

(ب) أنّ الصرصر من الصر الذي هو البرد الشديد المحرق ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ (آلِ عِمْرَانَ : ١١٧) أي فيها برد شديد محرق، فقوله: ريح صر أي باردة شديدة البرد. والأظهر أن كلا القولين صحيح وأن الريح المذكورة جامعة بين الأمرين فهي عاصفة شديدة الهبوب ، باردة شديدة البرد.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فُصِّلَتْ : ٢٦). فتأمل يا مؤمن كيف قالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُواْ ﴾ ولم يقولوا «لا تستمعوا» لماذا؟؟ لأن في ذلك اعترافاً منهم بقوة تأثير أدنى درجات الاستماع وهو السماع فكيف بما

فوقه؟؟ وقالوا: ﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ فأشعر ذكر اللغو «وهو الصياح والصفير» وذكر حرف الجر «في» بأن المقصود تداخل ذلك مع أصوات القرآن حتى يكون في أثنائه وخلاله، فأين نحن من هذا المؤثر العظيم؟ ولم لا نجاهدهم به جهاداً كبيراً؟ «**أفاده د/ عويض العطوي** ـ تدبر المجموعة (١)».



سُورَةُ الشُّورَىٰ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (الشورى: ٤).

قال في **(الظلال)**: وكثيراً ما يخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون شيئاً، لمجرد أنهم يجدون أشياء في أيديهم ، مسخرة لهم ينتفعون بها، ويستخدمونها فيما يشاءون ولكن هذا ليس ملكاً حقيقياً. إنما الملك الحقيقي لله الذي يوجد ويعدم، ويحيي ويميت ويملك أن يعطي البشر ما يشاء، ويحرمهم ما يشاء، وأن يذهب بما في أيديهم من شيء وأن يضع في أيديهم بدلاً مما أذهب ... الملك الحقيقي لله الذي يحكم طبائع الأشياء، ويصرفها (كيف يشاء) فتلبي وتطيع وتتصرف وفق (مشيئة الله)، وكل ما في السموات وما في الأرض من شيء «لله» بهذا الاعتبار الذي لا يشاركه فيه أحد سواه ... «وهو العلي العظيم» فليس هو الملك فحسب ولكنه ملك العلو والعظمة على وجه التفرد كذلك. العلو الذي كل شيء بالقياس إليه سفول، والعظمة التي كل شيء بالقياس إليها ضآلة! ومتى استقرت هذه الحقيقة استقراراً صادقاً في الضمائر عرف الناس إلى أين يتجهون فيما يطلبون لأنفسهم من خير ومن رزق ومن كسب «فكل مافي السموات وما في الأرض لله». والمالك هو الذي بيده العطاء ثم إنه هو ﴿ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ولا يصغر ولا يسفل من يمد يده إليه بالسؤال كما لو مدها للمخاليق وهم ليسوا بأعلياء ولا عظماء.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (الشورى: ٨).

قال **ابن عاشور**: قوله ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ أحد دليلين على المعنى المستدرك إذ التقدير: ولكنه جعلهم فريقين؛ فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير ليدخل من يشاء منهم في رحمته، وهي الجنة وأفهم ذلك أنه يدخل منهم الفريق الآخر في عقابه ودل عليه

أيضاً بقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لأن نفي النصير كناية عن كونهم في بؤس وضرر ومغلوبية بحيث يحتاجون إلى نصير لو كان لهم نصير، فيدخل في الظالمين مشركوا أهل مكة دخولاً أولياً لأنهم سبب ورود هذا العموم. وأصل النظم: ويدخل من يشاء في غضبه فعدل عنه إلى ما في الآية للدلالة على أن سبب إدخالهم في غضبه هو ظلمهم أي شركهم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ مع إعادة أنهم لا يجدون ولياً يدفع عنهم غضبه ولا نصيراً يثأر لهم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ (الشورى : ١٣).

قال **ابن عاشور**: والاقتصار على ذكر دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى الناس فدينه هو أساس الديانات، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ولأن دين إبراهيم هو أصل الحنيفية وانتشر بين العرب بدعوة إسماعيل إليه فهو أشهر الأديان بين العرب، وكانوا على أثارة منه في الحج والختان والقربى والفتوى. ودين موسى هو أوسع الأديان السابقة في تشريع الأحكام، أما دين عيسى فلأنّه الدين الذي سبق الإسلام ولم يكن بينهما دين آخر وليتضمن التهيئة إلى دعوة اليهود والنصارى إلى دين الإسلام. وتعقيب ذكر دين نوح بما أوحى إلى محمد عليهما السلام بالإشارة إلى أن دين الإسلام هو خاتم الأديان، فعطف على أول الأديان جمعا بين طرفي الأديان، ثم ذكر بعدهما الأديان الثلاثة الأخرى لأنها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها. وهذا نسج بديع من نظم الكلام.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى : ٣٨).

قال **ابن عاشور**: والتشاور لا يكون إلا بين المتشاورين فالوجه أن يكون هذا الطرف إيماء إلى أن الشورى لا ينبغي أن تتجاوز من المتشاورين.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الشورى : ٤٠).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ قال: ما يكون من الناس في الدنيا مما يصيب بعضهم بعضاً والقصاص.

وأخرج أحمد وابن مردوية، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المستبان ما قالا من شيء فعلى البادئ حتى يعتدي الـمظلوم**». ثم قرأ ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾.

وأخرج ابن جرير، عن السدي ﵁ في قوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ قال: إذا شتمك. فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدي.

وأخرج ابن جرير، عن ابن أبي نُجيح في قوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ قال: يقول أخزاه الله، فيقول أخزاه الله.

وأخرج ابن مردوية عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا ليقم من كان له على الله أجرٌ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا**». وذلك قوله: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

وأخرج ابن مردوية عن ابن عباس ﵄ قال: قال النبي ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجرٌ فليقم، فيقوم عنق كثير فيقال لهم: ما أجركم على الله؟ فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا**». وذلك قول الله ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فيقال لهم: ادخلوا الجنة بإذن الله.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردوية والبيهقي في شعب الإيمان، عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا وقف العباد للحساب ينادي منادٍ لِيَقُم من أجره على الله، فليدخل الجنة، ثم نادى الثانية، ليقم من أجره على الله، قالوا ومن ذا الذي أجره على الله؟ قال: العافون عن الناس، فقام كذا وكذا ألفاً، فدخلوا الجنة بغير حساب**».

وأخرج البيهقي، عن أنس ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**ينادي مناد من كان أجره على الله فليدخل الجنة مرتين، فيقوم من عفا عن أخيه**. قال الله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

وأخرج ابن مردوية، عن الحسن ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول مناد من عند الله يقول: أين الذين أجرهم على الله؟ فيقوم من عفا في الدنيا، فيقول الله أنتم الذين عفوتم لي ثوابكم الجنة**».

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر، عن محمد بن المنكدر ﵁ قال: إذا كان يوم القيامة صرخ صارخ الأرض، ألا من كان له على الله حق، فليقم فيقوم من عفا وأصلح.

وأخرج ابن مردوية والبيهقي عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينادي مناد يوم القيامة، لا يقوم اليوم أحد، إلا من له عند الله يد، فتقول الخلائق: سبحانك بل لك اليد، فيقول بلى، من عفا في الدنيا بعد قدرة**».

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال: موسى بن عمران** ﵇ **يا رب، من أعز عبادك عندك؟ قال: من إذا قدر عفا**».

وأخرج أحمد وأبو داود، عن أبي هريرة ﵁ أن رجلاً شتم أبا بكر ﵁، والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر، رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر ﵁، فقال يا رسول الله، كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت؟ قال: «**إنّه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان**». ثم قال: «**يا أبا بكر، نلت من حقك؛ ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله إلّا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة**».

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (الزخرف: ١٣، ١٤).

لما كان الركوب مباشرة أمرَ خطرٍ واتصالاً بسبب من أسباب التلف كان من حق الراكب ألا ينسى أنه منقلب إلى الله غير منفلت من قضائه ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه. أفاده **الزمخشري**.

وقال أيضاً: ليستعذ المؤمن وهو يقرأ هذه الآية من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم لا يذكرون إلا الشيطان ولا يمتثلون إلا أوامره.

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزخرف: ٤٠). قال **ابن عاشور** مبيناً وجه قوله هنا ﴿ٱلصُّمَّ﴾، ﴿ٱلْعُمْىَ﴾ بينما قال قبلها: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ (الزخرف: ٣٦)، فقال: ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعشاء وهو النظر الذي لا يبين شبح الشيء المنظور إليه ثم وصفهم هنا بالصم العمي إشارة إلى إن التمحل للضلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال ذلك أن التخلق يأتي دونه الخلق والأحوال تنقلب ملكات، وهو معنى قول النبي ﷺ: «**لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»؛ وإذ قد كان إعراضهم انصرافاً عن استماع القرآن وعن النظر في الآيات كان حالهم يشبه حال الصم العمي كما مهد لذلك بقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فظهرت المناسبة بين وصفهم بالعشا وبين ما في هذا الانتقال لوصفهم بالصم العمي.

سُورَةُ الدُّخَانِ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الدُّخَان: ٣ - ٨)، فقال: ﴿ حَكِيمٍ ﴾ وفي ذلك دقة بالغة لأن كلمة ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أفادت أمرين في آن واحد، وكلاهما حقٌّ ومراد، فكلمة ﴿ حَكِيمٍ ﴾ تعني أنه ذو حكمة بالغة فدلت على أنّ أفعاله سبحانه كلها في غاية الحكمة. وهي تعني أيضاً الإحكام فقوله: ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أي محكم ولا تغيير فيه ولا تبديل إلا أن يشاء الله ذلك، وقد ورد في السّنة ما يدل على أنّ العمل الصالح وصلة الأرحام وحسن الجوار تزيد في العمر.

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الدُّخَان: ٣ - ٦).

قال في (**الظلال**): والليلة المباركة التي أنزل فيها القرآن هي ـ والله أعلم ـ الليلة التي بدأ فيها نزوله، وهي إحدى ليالي رمضان الذي قيل فيه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾... والقرآن لم ينزل كله في تلك الليلة، كما أنه لم ينزل كله في رمضان ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض. وكانت هذه الليلة موعد هذا الاتصال المبارك. وهذا يكفي في تفسير إنزاله في الليلة المباركة. وإنها لمباركة حقاً تلك الليلة التي يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية، والتي فيها استقرار هذا المنهج الإلهي في حياة البشر، والتي يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مترجمة في هذا القرآن ترجمة يسيرة، تستجيب لها الفطرة وتلبيها في هوادة، وتقيم على أساسها عالماً إنسانياً مستقراً على قواعد الفطرة واستجاباتها، متناسقاً مع الكون الذي يعيش فيه، طاهراً نظيفاً كريماً بلا تعمل ولا تكلف، يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولاً بالسماء في كل حين.

ولقد عاش الذين أنزل القرآن لهم أول مرة فترة عجيبة في كنف السماء، موصولين

بالله، يطلعهم أول بأول على ما في نفوسهم، ويشعرهم أولاً بأول بأن عينه عليهم، ويحسبون هم حساب هذه الرقابة، وحساب هذه الرعاية، في كل حركة وكل هاجسة تخطر في ضمائرهم، ويلجأون إليه أول مايلجأون، واثقين أنه قريب مجيب.

ومضى ذلك الجيل وبقي بعده القرآن كتاباً مفتوحاً موصولاً بالقلب البشري، يصنع به حين يتفتح له مالا يصنعه السحر، ويحوِّل مشاعره بصورة تحسب أحياناً في الأساطير! وبقي هذا القرآن منهجاً واضحاً كاملاً صالحاً لإنشاء حياة إنسانية نموذجية في كل بيئة وفي كل زمان. حياة إنسانية تعيش في بيئتها وزمانها في نطاق ذلك المنهج الإلهي المتميز الطابع، بكل خصائصه دون تحريف. وهذه سمة المنهج الإلهي وحده. إن البشر يصنعون ما يغني مثلهم، وما يصلح لفترة من الزمان، ولظرف خاص من الحياة. فأما كتاب الله فيحمل طابع الدوام والكمال، والصلاحية المستمرة وتلبية الحاجات في كل ظرف وفي كل حين. ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ .. وقع فرق فيها بهذا القرآن في كل أمر، وفصل فيها كل شأن، وتميز الحق الخالد والباطل الزاهق، ووضعت الحدود، وأقيمت المعالم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين، فلم يبق هناك أصل من الأصول التي تقوم عليها الحياة غير واضح ولا مرسوم في دنيا الناس، كما هو واضح ومرسوم في (هذه الشريعة). وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره، ومشيئته في إرسال الرسل للفصل والتبيين. ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾. وكان ذلك كله رحمة من الله بالبشر إلى يوم الدين. ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾. وما تتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى في تنزيل هذا القرآن، بهذا اليسر، الذي يجعله سريع اللصوق بالقلب، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم في العروق. وتحول الكائن البشري إلى إنسان كريم، والمجتمع البشري إلى حلم جميل، لولا أنه واقع تراه العيون! إن هذه العقيدة ـ التي جاء بها القرآن ـ في تكاملها وتناسقها ـ جميلة في ذاتها جمالاً يحب ويعشق وتتعلق به القلوب! فليس الأمر فيها أمر الكمال والدقة وأمر الخير والصلاح. فإن هذه السمات فيها تظل ترتفع وترتفع حتى يبلغ الكمال فيها مرتبة الجمال الحبيب الطليق.

الجمال الذي يتناول الجزيئات كلها بأدق تفصيلاتها، ثم يجمعها وينسقها، ويربطها كلها. ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ نزل بها هذا القرآن في الليلة المباركة .. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾. يسمع ويعلم، وينزل ما ينزل للناس على علم وعلى معرفة بما يقولون وما يعملون، وما يصلح لهم ويصلحون به من السنن والشرائع والتوجيه السليم. وهو (المهيمن) على هذا الكون الحافظ لمن فيه وما فيه. ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. فما ينزله للناس يربيهم به، هو طرف من ربوبيته للكون كله، وطرف من (سننه) (الواقعة في) الكون .. والتلويح لهم باليقين في هذا إشارة إلى عقيدتهم المضطربة المزعزعة المهوشة، إذ كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ثم يتخذون من دونه أرباباً، مما يشي بغموض هذه الحقيقة في نفوسهم وسطحيتها وبعدها عن الثبات واليقين. وهو الإله الواحد الذي يملك الموت والحياة، وهو رب الأولين والآخرين: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾. والإحياء والإماتة أمران مشهودان للجميع، وأمرهما خارج عن طاقة كل مخلوق. يبدو هذا بأيسر نظر وأقرب تأمل. ومشهد الموت كمشهد الحياة في كل صورة وفي كل شكل يلمس القلب البشري ويهزه، ويستجيشه ويعده للتأثر والانفعال ويهيئه للتقبل والاستجابة. ومن ثم يكثر ذكره في القرآن وتوجيه المشاعر إليه ولمس القلوب به بين الحين والحين.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ عن أثر شجرة الزقوم: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ (الدخان: ٤٥، ٤٦)، فقال: ﴿كَغَلۡيِ﴾ ولم يقل: «كغليان»، قال د. **فاضل**: «فَعَلان» تصلح في اللغة للدلالة على التقلب والاضطراب والحركة كالجولان والغَلَيان، فأنت تقول: غليتُ الماء غَلياً إن أردتَ الفعل ولم ترد التقلب والحركة، فإن أردت الحركة والاضطراب قلت: غلى الماء غلياناً. ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت: ٦٤)، فقال: ﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾ ولم يقل: «الحياة»، فلمّا أراد فيها معنى الحركة والتقلب وأنّ الدنيا بالنسبة للحياة الآخرة كأنها سكونٌ وهمود بناها على فَعلان للدلالة على كمال الحياة ثَمَّ.

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ (الجَاثِيَةِ : ١٨، ١٩).

قال في (**الظلال**): إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل. وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها. وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء، فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة. وهم إلب عليه فبعضهم ولي لبعض. وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرةً له أو جنوحاً عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه. ولكنهم أضعف من أن يؤذوه. والله ولي المتقين. وأين ولاية من ولاية؟ وأين ضعاف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضاً؛ من صاحب شريعة يتولاه الله. ولي المتقين؟ وتعقيباً على هذا البيان الحاسم الجازم، يتحدث عن اليقين، وعما في هذا القول وأمثاله في القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل اليقين. ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾. ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة. فهو بذاته بصائر كاشفة. كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور. وهو بذاته هدى. وهو بذاته رحمة.. ولكن هذا كله يتوقف على اليقين. يتوقف على النفس التي لا يخامرها، ولا يخالطها قلق، ولا تتسرب إليها ريبة وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه، فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد. وعندئذ يبدو له الطريق واضحاً، والأفق منيراً، والغاية محددة، والمنهج مستقيماً. وعندئذ يصبح هذا القرآن له نوراً وهدى ورحمة بهذا اليقين.

سورة الأحقاف

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأحقاف: ٣٣).

قال **ابن عاشور**: وجملة ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تذييل لجملة ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ لأن هذه تفيد القدرة على خلق السموات والأرض وإحياء الموتى وغير ذلك من الموجودات الخارجة عن السماوات والأرض.

وتأكيد الكلام بحرف «إن» لرد إنكارهم أن يمكن إحياء الله الموتى، لأنهم لما أحالوا ذلك فقد أنكروا عموم قدرته تعالى على كل شيء.

ولهذه النكتة جيء في القدرة على إحياء الموتى بوصف ﴿ بِقَٰدِرٍ ﴾، وفي القدرة على كل شيء بوصف ﴿ قَدِيرٌ ﴾ الذي هو أكثر دلالة على القدرة من وصف ﴿ بِقَٰدِرٍ ﴾.



سورة محمد

❁ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (محمد: ٨، ٩)، فقال: ﴿ أَنزَلَ ﴾ بينما قال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ (محمد: ٢٦)، فقال: ﴿ نَزَّلَ ﴾، ووجه ذلك أنّ الأولى في الكفار الذين كرهوا شرع الله جملةً، فقال: ﴿ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي على سبيل الجملة، وأمّا الثانية ففي المنافقين الذين يتولون الكفار الكارهين لشرع الله، فكان الأنسب أن يقول: ﴿ نَزَّلَ ٱللَّهُ ﴾ ليدل على ذمّ المنافق الذي يتولى من كره أيّ شيء من شرع الله، ولو قلّ، فضلاً عمّن كره شرع الله جملةً، والله أعلم.

❁ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٥)

قال في (**الظلال**): أنتم الأعلون. فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم. أنتم الأعلون اعتقاداً وتصوراً للحياة. وأنتم الأعلون ارتباطاً وصلة بالعلي الأعلى. وأنتم الأعلون منهجاً وهدفاً وغاية. وأنتم الأعلون شعوراً وخلقاً وسلوكاً.. ثم.. أنتم الأعلون قوة ومكاناً ونصرة. فمعكم القوة الكبرى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾.. فلستم وحدكم. إنكم في (معية) العلي الجبار القادر القهار. وهو لكم نصير حاضر معكم. يدافع عنكم. فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم؟ وكل ما تبذلون، وكل ما تفعلون، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم، لا يضيع منه شيء عليكم: ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾.. ولن يقطع شيئاً لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه. فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم، من يقرر الله ـ سبحانه ـ له أنه الأعلى. وأنه معه. وأنه لن يفقد شيئاً من عمله. فهو مكرم منصور مأجور؟

هذه هي اللمسة الأولى. واللمسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا، التي قد يصيبهم بعض التضحيات فيها. وتوفيه كاملة في الآخرة للأجور مع عدم إبهاظهم

ببذل المال مقابل هذه الأجور! ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾.. والحياة الدنيا لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى. حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها. ذلك المنهج الذي يجعلها مزرعة الآخرة؛ ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذي يستحق وراثة الدار الباقية. وهذا هو الذي تشير إليه الفقرة التالية في الآية: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾.. فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يخرجها عن أن تكون لعباً ولهواً؛ ويطبعها بطابع الجد، ويرفعها عن مستوى المتاع الحيواني، إلى مستوى الخلافة الراشدة، المتصلة بالملأ الأعلى. ويومئذ لن يكون ما يبذله المؤمن المتقي من عرض هذه الحياة الدنيا ضائعاً ولا مقطوعاً؛ فعنه ينشأ الأجر الأوفى، في الدار الأبقى.. ومع هذا فإن الله لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها، ولا يشق عليهم في فرائضه وتكاليفه، لعلمه سبحانه بشح نفوسهم فطرة وخلقة. وهو لا يكلف نفساً إلا وسعها. وهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها، فتضيق صدورهم وتظهر أضغانهم.



سُورَةُ الفَتْحِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ (الفتح : ٢٩).

قال **الفيروز أبادي:** ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ ﴾. للتبيين، لا للتبعيض، كما زعم بعض الزنادقة الطاعنين في بعض الصحابة والمعنى: الذين آمنوا هم هؤلاء. ومثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾، وكلهم محسن متق، ﴿ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، والمقول فيهم ذلك كلهم الكفار.

وقال **ابن عاشور:** والخطاب في ﴿ تَرَىٰهُمۡ ﴾ لغير معين بل لكل من تتأتى رؤيته إياهم، أي يراهم الرائي. وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك أي تراهم كلما شئت أن تراهم ركعاً سجداً. وهذا ثناء عليهم بشدة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها وأنهم يتطلبون بذلك رضى الله ورضوانه. وفي سوق هذا في مساق الثناء إيماء إلى أن الله حقق لهم ما يبتغونه.



سُورَةُ الحُجُرَاتِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ (الحُجُرَاتِ : ١٤).

قال **ابن عاشور**: وكان مقتضى ظاهر نظم الكلام أن يقال: قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم، أو أن يقال: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، ليتوافق المستدرك عنه والاستدراك بحسب النظم المتعارف في المجادلات، فعدل عن الظاهر إلى هذا النظم لأن فيه صراحة بنفي الإيمان عنهم فلا يحسبوا أنهم غالطوا رسول الله ﷺ واستغنى بقوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ عن أن يقال: لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن الإعلان بالإيمان لأنهم مطالبون بأن يؤمنوا ويقولوا آمنا قولاً صادقاً فقيل لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ تكذيباً لهم مع عدم التصريح بلفظ التكذيب ولكن وقع التعريض لهم بذلك بعد في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ أي لا أنتم ولذلك جيء بالاستدراك محمولاً على المعنى. وعدل عن أن يقال: ولكن أسلمتم إلى ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ تعريضاً بوجوب الصدق في القول ليطابق الواقع، فهم يشعرون بأن كذبهم قد ظهر، وذلك مما يتعير به، أي الشأن أن تقولوا قولاً صادقاً. وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ واقع موقع الحال من الضمير ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ وهو مبين لمعنى نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ بأنه ليس انتفاء وجود تصديق باللسان ولكن انتفاء رسوخه وعقد القلب عليه؛ إذ كان فيهم بقية من ارتياب كما أشعر به مقابلته بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ واستعير الدخول في قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ للتمكن وعدم التزلزل لأن الداخل إلى المكان يتمكن ويستقر فيه بخلاف الخارج عنه فإنّه يكون سريع المفارقة له مستوفزاً للانصراف عنه.

سورة ق

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: ١٧، ١٨).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾. قال: مع كل إنسان ملكان ملك عن يمينه وآخر عن شماله، فأما الذي عن يمينه فيكتب الخير، وأما الذي عن شماله فيكتب الشر.

وأخرج أبو نعيم والديلمي عن معاذ بن جبل مرفوعاً: إنّ الله لطف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجذين وجعل لسانه قلمهما وريقه مدادهما.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال: اسم صاحب السيئات قعيد.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: عن اليمين كاتب الحسنات وعن الشمال كاتب السيئات.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾. الآية، قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره، فذلك قوله: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ (الرعد: ٣٩).

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردوية والحاكم وصححه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ قال: إنما يكتب الخير والشر. لا يكتب يا غلام أسرج الفرس ويا غلام اسقني الماء.

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لا يكتب إلا ما يؤجر عليه ويؤزر فيه، لو قال رجل لامرأته تعالي حتى نفعل كذا وكذا كان يكتب عليه شيء.

وأخرج ابن أبي الدنيا في الفدية من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ ﴾ الآية، قال: كاتب الحسنات عن يمينه يكتب حسناته وكاتب السيئات عن يساره، فإذا عمل حسنة كتب صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه حتى يسبح أو يستغفر، فإذا كان يوم الخميس كتب ما يُجزَى به من الخير والشر، ويُلقَى ما سوى ذلك، ثم يعرض على أم الكتاب فيجده بجملته فيه.

وأخرج ابن أبي الدنيا في الصمت عن علي رضي الله عنه قال: لسان الإنسان قلم الملك وريقه مداده. وأخرج ابن أبي الدنيا وابن المنذر عن الأحنف بن قيس في قوله: ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴾ قال: صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمير على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال أمسك فإن استغفر الله نهاه أن يكتبها، وإن أبى إلا أن يُصرّ كتبها.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة من طريق ابن المبارك عن ابن جريج قال: ملكان أحدهما على يمينه يكتب الحسنات وملك عن يساره يكتب السيئات، فالذي عن يمينه يكتب بغير شهادة من صاحبه. إن قعد فأحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وإن مشى فأحدهما أمامه والآخر خلفه، وإن رقد فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه. قال ابن المبارك: وكل به خمسة أملاك ملكان بالليل وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان وملك خامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً.

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ قال: رصيد.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن حجاج بن دينار قال: قلت لأبي معشر: الرجل يذكر الله في نفسه كيف تكتبه الملائكة؟ قال: يجدون الريح.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني قال: بلغنا أن الملائكة تصف بكتبها في السماء الدنيا كل عشية بعد العصر يُنادَى الملك ألقِ تلك الصحيفة، فيقولون ربنا قالوا خيراً وحفظنا عليهم فيقول: إنهم لم يريدوا به وجهي وإني

لا أقبل إلا ما أريد به وجهي ويُنادَى الملك الآخر اكتب لفلان بن فلان كذا وكذا فيقول: يا رب إنه لم يعمله فيقول: إنه نواه، وأخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا في الإخلاص وأبو الشيخ في العظمة عن ضمرة بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الملائكة يصعدون بعمل العبد من عباد الله فيكثرونه ويزكونه حتى ينتهوا به حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليه إنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين، قال: ويصعدون بعمل العبد من عباد الله فيستقلونه ويحقرونه حتى ينتهوا حيث شاء الله من سلطانه فيوحي الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه له واجعلوه في عليين**».

وأخرج الطبراني وابن مردوية والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد حسنة كتبت له بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال صاحب اليمين: أمسك فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات، فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيئاً، وإن لم يستغفر الله كتب عليه سيئة واحدة**».

وأخرج أبو الشيخ في التفسير عن حسان بن عطية قال: تذاكروا مجلساً فيه مكحول وابن أبي زكريا أن العبد إذا عمل خطيئة لم تكتب عليه ثلاث ساعات، فإن استغفر الله وإلا تكتب عليه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: إن من كان قبلكم كان يكره فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن يقرأه أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، وأن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها. أتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين، وأن ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؟ أما يستحي أحدكم لو نشر صحيفته التي ملأ صدر نهاره وأكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه؟

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان من طريق الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: بينما رجل راكب على حمار إذ عثر به، فقال: تعست، فقال صاحب اليمين: ما هي بحسنة فأكتبها، وقال صاحب الشمال: ما هي بسيئة فأكتبها، فنودي صاحب الشمال أن ما ترك صاحب اليمين فاكتبه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن بكر بن ماعز قال: جاءت بنت الربيع بن خيثم وعنده أصحاب له فقالت: يا أبتاه أذهب ألعب. قال: لا. قال له أصحابه: يا أبا يزيد اتركها. قال: لا يوجد في صحيفتي أني قلت لها: اذهبي فالعبي لكن اذهبي فقولي خيراً وافعلي خيراً.

وأخرج البيهقي في الشعب عن حذيفة بن اليمان أن الكلام بسبعة أغلاق إذا أُخرِج منها كُتب، وإذا لم يخرج لم يكتب القلب واللهاة واللسان والحنكين والشفتين.

وأخرج الخطيب في رواة مالك وابن عساكر عن مالك أنه بلغه أن كل شيء يكتب حتى أنين المريض.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: يكتب على ابن آدم كل شيء يتكلم به حتى أنينه في مرضه.

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن الفضل بن عيسى قال: إذا احتضر الرجل قيل للملك الذي كان يكتب له كُفَّ قال: لا وما يدريني لعله يقول لا إله إلا الله فأكتبها له.

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال: يكتب من المريض كل شيء حتى أنينه في مرضه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن يسار يبلغ به النبي ﷺ قال: إذا مرض العبد قال الله للكرام الكاتبين: اكتبوا لعبدي مثل الذي كان يعمل حتى أقبضه أو أعافيه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان قال: إذا مرض العبد قال الملك: يا رب ابتليت عبدك بكذا فيقول: ما دام في وثاقي فاكتبوا له مثل عمله الذي كان يعمل.

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ قال: إذا ابتلى الله العبد بالسقم قال لصاحب الشمال ارفع، وقال لصاحب اليمين اكتب لعبدي ما كان يعمل.

وأخرج ابن أبي شيبة عن النضر بن أنس قال: كنا نتحدث منذ خمسين سنة، أنه ما من عبد يمرض إلا قال الله لكاتبيه: اكتبا لعبدي ما كان يعمل في صحته.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي قلابة قال: إذا مرض الرجل على عمل صالح أُجريَ له ما كان يعمل في صحته. وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة قال: إذا مرض الرجل رفع له كل يوم ما كان يعمل.

وأخرج ابن أبي شيبة عن ثابت عن مسلم بن يسار قال: إذا مرض العبد كتب له أحسن ما كان يعمل في صحته.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من مرض أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً**».

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا ابتلى الله المؤمن ببلاء في جسده قال للملك: اكتب له صالح عمله الذي كان يعمل، فإن شفاه غسله وطهره، وإن قبضه غفر له ورحمه**».

وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه قال: إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله وكل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله، فإذا مات قال الملكان اللذان وُكِّلَا به: قد مات فائذن لنا أن نصعد إلى السماء، فيقول الله: سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحونني، فيقولان: أنقيم في الأرض؟ فيقول الله: أرضي مملؤة من خلقي يسبحونني، فيقولان: فأين؟ فيقول: قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وكبراني واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة**». (قلتُ: لا يصح هذا الحديث، ولكن رحمة الله واسعة).

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي عن عمر بن ذر عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله عبد ولينظر ما يقول**».

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ (ق: ١٩ - ٣٥).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ ﴾ قال: زينت الجنة.

وأخرج ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن الأواب الحفيظ قال: حفظ ذنوبه حتى رجع عنها.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد في قوله: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴾ قال: حفظ ذنوبه فتاب منها ذنباً ذنباً.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن سعيد بن المسيب قال: الأواب الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب حتى يختم الله له بالتوبة.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن أنس بن خباب قال: قال لي مجاهد ألا أنبئك بالأواب الحفيظ؟ هو الرجل يذكر ذنبه إذا خلا فيستغفر له.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عبيد بن عمير مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عبيد بن عمير قال: كنا نعد الأواب الحفيظ الذي يكون في المجلس، فإذا أراد أن يقوم قال: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ قال: مطيع لله ﴿حَفِيظٍ﴾ قال: لما استودعه الله من حقه ونعمه، وفي قوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ قال: منيب إلى الله مقبل إليه، وفي قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ قال: سلموا من عذاب الله وسلم الله عليهم، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ قال: خلدوا والله فلا يموتون.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: يخشى ولا يرى.

فائدة أنفس من الذهب في قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ (ق: ٣٣).

قال **الرازي**: في الآية لطائف:

الأولى: الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة، لكن بينهما فرق وهو أن الخشية من عظمة المخشي. وذلك لأن تركيب حروف «خ ش ي» في تقاليبها معنى يلزمه معنى الهيبة يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن وهما جميعاً مهيبان.

والخوف خشية من ضعف الخاشي وذلك لأن تركيب «خ و ف» في تقاليبها يدل على الضعف تدل عليه الخيفة والخفية ولولا قرب معناهما لما ورد في القرآن ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف: ٥٥) و﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (الأعراف: ٢٠٥) والمخفي فيه ضعف كالخائف. إذا علمت هذا تبين لك اللطيفة، وهي أن الله تعالى في كثير من المواضع ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة المخشي. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٨) وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١) فإن الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه وإنما الله عظيم يخشاه كل قوي ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٧) مع أن الملائكة أقوياء. وقال تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ (الأحزاب: ٣٧) أي تخافهم إعظاماً لهم

إذ لا ضعف فيك بالنسبة إليهم. وقال تعالى: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ (العنكبوت : ٣٣) أي لا تخف ضعفاً فإنهم لا عظمة لهم. وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ (النور : ٣٧) حيث كان عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله ضعيفة. وقال: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ (فصلت : ٣٠) أي بسبب مكروه يلحقكم من الآخرة فإن المكروهات كلها مدفوعة عنكم. وقال تعالى: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ (القصص : ١٨)، وقال تعالى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ (الشعراء : ١٤) لوحدته وضعفه. وقال هارون: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ (طه : ٩٤) لعظمة موسى في عين هارون لا لضعفٍ فيه. وقال: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ (الكهف : ٨٠) حيث لم يكن لضعف فيه.

(**قلتُ:** بل ليدل على أنّ فعله «قتل الولد» كان من خشية الله بخلاف ما يظهر في ظاهر الأمر).

وحاصل الكلام أنك إذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشي، وإذا نظرت إلى استعمال الخوف وجدته مستعملاً لخشية من ضعف الخائف. وهذا في الأكثر وربما يتخلف المدَّعى عنه لكن الكثرة كافية.

الثانية: قال الله تعالى ههنا: ﴿خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ مع أن وصف الرحمة غالباً يقابل الخشية، إشارةً إلى مدح المتقي حيث لم تمنعه الرحمة من الخوف بسبب العظمة.

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (الحشر : ٢١) إشارة إلى ذم الكافر حيث لم تحمله الألوهية التي تنبئ عنها لفظة الله وفيها العظمة على خوفه سبحانه.

❁❁❁

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾ (الذاريات: ١ – ٦).

قال **ابن عاشور**: ومن رشاقة هذا القسم أن فيه مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وهو قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾ فإن أحوال الرياح المذكورة هنا مبدؤها: نفخ، فتكوين، فإحياء، وكذلك البعث مبدؤه: نفخ في الصور، فالتئام أجساد الناس التي كانت معدومة أو متفرقة، فبث الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ (الذاريات: ٧)، فقال: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾، وفي ذلك دقة بالغة لأنّ كلمة ﴿ٱلۡحُبُكِ﴾ تحتمل عدة معاني كلها صحيح وكلها تصدق عليه الآية. قال **الشنقيطي**: ذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبك جمع حبيكة أو حباك وعليه فالمعنى: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾، أي ذات الطرائق، فما يبدو على سطح الماء الساخن أو الرمل من الطرائق إذا ضربته الريح هو الحبك، وهو جمع حبيكة أو حباك، قالوا: ولبعد السماء لا ترى طرائقها المعبر عنها بالحبك. وقال بعض أهل العلم. ذات الحبك أي ذات الخلق الحسن المحكم، وهذا الوجه يدل عليه قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ (الملك: ٣، ٤)، وعلى هذا القول فالحبك مصدر لأنّ كل عمل أتقنه عامله وأحسن صنعه، تقول فيه العرب: حبكه حبكاً بالفتح على القياس. والحبك بالضمتين بمعناه، وقال بعض العلماء: ذات الحبك، ذات الزينة، وعلى هذا القول فالآية كقوله: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ (الملك: ٥)، وقال بعض العلماء: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ أي ذات الشدة، وهذا القول يدل له قوله تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ (النبأ: ١٢)، والعرب تسمى شدة الخلق حبكاً، وفيه قيل للفرس الشديد الخلق: محبوك، والآية تشمل الجميع فكل الأقوال حق اهـ.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٨ - ٣١).

وإنما سألهم بعد أن قراهم جرياً على سنة الضيافة أن لا يسأل الضيف عن الغرض الذي أورده ذلك المنزل إلا بعد استعداده للرحيل كيلا يتوهم سآمة مضيفه من نزوله به، وليعينه على أمره إن كان مستطيعاً، وهم إن كانوا قد بشروه بأمر عظيم إلا أنه لم يعلم هل ذلك هو قصارى ما جاءوا لأجله، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (الذاريات: ٣٨).

قال **ابن عاشور**: وعقبت قصة قوم لوط بقصة موسى وفرعون لما بينهما من تناسب في أن العذاب الذي عذب به الأمتان عذاب أرضي؛ إذ عذب قوم لوط بالحجارة التي هي من طين، وعذب قوم فرعون بالغرق في البحر. ثم ذكر عاد وثمود وكان عذابهما سماوياً؛ إذ عذبت عاد بالريح وثمود بالصاعقة.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٤، ٥٥)

قال **ابن عاشور**: عَطْف ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ على قوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ احتراس كي لا يتوهم أحدٌ أنّ الإعراض إبطال للتذكير بل التذكير باقٍ.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

قال **ابن عاشور**: وتقديم الجن في الذكر في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن، ليعلموا أن الجن عباد الله تعالى، فهو نظير قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾. اهـ.

قلتُ: يحتمل كذلك أنّ وجه تقديم الجنّ هو كونهم أكثر امتناعاً عن الطاعة من الإنس في الغالب.

سُورَةُ الطُّورِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الطور: ٩ - ١١)

قال في **(الظلال)**: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾. ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهي تضطرب وتتقلب كما يضطرب الموج في البحر من هنا إلى هناك بلا قوام. ومشهد الجبال الصلة الراسية تسير خفيفة رقيقة لا ثبات لها ولا استقرار أمر مذهل مزلزل يدل ضمناً على الهول الذي تمور فيه السماء وتسير منه الجبال، فكيف بالمخلوق الإنساني الصغير الضعيف في ذلك الهول المذهل المخيف؟

وفي زحمة هذا الهول الذي لا يثبت عليه شيء وفي ظل هذا الرعب المزلزل لكل شيء يعاجل المكذبين بما هو أهول وأرعب؛ يعاجلهم بالدعاء عليهم بالويل من العزيز الجبار ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾. والدعاء بالويل من الله حكم بالويل وقضاء فهو أمر لا محالة واقع ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ وهو كائن حتماً ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ فيتناسب هذا الهول مع ذلك الويل وينصب كله على المكذبين ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الطور: ١٦)

قال **ابن عاشور**: وعدى ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ إلى ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بدون الباء خلافاً لقوله بعده ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ليشمل القصر مفعول الفعل المقصور، أي تجزون مثل عملكم لا أكثر منه فينتفي الظلم عن مقدار الجزاء كما انتفى الظلم عن أصله، ولهذه الخصوصية لم يعلق معمول الفعل بالباء إذ جعل الجزاء بمنزلة نفس الفعل.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (الطور: ٢١).

قال **ابن عاشور** في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾.

وفي هذا التعليل كنايتان: إحداهما أن أهل الكفر مقرونون بجزاء أعمالهم، وثانيتهما أن ذريات المؤمنين الذين ألحقوا بآبائهم في النعيم ألحقوا بالجنة كرامةً لآبائهم ولولا تلك الكرامة لكانت معاملتهم على حسب أعمالهم. وبهذا كان لهذه الجملة وقع أشد حسناً عما سواه مع أنها صارت من حسن التتميم.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾ (الطور: ٢٢، ٢٣).

قال **ابن عاشور**: والإمداد: إعطاء المدد وهو الزيادة من نوع نافع فيما تحبه، أي زدناهم على ما ذكر من النعيم والأكل والشرب الهنيء فاكهة ولحماً مما يشتهون من الفواكه واللحوم التي يشتهونها، أي لا يؤتى لهم بشيء لا يرغبون فيه فلكل منهم ما اشتهى. وخص الفاكهة واللحم تمهيداً لقوله: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾، ومنحهم الله في الآخرة لذة نشوة الخمر والمنادمة على شربها لأنها من أحسن اللذات فيما ألفته نفوسهم، وكان أهل الترف في الدنيا إذا شربوا الخمر في الدنيا كسروا سورة حدتها في البطن بالشواء من اللحم ويدفعون لذع الخمر عن أفواههم بأكل الفواكه ويسمونها النقل ـ بضم النون ـ وفتحها ـ ويكون من ثمار ومقات. ولذلك جيء بقوله: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ ﴾ حالاً من ضمير الغائب في ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ ﴾ إلخ. والتنازع أطلق على التداول والتعاطي. وأصله تفاعل من نزع الدلو من البئر عند الاستقاء فإن الناس كانوا إذا وردوا للاستقاء نزع أحدهم دلوه من الماء ثم ناول الدلو لمن حوله. وربما كان الرجل القوي الشديد ينزع من البئر للمستقين كلهم يكفيهم تعب النزع، ويسمى الماتح بمثناه فوقية. والمعنى: أن بعضهم يصب لبعض الخمر ويناوله إيثاراً وكرامة. وقيل: تنازعهم الكأس مجاذبة بعضهم كأس بعض إلى نفسه للمداعبة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ (الطور: ٢٤).

قال **ابن عاشور**: وجيء به في صيغة المضارع للدلالة على التجدد والتكرار، أي ذلك لا ينقطع بخلاف لذات الدنيا فإنها لابد لها من الانقطاع بنهايات تنتهي إليها فتكره لأصحابها الزيادة منها مثل الغول، والإطباق، ووجع الأمعاء من شرب الخمر ومثل الشبع في تناول الطعام وغير ذلك من كل ما يورث العجز عن الازدياد من اللذة ويجعل الازدياد ألماً. ولم يستثن من ذلك إلا لذات المعارف ولذات المناظر الحسنة والجمـال. ولما أشعر فعل ﴿وَيَطُوفُ﴾ بأن الغلمان يناولونهم ما فيه لذاتهم كان مشعراً بتجدد المناولة وتجدد الطواف وقد صار كل ذلك لذة لا سآمة منها. والطواف: مشي متكرر ذهاباً ورجوعاً وأكثر ما يكون على استدارة، ومنه طواف الكعبة، وطواف أهل الجاهلية بالأصنام ولأجله سمي الصنم دوراً لأنهم يدورون به. وسمي مشي الغلمان بينهم طوافاً لأن شأن مجالس الأحبة والأصدقاء أن تكون حلقة ودوائر يستوي في مرآهم كما أشار إليه في قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾. ومنه جعلت مجالس الدروس حلقاً وكانت مجالس النبي ﷺ حلقاً.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ فِي سورة الطور:** ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ (الطور: ٢٩)، وقال في سورة القلم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ (القلم: ٢)، فزاد قوله: ﴿بِكَاهِنٖ﴾ على ما في سورة القلم فما سبب ذلك؟ قال د. **فاضل**: والجواب أن هناك أكثر من سبب دعا إلى هذه الزيادة. منها: أنه ذكر في سورة الطور قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ والاستماع مما تدعيه الكهنة لتابعيهم من الجن فناسب ذلك ذكر الكهنة فيها. ومنها: أنه ذكر السحر في سورة الطور فقال: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ فناسب السحر ذكر الكهنة.

سُورَةُ النَّجْمِ

فائدة : قال **أبو حيان** عن سورة النجم: هذه السورة مكية ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة لأنه سبحانه قال في الطور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ أي اختلق القرآن ونسبوه إلى الشعر وقالوا: هو كاهن ومجنون فأقسم تعالى أنه ﷺ ما ضل وأن ما يأتي به هو وحي من الله.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ (النجم: ٣٦، ٣٧).

قال **أبو حيان:** وخص هذين النبيين عليهما أفضل الصلاة والسلام، قيل: لأنه ما بين نوح وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بأبيه وابنه وعمه وخاله والزوج بامرأته والعبد بسيده فأول من خالفهم إبراهيم، ومن شريعة إبراهيم إلى شريعة موسى عليه السلام عليهما كانوا لا يأخذون الرجل بجريمة غيره.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ (النجم: ٤٥، ٤٦).

قال **ابن عاشور:** و﴿ تُمْنَىٰ ﴾ تدفق وفسروه بمعنى تقذف أيضاً. وبني فعل ﴿ تُمْنَىٰ ﴾ إلى المجهول لأن النطفة تدفعها قوة طبيعية في الجسم خفية، فكان فاعل الإمناء مجهولاً لعدم ظهوره. والتقييد بـ ﴿ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ لما في اسم الزمان من الإيذان بسرعة الخلق عند دفق النطفة في رحم المرأة فإنه عند التقاء النطفتين يبتدئ تخلق النسل فهذه إشارة إلى أن البويضة التي هي نطفة المرأة حاصلة في الرحم فإذا أمنيت علها نطفة الذكر أخذت في التخلق إذا لم يعقها عائق. ثم لما في فعل ﴿ تُمْنَىٰ ﴾ من الإشارة إلى أن النطفة تقطر وتصب على شيء آخر لأن الصب يقتضي مصبوباً عليه فيشير إلى أنّ التخلق إنما يحصل من انصباب النطفة على أخرى، فعند اختلاط المائين يحصل تخلق النسل فهذا سر التقييد بقوله: ﴿ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾. وكان مقتضى الظاهر من التنظير أن يقدم قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ

وَأَقْنَىٰ﴾ على قوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ لما في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ من الامتنان وإظهار الاقتدار المناسبين لقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ إلخ. إذ ينتقل من نعمة الخلق إلى نعمة الرزق كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ ولكن عدل عن ذلك على طريقة تشبه الاعتراض ليقرن بين البيانين ذكر قدرته على النشأتين. اهـ.

قلتُ: قوله «البويضة التي هي نطفة المرأة» فيه نظر، إذ نطفتها هي ماؤها.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ (النجم: ٤٧).

قال **أبو حيان**: وجاء بلفظ ﴿عَلَيْهِ﴾ المشعرة بالتحتم لوجود الشيء؛ لـمَّا كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ بوجودها لا محالة وكأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ (النجم: ٥٧).

قال **ابن عاشور**: وتأنيث ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ بتأويل الواقعة، أو الحادثة، كما يقال: نزلت به نازلة، أو وقعت الواقعة، وغشيته، فالعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع، ولعلهم راعوا أن الأنثى مصدر كثرة النوع. والتعريف في ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ تعريف الجنس، ومنه زيادة تهويل بتمييز هذا الجنس من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبر في المخلص منه نظير التعريف في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وقولهم: أرسلها العراك.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ (النجم: ٦٢).

قال في **(الظلال)**: لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود. ويخطر لي احتمال أنه لم يقع؛ وإنما هي رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو

شهرين أو ثلاثة. وهو أمر يحتاج إلى التعليل. وبينما أنا كذلك وقعت لي تلك التجربة الشعورية الخاصة التي أشرت إليها من قبل.. كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب، يتلو سورة النجم. فانقطع بيننا الحديث، لنستمع وننصت للقرآن الكريم. وكان صوت القاريء مؤثراً وهو يرتل القرآن ترتيلاً حسناً. وشيئاً فشيئاً عشت معه فيما يتلوه. عشت مع قلب محمد ﷺ في رحلته إلى الملأ الأعلى. عشت معه وهو يشهد جبريل عليه السلام في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها. ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله! وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة. عند سدرة المنتهى. وجنة المأوى. عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي، وتحلق بي رؤاي، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي.. وتابعته في الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها.. إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى. ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض، وأمام الأجنة في بطون الأمهات. وعلم الله يتابعها ويحيط بها. وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة.. الغيب المحجوب لا يراه إلا الله. والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء. والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد. والحشود الضاحكة والحشود الباكية. وحشود الموتى. وحشود الأحياء. والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكر أو أنثى. والنشأة الأخرى. ومصارع الغابرين. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾! واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.. ثم جاءت الصيحة الأخيرة. واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾. فلما سمعت: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.. كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقاً إلى أوصالي. واستحالت رجفة عضلية مادية ذات

مظهر مادي، لم أملك مقاومته. فظل جسمي كله يختلج، ولا أتمالك أن أثبته، ولا أن أكفكف دموعاً هاتنة، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة !

وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليله قريب. إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة. ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها. ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع، وكانت مني هذه الاستجابة.. وذلك سر القرآن.. فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة؛ وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير. فيكون منها ما يكون!

لحظة كهذه مست قلوب الحاضرين يومها جميعاً. ومحمد يقرأ هذه السورة يقرؤها بكيانه كله. ويعيش في صورها التي عاشها من قبل بشخصه. وتنصب كل هذه القوة الكامنة في السورة من خلال صوت محمد ﷺ في أعصاب السامعين. فيرتجفون ويسمعون: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ ويسجد محمد والمسلمون.. فيسجدون..

❋❋❋

سورة القمر

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ (القمر: ٩).

قال ابن عاشور: و﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ معطوف على ﴿ وَقَالُوا ﴾ وهو افتعل من الزجر. وصيغة الافتعال هنا للمبالغة مثلها: افتقر واضطر.

ونكتة بناء الفعل للمجهول هنا للتوصل إلى حذف ما يسند إليه فعل الازدجار المبني للفاعل وهو ضمير ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ فعدل عن أن يقال: وازدجروه، إلى قوله: ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ محاشاة للدال على ذات نوح وهو ضمير من أن يقع مفعولاً لضميرهم. ومرادهم أنهم ازدجروه، أي نهوه عن ادعاء الرسالة بغلظة قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾، وقالوا: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ١٧).

قال في (**الدر المنثور**): أخرج آدم بن أبي إياس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ قال: هوّنا قراءته.

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ قال: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله. وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً مثله.

وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنه مر برجل يقول: سورة خفيفة. قال: لا تقل سورة خفيفة، ولكن قل سورة ميسرة لأن الله يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال: هل من متذكر. وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب في قوله: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال:

هل من منزجر عن المعاصي. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال: هل من طالب خير يعان عليه؟

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر عن مطر الوراق في قوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال: هل من طالب علم فيعان عليه؟.

- **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ** ﴾ (القمر: ٥٤)، فقال: ﴿ **وَنَهَرٍ** ﴾ ولم يقل: «أنهار» كما في الآيات الأخرى: ﴿ **جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ** ﴾، قال د. **فاضل** مبيناً وجه ذلك: أن النهر اسم جنس بمعنى الأنهار وهو بمعنى الجمع وقد يؤتى بالواحد للدلالة على الجمع والكثرة ومنه قوله ﷺ: «**أهلك الناس الدينار والدرهم**».. والمراد بالدينار والدرهم الجنس لا الواحد. وجاء في «**معاني القرآن**» **للفراء**: ... ونَهَر معناه أنهار وهو في مذهبه كقوله: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ وزعم الكسائي أنه سمع العرب يقولون: أتينا فلاناً لحمة ونبيذة فوحد ومعناه الكثير.

ومنها أن معاني «النهر» أيضاً السعة. والسعة ههنا عامة تشمل سعة المنازل وسعة الرزق والمعيشة وكل ما يقتضي تمام السعادة والسعة فيه جاء في «**البحر المحيط**» ونَهَر: سَعة في الأرزاق والمنازل. وجاء في «**روح المعاني**» وعن ابن عباس تفسيره بالسعة ... والمراد بالسعة سعة المنازل على ما هو الظاهر وقيل سعة الرزق والمعيشة وقيل ما يعمهما.

ومنها أن من معاني «النهر» أيضاً الضياء جاء في «**لسان العرب**» وأما قوله - عز وجل -: ﴿ **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ** ﴾ فقد يجوز أن يعني به السعة والضياء وأن يعني به النهر الذي هو مجرى الماء على وضع الواحد موضع الجميع. وقيل في قوله: ﴿ **جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ** ﴾ أي في ضياء وسعة لأن الجنة ليس فيها ليل إنما هو نور يتلألأ.. وجاء في «**معاني القرآن**» للفراء: .. ويقال: ﴿ **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ** ﴾ في ضياء وسعة وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة.

فائدة: قال **أبو حيان**: قيل: وفائدة تكرار ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ** ﴾، وقوله: ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ** ﴾ التجرد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين للاتعاظ واستئناف التيقظ

إذا سمعوا الحث على ذلك لئلا تستولي عليهم الغفلة. وهكذا حكم التكرير لقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن، وقوله: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عند كل آية أوردها في سورة المرسلات وكذلك تكرير القصص في أنفسها لتكون العبرة حاضرة للقلوب مذكورة في كل أوان.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ عن قوم ثمود:** ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ (القمر: ٢٨، ٢٩)، فقال: ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ للدلالة على اشتراك الجميع في هذه الجريمة بأخصر لفظ وأدق أسلوب، قال **أبو حيان:** تعاطى هو مطاوع عاطى، وكأن هذه الفعلة تدافعها وعاطاها بعضهم بعضاً فتعاطاها «قدار» وتناول العقر بيده أ.هـ.

قلتُ: ولذا ـ والله أعلم ـ قال في آيات أخر: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ (الأعراف: ٧٧)، وقال: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (هود: ٦٥)، وقال: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٥٧)، فنسب العقر إليهم جميعاً.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قال **أبو حيان**: ومناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه لما ذكر مقر المتقين في جنات ونهر عند مليك مقتدر ذكر في سورة الرحمن شيئاً من آيات الملك وآثار القدرة ثم ذكر مقر الفريقين على جهة الإسهاب إذ كان في آخر السورة ذكره على جهة الاختصار والإيجاز ولما ذكر قوله: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾ فأبرز هاتين الصفتين بصورة التنكير فكأنه قيل: من المتصف بذلك؟ فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فذكر ما نشأ عن صفة الرحمة وهو تعليم القرآن الذي هو شفاء للقلوب.

❁ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦).

قال في (**الدر المنثور**): وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ذكر ذات يوم وفكر في القيامة والموازين والجنة والنار وصفوف الملائكة وطيّ السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب، فقال: وددت أني كنت خضراء من هذا الخضر تأتي عليّ بهيمة فتأكلني وأني لم أخلق، فنزلت هذه الآية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدوا فرائضه الجنة.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ يقول: خاف ثم اتقى، والخائف من ركب طاعة الله وترك معصيته.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا في التوبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه فينزع عنها.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: من خاف مقام الله عليه.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال: الرجل يريد الذنب فيذكر الله فيدع الذنب.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله ودأبوا ونصبوا له بالليل والنهار.

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: إذا أراد أن يذنب أمسك مخافة الله.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: لمن خافه في الدنيا.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (الرحمن: ٦٨)، فقال: ﴿وَنَخْلٌ﴾ ولم يقل: «النخيل»، وذلك لأنّ ﴿وَنَخْلٌ﴾ اسم جنس فهو أعم وأشمل من النخيل، فناسب أن يقول عن نخل الجنة ذلك، ولذا أيضاً قال عن عاد: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (القمر: ٢٠)، وقال: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٧)، فقال: ﴿نَخْلٍ﴾ ليدل على عظم خلقهم ومع ذلك أبادهم الله، وعادٌ معروفةٌ أهلها بعظم الخلقة حتى قيل للرجل شديد الطول عظيم الخلقة «رجلٌ عادي»، وكذا في قول فرعون للسحرة لمّا آمنوا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ (طه: ٧١)، فقال: ﴿ٱلنَّخْلِ﴾ ولم يقل: «النخيل» ليدل على أنّ فرعون ـ لعنه الله ـ هددهم بأنه سيصلبهم على النخل العظيم مبالغةً في النكاية بهم.

ولمّا كانت آيات سورة عبس في سياق بيان عظيم كفر الكافر مع عظيم نعم الله عليه ناسب أن يقول سبحانه: ﴿وَنَخْلًا﴾ دون «ونخيلاً»؛ قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ١٧﴾

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ
أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا
ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ (عبس : ١٧ – ٢٩).

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن : ٧٨).

قال **أبو حيان**: ولما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ختم نعم الآخرة بقوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾. وناسب هنالك ذكر البقاء والديمومة له تعالى إذ ذكر فناء العالم. وناسب هنا ذكر ما اشتق من البركة وهي النمو والزيادة إذ جاء ذلك عقب ما امتن به على المؤمنين وما آتاهم في دار كرامته وزيادته وديمومته وذو الجلال والإكرام من الصفات التي جاء في الحديث أن يُدعى الله بها قال ﷺ: «**ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام**».



سُورَةُ الوَاقِعَةِ

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ (الواقعة: ١ - ٣)، فقال: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ دون بيان للمخفوض والمرفوع، ليكون أدلّ على أكثر من معنىً كلها حقٌّ وتشمله الآية، وهذا من دقة القرءان.

قال **الشنقيطي**: قال بعض العلماء: تقديره: هي خافضة أقواماً في دركات النار، رافعة أقواماً إلى الدرجات العلى إلى الجنة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (النساء: ١٤٥)، وقال: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (طه: ٧٥، ٧٦).

وقال بعض العلماء: تقديره: خافضة أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا رافعة أقواماً كانوا منخفضين في الدنيا. وهذا المعنى يشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ (المطففين: ٢٩ - ٣٥).

وقال بعض العلماء: تقديره: خافضة بعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم التي تسقط وتتناثر يوم القيامة، وذلك خفضٌ لها بعد أن كانت مرتفعة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ (الانفطار: ٢). ورافعة: أي رافعة بعض الأجرام التي كانت منخفضة كالجبال التي ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ (الكهف: ٤٧). اهـ.

قلتُ: كلها معانٍ صحيحة وحق، وقد دلّ عليها إبهام قوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، والله أعلم. وقال **الزمخشري**: قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾. مرفوع على: هي خافضة رافعة، ترفع أقواماً وتضع آخرين: إما وصفاً لها بالشدة؛ لأن الواقعات العظام كذلك:

يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس، وإما لأن الأشقياء يحطون إلى الدركات، والسعداء يرفعون إلى الدرجات؛ وإمّا لأنّها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارّها، فتخفض بعضاً وترفع بعضاً: حيث تسقط السماء كسفاً وتنتثر الكواكب وتنكدر وتسير الجبال فتمرّ في الجو مرّ السحاب.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ (الواقعة: ٤، ٥)، فقال: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ للدلالة على عدة معانٍ يحتملها قوله: ﴿ وَبُسَّتِ ﴾ وكلها حق، ولا يدل على هذه المعاني العظيمة مجتمعة غير قوله: ﴿ وَبُسَّتِ ﴾.

قال **الشنقيطي**: قال أكثر المفسرين: ﴿ وَبُسَّتِ ﴾ أي فتت تفتيتاً حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن، وهذا الوجه يشهد له قرآن كقوله: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ (المزمل: ١٤)، فقوله: ﴿ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ أي رملاً متهايلاً.

والوجه الثاني: أنّ معنى بسها سيرها بين السماء والأرض، وعلى هذا فالمراد ببسها سوقها وتسييرها من قول العرب: بست الإبل أبسها بضم الباء، وأبستها أبسها بضم الهمزة وكسر الباء، لغتان بمعنى سقتها، ويشهد لهذا الوجه قوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ (الكهف: ٤٧)، وقوله: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ (الطور: ١٠). الوجه الثالث: أنّ معنى قوله: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ نزعت من أماكنها وقلعت، وهذا الوجه راجع للوجه الأول. اهـ. باختصار.

فائدة: قال **الشنقيطي**: **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ (القارعة: ٥)، وأصل العهن أخص من مطلق الصوف لأنه الصوف المصبوغ خاصةً، قال بعضهم: الجبال منها ﴿ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾، فإذا بست وفتتت يوم القيامة وطيرت في الجو أشبهت العهن إذا طيرته الريح في الهواء.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ (الواقعة: ١٠).

قال **ابن عاشور**: وقوله: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ثانياً يجوز جعله خبراً عن ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأول كما أخبر عن أصحاب الميمنة بأنهم ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لأنه يدل على وصفهم بشيء لا يكتنه كنهه بحيث لا يفي به التعبير بعبارة غير تلك الصفة إذ هي أقصى ما يسعه التعبير، فإذا أراد السامع أن يتصور صفاتهم فعليه أن يتدبر حالهم، وهذا على طريقة قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾. ويجوز جعله تأكيداً للأول. فمآل جملة ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ونظيرتها ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ وجملة ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هو التعجب من حالهم وطريقهِ وهو الكناية ولكن بين الكنايتين فرقاً؟؟ إحداهما كانت من طريق السؤال عن الوصف، والأخرى من طريق تعذر التعبير بغير ذلك الوصف. والمعنى: أن حالهم بلغت منتهى الفضل والرفعة بحيث لا يجد المتكلم خبراً يخبر به عنهم أدل على مرتبتهم من اسم ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ فهذا الخبر أبلغ في الدلالة على شرف قدرهم من الإخبار بـ ﴿مَآ﴾ الاستفهامية التعجبية في قوله: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ مع ما في اشتقاق لقبهم من السبق من الدلالة على بلوغهم أقصى ما يطلبه الطالبون. وحذف متعلق ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ في الآية لقصد جعل وصف ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ بمنزلة اللقب لهم، وليفيد العموم، أي أنهم سابقون في كل ميدان تتسابق إليه النفوس الزكية كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ (الواقعة: ٦٠).

قال **ابن عاشور**: فهذا وجه التعبير بـ ﴿قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ دون: نحن نميتكم، أي أن الموت مجعول على تقدير معلوم مراد، مع ما في مادة ﴿قَدَّرۡنَا﴾ من التذكير بالعلم والقدرة والإرادة لتتوجه أنظار العقول إلى ما في طي ذلك من دقائق وهي كثيرة، وخاصة في تقدير موت الإنسان الذي هو سبيل إلى الحياة الكاملة إن أخذ أهلها أسبابها. وفي كلمة ﴿بَيۡنَكُمُ﴾ معنى آخر، وهو أن الموت يأتي على آحادهم تداولاً

وتناوباً، فلا يفلت واحد منهم ولا يتعين لحلوله صنف ولا عمر فآذن ظرف «بين» بأن الموت كالشيء الموضوع للتوزيع لا يدري أحدهم متى يصيبه قسطه منه، فالناس كمن دعوا إلى قسمة مال أو ثمر أو نعم لا يدري أحد متى ينادى عليه ليأخذ قسمه، أو متى يطير إليه قطه. ولكنه يوقن بأنه نائله لا محالة. وبهذا كان في قوله: ﴿ بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ استعارة مكنية إذ شبه الموت بمقسوم ورمز إلى المشبه به بكلمة ﴿ بَيْنَكُمُ ﴾ الشائع استعمالها في القسمة، قال تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾. وفي هذه الاستعارة كناية عن كون الموت فائدة ومصلحة للناس أما في الدنيا فلئلا تضيق بهم الأرض والأرزاق وأما في الآخرة فللجزاء الوفاق.

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة تقوي الحكم وتحقيقه، والتحقيق راجع إلى ما اشتمل عليه التركيب من فعل ﴿ قَدَّرْنَا ﴾ وظرف ﴿ بَيْنَكُمُ ﴾ في دلالتهما على ما في خلق الموت من الحكمة التي أشرنا إليه.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ (الواقعة: ٧٣).

فيه لطيفة وهي أن الله تعالى قدم كونها ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ على كونها ﴿ وَمَتَٰعًا ﴾ ليعلم العبد أن الفائدة الأخروية أتم وبالذكر أهم. أفاده **الرازي**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة: ٧٧).

وصف القرآن بأنه كريم في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ فيه ميزة وهي أن الكلام إذا قرئ وتردد كثيراً يهون في الأعين والآذان ولهذا ترى من قال شيئاً في مجلس الملوك لا يذكره ثانياً ولا يكرره فقوله تعالى: ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي لا يهون بكثرة التلاوة أبد الدهر كالكلام الغض والحديث الطري. قاله **الرازي**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ
ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن
كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ
وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ
مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾
فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الواقعة: ٧٥ - ٩٦).

قال في (**الظلال**): ثم يأتي (المقطع) الأخير في السورة «لحظة الموت» اللمسة التي ترجف لها الأوصال واللحظة التي تنهي كل جدال واللحظة التي يقف فيها الحي بين نهاية طريق وبداية طريق حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. أفأنتم شاكون في هذا الحديث الذي يقال لكم عن النشأة الآخرة مكذبون بالقرآن وما يقصه عليكم من شأن الآخرة وما يقرره لكم من أمور العقيدة. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فإذاً التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدخرونه لآخرتكم وما أسوأه من رزق فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الروحُ الحلقوم وتقفون في مفرق الطريق المجهول. ثم يصور الموقف التصوير القرآني الوحي الذي يرسم ظلال الموقف كلها في لمسات سريعة ناطقة بكل ما فيه وبكل ما وراءه وبكل ما يوحيه.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾. إنّا لنكاد نسمع صوت الحشرجة ونبصر تقبض الملامح ونحس الكرب والضيق من خلال قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول البأس في ملامح الحاضرين من خلال قوله: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾.

هنا في هذه اللحظة وقد فرغت الروح من أمر الدنيا وخلفت وراءها الأرض ومن فيها وهي تستقبل عالماً لا عهد لها به ولا تملك من أمره شيئاً إلا ما ادخرت من عمل وما كسبت من خير أو شر. وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى وقد انفصلت عمن حولها وما حولها. الجسد هو الذي يراه الناظرون ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئاً. هنا تقف قدرة البشر ويقف علم البشر وينتهي مجال البشر. هنا يعرفون ولا يجادلون أنهم عجزة.. عجزة قاصرون.. قاصرون. هنا يسدل الستار دون الرؤية ودون المعرفة ودون الحركة. هنا تتفرد القدرة الإلهية والعلم الإلهي ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾. وهنا يجلل الموقف جلال الله ورهبة (معيته) سبحانه وتعالى «وهو (معنا) في كل وقت» ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر. فإذا مجلس الموت تجلله (الرهبة والجلال) فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع ـ وفي ظل هذه المشاعر الواجعة الراجعة ـ الآسية الأسفة يجيء التحدي الذي يقطع كل قول وينهي كل جدال ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾. فلو كان الأمر كما تقولون إنه لا حساب ولا جزاء فأنتم إذاً طلقاء غير مدينين ولا محاسبين فدونكم إذاً الروح فلترجعونها وقد بلغت الحلقوم لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء وأنتم حولها تنظرون وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون. هنا تسقط كل تعلة وتنقطع كل حجة ويبطل كل محال وينتهي كل جدال ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشري. فلا يصمد له إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل ثم يمضي السياق في بيان مصير هذه الروح الذي يتراءى لها من بعيد حين تبلغ الحلقوم وتستدبر الحياة الغائبة وتستقبل الحياة الباقية وتمضي إلى الدينونة التي يكذب بها المكذبون. ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ

﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾. وقد مرت بنا في أول السورة صور من نعيم المقربين. فالروح هنا ترى علائم هذا النعيم الذي ينتظرها ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة وتلقي ظلال الراحة الحلوة والنعيم اللين والأنس الكريم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ فيلتفت بالخطاب إليه يبلغه سلام إخوانه من أصحاب اليمين. وما أندى السلام ساعتئذ وما أحبه حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم فيطمئن باله. ويشعر بالأنس في الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين. ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾.

وما أسوأه نزلاً ومثوى ذلك الحميم الساخن وما أشده عذاباً ذلك الجحيم. يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين.



سُورَةُ الحَدِيدِ

قال **أبو حيان**: ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة لأنه تعالى أمر بالتسبيح ثم أخبر أن التسبيح المأمور به قد فعله والتزمه كل من في السموات والأرض وأتى سبح بلفظ الماضي ويسبح بلفظ المضارع وكله يدل على الديمومة والاستمرار وأنّ ذلك ديدن من في السموات والأرض.

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

- **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (المجادلة: ٦).

قال **أبو حامد الغزالي**: لو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك.



سُورَةُ الحَشْرِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾** (الحشر: ٢٠)، فقدم ﴿**أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ**﴾ في الذكر ليبين لأول وهلة أنّ النقص جاء من جهتهم كما في قوله تعالى: ﴿ **هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ** ﴾ (الرعد: ١٦)، أفاده **أبو السعود**.

قلتُ: وجه ذلك أنّ التفاوت الذي يحصل بين شيئين قد يكون لزيادة جانب أحدهما دون أن يكون في الجانب الآخر نقصٌ، فلما قدّم ذكر أهل النار دلّ على وجود النقص من جانبهم.

ـ **قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾** (الحشر: ٢٣).

قال **ابن عاشور**: وعقب بـ ﴿ **ٱلْقُدُّوسُ** ﴾ وصف ﴿ **ٱلْمَلِكُ** ﴾ للاحتراس إشارة إلى أنه منزه عن نقائص الملوك المعروفة من الغرور، والاسترسال في الشهوات ونحو ذلك من نقائص النفوس. و﴿ **ٱلسَّلَٰمُ** ﴾ مصدر بمعنى المسالة وصف الله تعالى به على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة في الوصف، أي ذو السلام، أي السلامة، وهي أنه تعالى سَالَمَ الخلق من الظلم والجور. وفي الحديث: «**إن الله هو السلام ومنه السلام**». وبهذا ظهر تعقيب وصف ﴿ **ٱلْمَلِكُ** ﴾ بوصف ﴿ **ٱلسَّلَٰمُ** ﴾ فإنه بعد أن عقب بـ ﴿ **ٱلْقُدُّوسُ** ﴾ للدلالة على نزاهة ذاته، عقب بـ ﴿ **ٱلسَّلَٰمُ** ﴾ للدلالة على العدل في معاملته الخلق، وهذا احتراس أيضاً. و﴿ **ٱلْمُؤْمِنُ** ﴾ اسم فاعل من آمن الذي همزته للتعدية، أي جعل غيره آمناً. فالله هو الذي جعل الأمان في غالب أحوال الموجودات، إذ خلق نظام للمخلوقات بعيداً عن الأخطار وللمصائب، وإنما تعرض للمخلوقات المصائب بعوارض تتركب من تقارن مصالح، فيرجح أقواها ويخص أدناها، وقد تأتي من جراء

أفعال الناس. وذكر وصف ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ عقب الأوصاف التي قبله إتمام للاحتراس من توهم وصفه تعالى بـ ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾. أنه كالملوك المعروفين بالنقائض. فأفيد أولاً نزاهة ذاته بوصف ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ ونزاهة أفعاله المغيّبة عن الغدر والكيد بوصف ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾، ونزاهة أفعاله الظاهرة عن الجور والظلم بوصف ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ وتعقيب ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ بـ ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ لدفع توهم أن تأمينه عن ضعف أو عن مخافة غيره، فأعلموا أن تأمينه لحكمته مع أنه رقيب مطلع على أحوال خلقه فتأمينه إياهم رحمة بهم. ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث عقب صفة ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ أن جميع ما ذكره آنفاً من الصفات لا يؤذن إلا باطمئنان العباد لعناية ربهم بهم وإصلاح أمورهم وأن صفة ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ تؤذن بأمر مشترك فعقبت بصفة ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ ليعلم الناس أن الله غالب لا يعجزه شيء. واتبعت بصفة ﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾ الدالة على أنه مسخر المخلوقات لإرادته ثم صفة ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ الدالة على أنه ذو الكبرياء يصغر كل شيء دون كبريائه؛ فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت قبلها في جانب الإطماع.

❁❁❁

سُورَةُ الصَّفِّ

قال **أبو حيان**: ومناسبتها لآخر السورة قبلها أن في آخر تلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فاقتضى ذلك إثبات العداوة بينهم فحض تعالى على الثبات إذا لقي المؤمنون في الحرب أعداءهم.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الصَّفِّ: ١٣)، فقال: ﴿ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ ﴾ ولم يقل: «قريبان» ليدل على أنّ النصر ها هنا هو هو الفتح وهو النصر الحسي، وإلا فنصر الإسلام ـ النصر المعنوي ـ قائم لم ينقطع، فمنهجه منصور أبداً، ولو قال: «قريبان» لربما تَوهَّم متوهِّم أنّ نصر المنهج غيرْ واقع أيضاً.



سُورَةُ الجُمُعَةِ

قال **أبو حيان**: ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر تأييد من آمن على أعدائهم أتبعه بذكر التنزيه لله تعالى وسعة ملكه وتقديسه وذكر ما أنعم به على أمة محمد ﷺ من بعثته إليهم وتلاوته عليهم كتابه وتزكيتهم فصارت أمته غالبة سائر الأمم قاهرة لها منتشرة الدعوة كما انتشرت دعوة الحواريين في زمانهم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجُمُعَة : ٢).

قال **البقاعي** مبيناً وجه تقديم ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ في سورتي الجمعة وآل عمران: ولما ذكر سبحانه في سورة الجمعة بعثه في الأميين عامة اقتضى المقام تقديم التزكية التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر ليقبلوا ما جاءهم من العلم. وأما تقديمها في آل عمران مع ذكر البعث للمؤمنين فلاقتضاء الحال بالمعاتبة على الإقبال على الغنائم الذي كان سبب الهزيمة لكونها إقبالاً على الدنيا التي هي أمّ الأدناس.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ (الجُمُعَة : ٥)

قال **الضحاك**: كتباً لا يدري ما فيها ولا يدري ما هي! هذا مثل ضربه الله لهذه الأمة أي وأنتم إن لم تعملوا بهذا الكتاب كان مثلكم كمثلهم.

وقال **القرطبي** في قوله ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾: قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبيل فهكذا اليهود. وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء.

فائدة: ضرب الله مثل الذي لا ينتفع بما أوتي بالحمار يحمل أسفاراً ولعل من حكم ذكر هذا المثل في سورة الجمعة ألا يكون حظ الخطيب والمأموم من خطبة الجمعة كحظهما قبلها! أي لئلا يشابه اليهود. «**انظر تدبر المجموعة (١)**».

سُورَةُ المنَافِقُونَ

قال **أبو حيان**: ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلاً عن المنافقين واتبعهم ناس كثير من المؤمنين في ذلك. وذلك لسرورهم بالعير التي قدمت بالميرة إذ كان وقت مجاعة جاء ذكر المنافقين وما هم عليه من كراهة أهل الإيمان.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ عن المنافقين:** ﴿ **كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ** ﴾ (المنَافِقُونَ : ٤).

شبهوا بالخشب لذهاب عقولهم وفراغ قلوبهم من الإيمان ولم يكتف بجعلها خشباً حتى جعلها مسندة إلى الحائط لأن الخشب لا ينتفع بها إلا إذا كانت في سقف أو مكان ينتفع بها وأما إذا كانت مهملة فإنها مسندة إلى الحيطان أو ملقاة على الأرض. أفاده **أبو حيان**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ** ﴾ (المنَافِقُونَ : ٩).

ولم يقل: «لا تشغلكم» فلماذا؟ الجواب: لأن من الشغل ما هو محمود وهو الشغل في الحق كما في الحديث: «**إن في الصلاة لشغلاً**». وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ (يسٓ : ٥٥). أما الإلهاء فهو الاشتغال بما لا خير فيه وهو مذموم على وجه العموم فاختار ما هو أحق بالنهي. أفاده **د. السامرائي**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ (المنَافِقُونَ : ١٠)، فقال: ﴿ **أَخَّرْتَنِىٓ** ﴾ بزيادة الياء بينما ذكر ما قاله إبليس: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسرَاءِ : ٦٢)، فحذف الياء ﴿ أَخَّرْتَنِ ﴾، وفي ذلك دقة بالغة لأنّ إبليس عزم على إغواء بني آدم بكل ممكن، فكأنّه يقول: «لئن أخرتن يا رب أيَّ تأخيرٍ ولو قلّ، سأغوي بني آدم»، فناسب حذف الياء للدلالة على

ذلك، وأمّا الآية الأخرى، فهي تحذر العاصي من طلبه المهلة عند الموت، فلمّا كان الله قد أعذر إلى عباده وأخرهم ما يكفي لتذكرهم، كما في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ (فاطر: ٣٧)، وكان طلب العاصي للمهلة إنما هو طلب لزيادة التأخير لا لأصل إعطاء الفرصة، ناسب أن يزيد الياء ﴿أَخَّرْتَنِىٓ﴾ للدلالة على ذلك.

فوائد:

١- قال **د. فاضل**: قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فجاء بـ ﴿مِّن﴾ ولم يقل: «قبل أن يأتي أحدكم الموت» إشارة إلى قرب الموت من الإنسان وأنه على الإنسان أن يسابق الموت ويبادر بالعمل الصالح فإن ﴿مِّن﴾ هذه تفيد ابتداء الغاية الزمانية ومعناه الزمن القريب من الموت بل المتصل به، فحذفها يفيد الوقت الذي هو قبل الموت سواء كان قريباً أم بعيداً، ويفيد إعطاء المهلة مع أن الأجل إذا جاء لا يمهل؛ فالمجيء بها يفيد طلب التعجيل بالتوبة والإنفاق؛ إذ كل ساعة تمر بالإنسان تحتمل أن تكون هي ساعة الموت وهي التي ذكرها بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فانظر حُسْنَ التعبير ودقته قدم المفعول به على الفاعل فقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ولم يقل: «يأتي الموت أحدكم» وذلك لأن المفعول به هو المهم ههنا إذ هو المعنيُّ بالتوبة والصلاح وهو المدعو للإنفاق وهو المتحسر النادم إذا عاجله الموت فالعناية والاهتمام منصبان على المفعول الذي يأتيه الموت وهو كل واحد منا.

٢- وقال **د. فاضل** أيضاً: جاء بـ ﴿لَوْلَآ﴾ فقال: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ ولم يقل: «لو أخرتني» لأن ﴿لَوْلَآ﴾ أشد في الطلب من «لو» وقائلها أكثر إلحاحاً من قائل «لو» فإن «لو» تكون للطلب برفق وأما ﴿لَوْلَآ﴾ فتكون للطلب بشدة وحث. ومعنى ذلك أن ما هو فيه يستدعي الإلحاح في الطلب وأن يجأر به وأن يأتي بما هو من أشد أدوات الطلب قوةً. كما أنها من أدوات التنديم وفيها تنديم للنفس على ما فرط ولو جاء بـ «لو» لأفاد

العرض الخفيف هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إن «لو» قد تفيد التمني والتمني قد يكون ميؤوساً منه ليس لصاحبه فيه مطمع نحو «لو يعود الميت إلى الحياة فيخبر الناس بما هو فيه» في حين أن هذا القائل ليس متمنياً بل هو طالب للعودة سائل لها فلو جاء بـ «لو» لأفاد أن هذا من باب التمني الذي يتمناه الإنسان ولا يرجو وقوعه كقول القائل: «ألا ليت الشباب يعود يوماً» والتمني قد يكون في حال العافية كما يكون في غيرها في حين أن هذا طالب للتأخير وليس متمنياً. كما أنّه جاء بالفعل الماضي بعد ﴿ لَوْلَآ ﴾ فقال: ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ ﴾ ولم يقل: «لولا تؤخرني» ذلك أن المحذور وقع في حين أن الفعل المضارع قد يفيد أن الأمر لم يقع بعد وأن في الأمر سَعَة. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة: ٧٠)، وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النمل: ٤٦). هذا علاوة على ما يفيد دخول ﴿لَوْلَآ ﴾ على الماضي من قوة الطلب وشدته وإن كان مستقبل المعنى.

٣- قال د. **فاضل**: وقد تقول ولم قال ههنا ﴿ أَخَّرْتَنِىٓ ﴾ بالياء وقال في سورة الإسراء: ﴿ أَخَّرْتَنِ ﴾ فحذف الياء واجتزأ بالكسرة؟ والجواب: أن المقام يوضح ذلك فقد قال في سورة الإسراء على لسان إبليس: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦٢)، وقال ههنا: ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. وهنا نسأل: أي الطلبين يريده المتكلم لنفسه على وجه الحقيقة وأيهما يعود بالنفع عليها ودفع الضرر عنها أهو قوله: ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أم قوله: ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾؟ والجواب ظاهر فإن طلب إبليس لا يريده من أجل نفسه ولا لأنه محتاج إليه وإنما يريده ليضل ذرية آدم ثم إن هذا الطلب لا يعود عليه بنفع ولا يدفع عنه ضراً وليست له مصلحة فيه بل العكس هو الصحيح بخلاف الطلب الآخر فإنه يريده لنفسه حقاً وإنه لا شيء ألزم منه لمصلحته هو ودفع الضرر عنه.

فلما كان طلب التأخير لمصلحة الطالب حقاً وأنه ابتغاء لنفسه على وجه الحقيقة أظهر الضمير ولما كان طلب إبليس ليس من أجل نفسه ولا يعود عليها بالنفع حذف الضمير واجتزأ بالكسرة. ثم في الحقيقة إن كلام إبليس ليس طلباً وإنما هو شرط دخل عليه القسم فقال: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ﴾ فهو من باب الطلب الضمني وليس من باب الطلب الصريح، وأما قوله: ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ فهو طلب صريح ففرَّق تبعاً لذلك بين التعبيرين فصرح بالضمير وأظهر نفسه في الطلب الصريح وحذف الضمير واجتزأ بالإشارة إليه في الطلب غير الصريح وهو تناظر جميل، ففي الطلب الصريح صرح بالضمير وفي الطلب غير الصريح لم يصرح بالضمير.

٤- قال د. **فاضل**: جاء في «**معاني النحو**»: عطف ﴿وَأَكُن﴾ المجزوم على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ المنصوب وهو عطف على المعنى. وذلك أن المعطوف عليه يراد به السبب والمعطوف لا يراد به السبب. فإن ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ منصوب بعد فاء السبب وأما المعطوف فليس على تقدير الفاء ولو أراد السبب لنصب ولكنه جزم لأنه جواب الطلب نظير قولنا: «هل تدلني على بيتك أزرك؟» كأنه قال: إن تدلني على بيتك أزرك. فجمع بين معنيي التعليل والشرط. ومثل ذلك أن أقول لك: «احترم أخاك يحترمْك» و«احترم أخاك فيحترمَك» فالأول جواب الطلب والثاني سبب وتعليل وتقول في الجمع بين معنيين: «أكرم صاحبك فيكرمَك ويعرفْ لك فضلك» وهو عطف على المعنى. وقد تقول: ولماذا لم يُستوِّ بينهما فيجعلهما نسقاً واحداً؟ والجواب: أنهما ليسا بمرتبة واحدة في الأهمية فالصلاح أهم من الصدقة ذلك أن الذي ينجى من العذاب هو كونه من الصالحين لا كونه متصدقاً؛ فإن المؤمن قد لا يتصدق بصدقة أصلاً ومع ذلك يدخل الجنة بصلاحه فقد يكون ليس معه ما يتصدق به فالذي ينجيه من العذاب ويدخله الجنة هو أن يكون من الصالحين، والتصدق إنما يكون من الصلاح. والذي يدلك على ذلك قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾. فإنه ذكر الصلاح ولم يذكر الصدقة لأن الآية لم تقع في سياق الكلام على الأموال وإنفاقها. وذلك يدل على أن الصلاح هو مناط النجاة وأنه هو الأهم فعبر عن كونه من الصالحين بأسلوب الشرط لأنه أقوى قي الدلالة على التعهد والتوثيق فقد اشترط على نفسه أن يكون من الصالحين وقطع عهداً على نفسه بذلك. فأعطى الأهم والأولى أسلوب الشرط الدال على القوة في الأخذ على النفس والالتزام، وأعطى ما هو دونه في الأهمية والأولوية أسلوب التعليل ولم يجعلهما بمرتبة واحدة.

وقد تقول: إذا كان الأمر كذلك فلم قَدَّم الصدقة على الصلاح؟ والجواب: أن السياق هو في إنفاق الأموال فقد قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ فدعا إلى الإنفاق فكان تقديم مناسباً للمقام ثم إنه تردد في السورة ذكر الأموال والاشتغال بها وما إلى ذلك فقد جاء قبل هذه الآية قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾. فنهى عن الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله وجاء قبلها قوله في المنافقين: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. فأنت ترى أن تقديم الصدقة هو المناسب للسياق الذي وردت فيه الآية وللجو الذي تردد فيه ذكر الأموال والانشغال بها والتوصية من المنافقين بعدم إنفاقها في سبيل الخير.

وقد تقول: ولم قال: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ ولم يقل: «فأتصدق» الذي هو الأصل؟ والجواب: أن هناك أكثر من سبب يدعو إلى هذا الاختيار منها أن مقاطع «فأتصدق» أكثر من مقاطع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فإن مقاطع «فأتصدق» ستة ومقاطع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ خمسة:

فَ + أَ + تَ + ص + دَ + قَ = ستة مقاطع، فَ + أص + ص + دَ + قَ = خمسة مقاطع.

وهو قد طلب التأخير إلى أجل قريب فاختار اللفظة التي هي أقصر لتناسب قصر المدة.

ثم إن في ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ تضعيفين أحدهما في الصاد والآخر في الدال في حين أن في «فأتصدق» تضعيفاً واحداً موطنه الدال والتضعيف مما يدل على المبالغة والتكثير، ولذا كان في قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من المبالغة والتكثير في الصدقة ما ليس في «فأتصدق». فدل بذلك أنه أراد أجلاً قريباً ليكثر من الصدقة ويبالغ فيها فهذا البناء أفاد معنيين الأول: قصر المدة وذلك لأنه طلب التأخير مدة قصيرة. والآخر هو الإكثار من الصدقة في هذه المدة القصيرة فكان ذلك أنسب.



سُورَةُ الطَّلَاقِ

قال **أبو حيان**: ومناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر الفتنة بالمال والولد أشار إلى الفتنة بالنساء وأنّهنّ قد يعرضن الرجال للفتنة حتى لا يجد مخلصاً منها إلا بالطلاق فذكر أنه ينفصل منهن بالوجه الجميل بأن لا يكون بينهن اتصال لا بطلب ولد ولا حمل.

فائدة : قال **الإسكافي في (درة التنزيل)**: أكد تعالى ذكر التقوى وثمراتها بين آيات الطلاق والعِدَد في سورة الطلاق لأن أحكام الطلاق وضبط العدة من أحق الأشياء بالمراعاة وتأكيد الوصية لكثرة ما فيها من الانتصار للنفس وقصد الإضرار وتعدي حدود الله تعالى.



سُورَةُ التَّحْرِيمِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ (التحريم: ٣).

قال **ابن عاشور**: ومعنى ﴿ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أطلعه عليه وهو مشتق من الظهور بمعنى التغلب. استعير الإظهار إلى الإطلاع لأن إطلاع الله نبيه ﷺ على السر الذي بين حفصة وعائشة كانت غلبة له عليهما فيما دبرتاه فشبهت الحالة الخاصة من تآمر حفصة وعائشة على معرفة سر النبي ﷺ ومن علمه بذلك بحال من يغالب غيره فيغلبه الغير ويكشف أمره. فالإظهار هنا من الظهور بمعنى الانتصار وليس هو من الظهور ضد الخفاء، لأنّه لا يتعدى بحرف «على».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم: ٦)، وقال أيضاً: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ (النبأ: ١٢)، فقال: ﴿ شِدَادٌ ﴾، ﴿ شِدَادًا ﴾، بينما قال عن المؤمنين: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩)، فقال: ﴿ أَشِدَّآءُ ﴾.

قال **د. فاضل**: الذي يبدو لي أنّ «فُعلاء» يكاد يختص بالأمور المعنوية، و«فِعالاً» بالأمور المادية، فقال سبحانه في وصف ملائكة العذاب: ﴿ شِدَادٌ ﴾ ليدل على شدة الأجسام وضخامتها، وقال عن السماء: ﴿ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ ليدل على أنها محكمة قوية، وأمّا آية الفتح، فقال: ﴿ أَشِدَّآءُ ﴾ ليدل على الشدة المعنوية، فقد قابل بين الشدة والرحمة وهما أمران معنويان.

ومثله قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ (التوبة: ٤١)، وقوله: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ (الرعد: ١٢)، وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ (الأعراف: ٥٧)، فقال: ﴿ ثِقَالًا ﴾ للثقل المادي، بينما يُقال لمن فيهم ثقل الروح «ثقلاء».

ومثله قوله تعالى عمّا يقوله الأتباع: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ (الأحزاب: ٦٧)، فقالوا: ولم يقولوا: «كبارنا» لأنّ المقصود السادة والرؤساء «أي الكبر المعنوي وليس كبر الأجسام».

ومثله قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ (غافر: ٤٧)، ولم يقل: «الضعاف» أ.هـ.

قلتُ: قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ يحتمل الشدة في الأجرام أو في الأفعال، وكذا قوله: ﴿غِلَاظٌ﴾، فالأدق حمل أحدهما على قوة الأجرام والآخر على الشدة في الأفعال، وحمل الغلظ على الشدة المعنوية أوفق لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٨).

قال **ابن عاشور**: وسعي النور: امتداده وانتشاره. شبه ذلك باشتداد مشي الماشي وذلك أنه يحف بهم حيثما انتقلوا تنويهاً بشأنهم كما تنتشر الأعلام بين يدي الأمير والقائد وكما تساق الجياد بين يدي الخليفة. وإنما خص بالذكر من الجهات الأمام واليمين لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته وشعروا بأنه كرامة لهم، ولأن الأيدي هي التي تمسك بها الأمور النفيسة وبها بايعوا النبي ﷺ على الإيمان والنصر. وهذا النور نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين يوم القيامة. والباء للملابسة، ويجوز أن تكون بمعنى عن.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ (التحريم: ١٠).

قوله سبحانه: ﴿تَحْتَ﴾ إعلام بأنه لا سلطان للمرأة على زوجها وإنما السلطان للزوج عليها فالمرأة لا تجعل في مقابل الندية بالرجل فضلاً عن أن تعلو عليه، ففي ذلك خلاف الفطرة والشرع. أفاده **الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد**.

سُورَةُ المُلْكِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿**وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ**﴾ (الملك: ٥)، فقال: ﴿**ٱلسَّعِيرِ**﴾ ولم يقل: «جهنم» مثلاً. وكذا قال عن الجنّ: ﴿**وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ**﴾ (سبأ: ١٢)، وقال عن الشيطان: ﴿**إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**﴾ (فاطر: ٦)، تنبيهاً على أنّ نار جهنم أشدّ من نار عنصرهم، فإذا أصابتهم صارت لهم عذاباً رغم كونهم من عنصر النار «أي الجنّ والشياطين»، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ**﴾ (الملك: ١٩).

قال **ابن عاشور**: قال: ﴿**صَٰٓفَّٰتٍ**﴾ بصيغة الاسم بينها و﴿**وَيَقْبِضْنَ**﴾ بصيغة الفعل المضارع لأنّ الصف هو أكثر أحوال الطير عند الطيران فناسب الاسم الدال على الثبات وجيء في وصفهنّ بالقبض بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التجدد، أي ويجددون القبض لأجنحتهنّ في خلال الطيران للاستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك عندما يحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران، ونظيره قوله تعالى: ﴿**ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً**﴾ (ص: ١٨، ١٩)، لأنّ التسبيح في وقتين، والطير محشورة دوماً.

وقال أيضاً: قوله تعالى: ﴿**ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ**﴾ (الملك: ١٩). يفيد تصوير حالة الطيران العجيبة، فإنّ جميع الدواب تمشي على الأرض والطير كذلك، فإذا طار الطائر انتقل إلى حالة عجيبة مخالفة لبقية المخلوقات، وهي السير في الجو بواسطة تحريك جناحين، وذلك سر قوله: ﴿**يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ**﴾ بعد قوله: ﴿**وَلَا طَٰٓئِرٍ**﴾ في سورة الأنعام هو تصوير تلك الحالة.

فائدة : قال **ابن عاشور**: قوله: ﴿**صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ**﴾ أي صافات أجنحتها، فالطائر إذا طار بسط جناحيه، أي مدّهما فصف ريش الجناح فإذا تمدد الجناح ظهر ريشه

مصطفاً فكان ذلك الاصطفاف من أثر فعل الطير فوصفت به، وبسط الجناحين يمكن الطائر من الطيران فهو كمدّ اليدين للسابح في الماء، ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أي أجنحتهنّ حين يدنيننها من جنوبهنّ للازدياد من تحريك الهواء للاستمرار في الطيران.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ (الملك : ٢٩).

فقد أخر الجار والمجرور ﴿ بِهِۦ ﴾ عن الفعل ﴿ ءَامَنَّا ﴾ وقدم الجار والمجرور ﴿ وَعَلَيْهِ ﴾ على الفعل ﴿ تَوَكَّلْنَا ﴾. ذلك أن الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله، بل لا بد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقَّفُ صحةُ الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفردّه بالقدرة والعلم الأوليين الباقيين قَدَّمَ الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره، لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه، أفاده د. **فاضل**.



سُورَةُ القَلَمِ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ لنبيه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (القلم: ٨).

وذلك أبلغ في الإكرام والاحترام فإن قوله: لا تكذب ولا تحلف ولا تشتم ولا تهمز ليس هو مثل قوله: لا تطع من يكون متلبساً بهذه الأخلاق لما فيه من الدلالة على تشريفه وبراءته من تلك الأخلاق. أفاده **شيخ الإسلام ابن تيمية**.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ (القلم: ٥،٦)، فقال: ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ ولم يقل: «المجنون» مع أنه ردٌّ على اتهامهم له بالجنون كما في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وذلك لأنّ بعض المشركين إن لم يكونوا بمنزلة المجانين الذين يندفعون إلى مقاومة النبي بدون تبصر كانوا في فتنة اضطراب أقوالهم وأفعالهم كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهما الذين أغروا العامة بالطعن في النبي بأقوال مختلفة، فكان إيثار قوله: ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ ليصح فرضه للجانبين، أفاده ابن عاشور.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ (القلم: ٢٥).

في قوله: ﴿حَرْدٍ﴾ نكتة من نكت الإعجاز المتعلق بشرف اللفظ ورشاقته من حيث المعنى، ومن جهة تعلق المجرور به بما يناسب كل معنىً من معانيه، فالحرد يطلق على المنع، وعلى القصد القوي أي السرعة، وعلى الغضب، فإذا عُلِّق قوله: ﴿حَرْدٍ﴾ بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ فتقديم المتعلق ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ يفيد تخصيصاً أي قادرين على المنع، أي منع الخير أو منع ثمرة جنتهم غير قادرين على النفع، والتعبير بقادرين على الحرد دون أن يقول: وغدوا حادرين تهكم لأنّ شأن فعل القدرة أن يذكر في الأفعال التي يشق على الناس إيتيانها، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، فقوله: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ على هذا الاحتمال من باب قولهم: فلان لا يملك إلّا الحرمان أو لا يقدر إلا على الخيبة.

وإذا حمل الحرد على معنى السرعة والقصد كان ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ متعلقاً بـ ﴿وَغَدَوْا۟﴾ مبنياً لنوع الغدو، أي غدوا غدو سرعة واعتناء فتكون ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى باء المصاحبة والمعنى:

غدوا بسرعة ونشاط ويكون ﴿ قَٰدِرِينَ ﴾ حالاً من ضمير ﴿ وَغَدَوۡاْ ﴾ حالاً مقدرة أي مقدرين أنهم قادرون على تحقيق ما أرادوا. وفي الكلام تعريض بأنهم خابوا، دل عليه قوله بعده: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ وقوله قبله: ﴿ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴾.

وإذا أريد بالحرد الغضب والحنق فإنه يقال: حرد بالتحريك وحرد بسكون الراء ويتعلق المجرور بـ ﴿ قَٰدِرِينَ ﴾ وتقديمه للحصر أي غدوا لا قدرة لهم إلا على الحنق والغضب على المساكين لأنهم يقتحمون عليهم جنتهم كل يوم فتحيلوا عليهم بالتبكير إلى جذاذها أي لم يقدروا إلا على الغضب والحنق ولم يقدروا على ما أرادوه من اجتناء ثمر الجنة، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ (القلم: ٣٠، ٣١).

فيه إجمال بالغ غاية الإيجاز في تصوير حالتهم، فإقبال بعضهم على بعض يصور حالة تشبه المهاجمة والتقريع، وقوله: ﴿ يَتَلَٰوَمُونَ ﴾ مع حذف متعلق التلاوم يصور في ذهن السامع صوراً من لوم بعضهم على بعض، وقد تلقَّى كلُّ واحدٍ منهم لوم غيره بإحقاق نفسه بالملامة وإشراك بقيتهم فيها، فقال كل واحدٍ منهم: ﴿ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ إلى آخره، فأسند هذا القول إلى جميعهم لذلك، وقوله: ﴿ فَأَقۡبَلَ ﴾ أيضاً فيه تمثيل لحال العناية باللوم لأنّ حقيقة الإقبال المجيء إلى الغير من جهة وجهه وهو مشتق من القبل وهو ما يبدو من الإنسان من جهة وجهه، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (القلم: ٥١، ٥٢).

فقال: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ مع أنه يردّ على طعنهم في الرسول ﷺ بقولهم: ﴿ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴾ وذلك لأنهّم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعونه مدخلاً للطعن فيه انصرفوا إلى الطعن في صاحبه ﷺ بأنه مجنون لينتقلوا بذلك إلى أنّ الكلام الجاري

على لسانه لا يوثق به ليصرفوا دهماءهم عن سماعه، كما أنّ قولهم: ﴿ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ قد قالوه في سياق تكذيبهم بالقرءان، فإذا ثبت أنّ القرءان ذكرٌ للعالمين بطل أن يكون مبلغه مجنوناً، وهذا من قبيل الاحتباك؛ إذ التقدير: ويقولون إنه لمجنون وإنّ القرءان كلام مجنون، وما القرءان إلّا ذكر وما أنت إلّا مذكر، أفاده **ابن عاشور**.



سُورَةُ الحَاقَّةِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ (الحاقة : ٤).

قال **ابن عاشور**: عادة القرآن تقديم ذكر عاد على ثمود إلا في بعض المواضع. ومنها في سورة الحاقة فإنه قال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ (الحاقة : ٤). وسبب ذلك والله أعلم أن السورة لما ابتدأت بذكر ﴿ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ وهي التي تقرع أسماع الناس من شدة صوتها قدم ذكر ﴿ ثَمُودُ ﴾ لأن العذاب أصابهم من قبيل القرع؛ إذ أصابتهم الصواعق المسماة في بعض الآيات بالصيحة.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة : ٧)، وقال عنهم في سورة القمر: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ (القمر : ٢٠)، قال د. **فاضل**: العرب قد تؤنث للكثرة وتذكر للقلة وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ (يوسف : ٣٠)، و﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ (الحجرات : ١٤). فذكَّر ﴿ وَقَالَ ﴾ لأن النسوة قلة وأنّث ﴿ قَالَتِ ﴾ لأن الأعراب كثرة وقد تؤنث للمبالغة نحو: راوية وداهية. ويتضح من سياق الآيات ما يأتي:

١ – أنه قال في القمر: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ وقال في الحاقة: ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ فزاد في وصف الريح في الحاقة فقال: ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ فهي أشد مما في القمر. وإذا كانت كذلك كان تدميرها أكبر وأبلغ واقتلاعها أكثر. ولما زادت الريح عتواً وأمداً في الحاقة ذكر أنها استأصلتهم كلهم فلم تُبق منهم أحداً فقال: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في القمر.

٢- أن النخل المنقعر معناه الـمنخلع عن مغارسه الساقط على الأرض. ومعنى ﴿خَاوِيَةٍ﴾ خَرِبة وقيل: خَلَتْ أعجازُها بِلىً وفساداً وقيل: الخاوية معناها معنى المنقلع وقيل لها إذا انقلعت خاوية لأنها خوت من منبتها التي كانت تنبت فيه وخوى منبتها منه. فالنخل الخاوية تشمل النخل المنقعر وزيادة. فكل نخل منقعر هو خاو وليس كل خاو منقعراً فأنث الخاوية لأنه أكثر من المنقعر ولأنّ دماره أبلغ وجعلها في سياق الدمار الشامل.

سُورَةُ المَعَارِج

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ فِي سورة المعارج:** ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ (المعارج: ٩) وقال في سورة القارعة: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ (القارعة: ٥).

فزاد كلمة ﴿ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ في سورة القارعة على ما في المعارج فما سبب ذاك؟

والجواب: قال د. **فاضل**: ١- أنه لما ذكر القارعة في أول السورة و﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ من القرع وهو الضرب بالعصا ناسب ذلك ذكر النفش لأن من طرائق نفش الصوف أن يُقْرَعَ بالمقرعة كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تهشم بالمقراع «وهو من القرع» وهو فأس عظيم تُحَطَّمُ به الحجارة فناسب ذلك ذكر النفش أيضاً فلفظ ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ أنسب شيء لهذا التعبير كما ناسب ذكر ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ ذكر ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ في قوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ أيضاً لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر ولم يحسن ذكر ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ﴾ وحده كما لم يحسن ذكر ﴿ كَٱلْعِهْنِ ﴾ وحده.

وأيضاً فإنّه ذكر في سورة المعارج أن العذاب ﴿ وَاقِعٍ ﴾ وأنه ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ ووقوع الثقل على الصوف من غير دفع له لا ينفشه بخلاف ما في القارعة فإنه ذكر القرع وكرره والقرع ينفشه وخاصة إذا تكرر فناسب ذلك النفش فيها أيضاً.

ناسب ذكر العهن المنفوش أيضاً قوله في آخر السورة: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ لأن النار الحامية هي التي تذيب الجبال وتجعلها كالعهن المنفوش وذلك من شدة الحرارة في حين ذكر صفة النار في المعارج بقوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ والشوى هو جلد الإنسان والحرارة التي تستدعي نزع جلد الإنسان أقل من التي تذيب الجبال وتجعلها ﴿ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ فناسب زيادة ﴿ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ في القارعة من كل ناحية والله أعلم. كما أن ذكر النار الحامية مناسب للقارعة من ناحية أخرى ذلك أن «القَرّاعة»

وهي من لفظ القارعة وهي القداحة التي تُقدح بها النار فناسب ذكر القارعة ذكر الصوف المنفوش وذكر النار الحامية فناسب آخر السورة أولها. وبهذا نرى أن ذكر القارعة حسن ذكر ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ مع الفراش وذكر ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ مع الصوف وذكر النار الحامية في آخر السورة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ (المعارج: ١٥، ١٦)، فقال: ﴿نَزَّاعَةً﴾ ولم يقل: «نزوعاً»؛ لأنّ صيغة «فعّال» تدل على الاستمرار والتجدد والتكرار، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ (النساء: ٥٦)، قال د. **فاضل**: صيغة «فعّال» تدل على الحرفة والصناعة كقولهم: «تمّار، لبَّان، نجّار، عطّار، نقّاش، بنَّاء» وهذا يقتضي الاستمرار والتكرار، والإعادة والتجدد، والمعاناة والملازمة.



سُورَةُ نُوحٍ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٢٥، ٢٦).

قال **ابن عاشور**: قَدّم ذكر ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ على ذكر دعوة نوح عليهم ليعلم أنّ الله لا يقر عباده على الشرك بعد أن يرسل إليهم رسولاً، فليس إهلاكهم لمجرد استجابة دعوة نوح ولكن من أجل مجموع خطيئاتهم، وإنّما أخرهم إلى ما بعد دعوة نوح لإظهار كرامة نوح عند ربه بين قومه ومسرةً له وللمؤمنين معه.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ (نوح: ٢٧).

قال **ابن عاشور**: في كلام نوح دلالة على أنّ المصلحين يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر ولا يهملون تأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية؛ إذ الأجيال كلها سواءٌ في نظرهم الإصلاحي.



سُورَةُ الجِنِّ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا** ﴾ (الجن: ٢١).

قال **ابن عاشور**: في الآية إحتباك لأنّ الأصل: لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ولا ضلالاً ولا رشداً. اهـ.

قلتُ: وذكر الضر والرشد دون النفع والضلال ليدل على أنّ الضلال ضرٌ لهم في الدنيا والآخرة، وليدل على أنّ غاية مراد المؤمن هو الرشد وإن لم يصاحب ذلك نفعٌ دنيوي، فأكرم بحلاوة القرءان.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا** ﴾ (الجن: ٢٢ - ٢٤).

قال في **(الظلال)**: ﴿ **قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ** ﴾. وهذه هي القولة الرهيبة، التي تملأ القلب بجدية هذا الأمر.. أمر الرسالة والدعوة. والرسول ﷺ يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة.. ﴿ **إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ** ﴾ ملجأ أو حماية، إلا أن أبلغ هذا الأمر. وأؤدي هذه الأمانة، فهذا هو الملجأ الوحيد، وهذه هي الإجارة المأمونة. إن الأمر ليس أمري، وليس لي فيه شيء إلا التبليغ، ولا مفر لي من هذا التبليغ. فأنا مطلوب به من الله ولن يجيرني منه أحد، ولن أجد من دونه ملجأ يعصمني، إلا أن أبلغ وأؤدي! يا للرهبة! ويا للروعة! ويا للجد! وإنها ليست اللذة الذاتية في حمل الهدى والخير للناس. إنما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التلفت عنه ولا التردد فيه! وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد.. إنها تكليف وواجب وراءه الهول، ووراءه الجد، ووراءه الكبير المتعال! ﴿ **وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ**

وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾.. فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي. بعد التلويح بالجد الصارم في التكليف بذلك البلاغ. وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد، ويقيسون إلى قوة محمد ﷺ والمؤمنين القلائل معه، فسيعلمون حين يرون ما يوعدون ـ إما في الدنيا وإما في الآخرة ـ ﴿ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.. وأي الفريقين هو الضعيف المخذول القليل الهزيل!



سُورَةُ المُزَّمِّلِ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ (المُزَّمِّل: ١ - ٩).

قال في (**الظلال**): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ﴾.. إنها دعوة السماء، وصوت الكبير المتعال.. قم.. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك. قم للجهد والنصب والكد والتعب. قم فقد مضى وقت النوم والراحة.. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد.. وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه ﷺ من دفء الفراش، في البيت الهادئ والحضن الدافئ. لتدفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء. إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً. فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير.. فماله والنوم؟ وماله والراحة؟ وماله والفراش الدافئ، والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح؟! ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدّره، فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام: «مضى عهد النوم يا خديجة»! أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق! ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾.. إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة.. قيام الليل. أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه. وأقله ثلث الليل.. قيامه للصلاة وترتيل القرآن. وهو مد الصوت به وتجويده. وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذي سينزله الله عليه.. ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾.. هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف.. والقرآن في مبناه ليس ثقيلاً فهو ميسر للذكر. ولكنه ثقيل في ميزان الحق،

ثقيل في أثره في القلب: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾. فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه.. وإن تلقي هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه، لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل. وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة، لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل. وإن الاتصال بالملأ الأعلى وأرواح الخلائق الحية والجامدة على النحو الذي تهيأ لرسول الله ﷺ لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل.

وإن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفاسفها؛ والاتصال بالله، وتلقي (الفيض والنور من عنده)، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو ينزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل؛ واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي.. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير.

فائدة : قال **ابن عاشور في قوله تعالى:** ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ ﴾ (المُزَّمِّل : ١١): و﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ ﴾هنا بفتح النون باتفاق القراء وهي اسم للترفه وجمعها أنعم بفتح الهمزة وضم العين وأما النعمة بكسر النون فاسم للحالة الملائمة لرغبة الإنسان من عافية وأمن ورزق ونحو ذلك من الغائب وجمعها نعم بكسر النون وفتح العين وتجمع جمع سلامة على نعمات بكسر النون وبفتح العين لجمهور العرب وبكسر العين في لغة أهل الحجاز كسرة إتباع. والنعمة بضم النون اسم للمسرة فيجوز أن تجمع على نِعَم على أنه اسم جمع ويجوز أن تجمع على نعم بضم ففتح مثل: غرفة غرف وهو مطرد في الوزن. وجعلهم ذوي النعمة المفتوحة النون للإشارة إلى أنّ قصارى حظهم في هذه الحياة هي النعمة أي الانطلاق في العيش بلا ضيق والاستظلال بالبيوت والجنات والإقبال على لذيذ الطعوم ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والميسر وهم معرضون

عن كمالات النفس ولذة الاهتداء والمعرفة قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾. وتعريف ﴿ ٱلنَّعْمَةِ ﴾ للعهد.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ (المُزَّمِّل: ١٨).

قال **ابن عاشور**: ووصف السماء بـ ﴿ **مُنفَطِرٌۢ** ﴾ بصيغة التذكير مع أن السماء في اللغة من الأسماء المعتبرة مؤنثة في الشائع قال الفراء: السماء تذكر على التأويل بالسقف لأن أصل تسميتها سماء على أصل التشبيه بالسقف. أي والسقف مذكر والسماء مؤنث وتبعه الجوهري وابن بري. وقيل: إذا كان الاسم غير حقيقي التأنيث جاز إجراء وصفه على التذكير فلا تلحقه هاء التأنيث قياساً على الفعل المسند للمؤنث غير حقيقي التأنيث في جواز اقترانه بتاء التأنيث وتجريده منها إجراءً للوصف مجرى الفعل وهو وجيه. ولعل العدول في الآية عن الاستعمال الشائع في الكلام الفصيح في إجراء السماء على التأنيث إلى التذكير إيثاراً لتخفيف الوصف لأنه لما جيء به بصيغة منفعل بحرفي زيادة وهما الميم والنون كانت الكلمة معرضة للثقل إذا ألحق بها حرف زائد آخر ثالث وهو هاء التأنيث فيحصل فيها ثقل يُجنّبه الكلام البالغ غاية الفصاحة. ألا ترى أنّها لم تجر على التذكير في قوله: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ إذ ليس في الفعل إلا حرف مزيد واحد وهو النون إذ لا اعتداد بهمزة الوصل لأنها ساقطة في حالة الوصل فجاءت بعدها تاء التأنيث.

۞۞۞

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴾ (المدثر: ١٤، ١٥).

قال **ابن عاشور**: التمهيد مصدر مهّد، وهي تدل على قوة المهد. والمهد: تسوية الأرض وإزالة ما ينقض جنب المضطجع عليها، والتمهيد هنا مستعار لتيسير أموره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصي عليه أمر. وأكد ﴿ وَمَهَّدتُّ ﴾ بمصدره على المفعولية المطلقة ليفيد بتنكيره تعظيم ذلك التمهيد.

وقال: ﴿ أَنۡ أَزِيدَ ﴾ ولم يقل: «أن يزاد» مثلاً ولا «يطمع في الزيادة» بل قال: ﴿ أَزِيدَ ﴾ بإسناد الزيادة إلى ضمير الجلالة إدماجاً بتذكيره بأنّ ما طمع فيه هو من عند الذي كفر هو بنعمته فأشرك به غيره في العبادة.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴾ (المدثر: ٢٧ - ٣١).

قال **ابن عاشور**: ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴾.. وفيه معان كثيرة أعلاها أن يكون هذا تتمة لقوله: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ على أن يكون جارياً على طريقة الأسلوب الحكيم أي أن النافع لكم أن تعلموا أن الخبر عن خزنة النار بأنهم تسعة عشر فائدته أن يكون ذكرى للبشر ليتذكروا دار العقاب بتوصيف بعض صفاتها لأن في ذكر الصفة عوناً على زيادة استحضار الموصوف. فغرض القرآن الذكرى وقد اتخذه الضالون ومرضى القلوب لهواً أو سخرية ومراءً بالسؤال عن جعلهم تسعة عشر ولِمَ لمْ يكونوا عشرين أو مئات أو آلاف. وضمير ﴿ هِيَ ﴾ على هذا الوجه راجع إلى ﴿ عِدَّتَهُمۡ ﴾. ويجوز

أن يرجع الضمير إلى الكلام السابق وتأنيث ضميره لتأويله بالقصة أو الصفة أو الآيات القرآنية والمعنى نظير المعنى على الاحتمال الأول. ويحتمل أن يرجع إلى ﴿ سَقَرُ ﴾ وإنما تكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ باعتبار الوعيد بها وذكر أهوالها والقصر متوجه إلى مضاف محذوف يدل عليه السياق تقديره وما ذكرها أو وصفها أو نحو ذلك ويحتمل أن يرجع ضمير ﴿هِىَ﴾ إلى ﴿ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ والمعنى المعنى والتقدير التقدير أي وما ذكرها أو عدة بعضها. وجوز الزجاج أن يكون الضمير راجعاً إلى نار الدنيا أي أنها تذكر الناس بنار الآخرة يريد أنه من قبيل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾. وفيه محسن الاستخدام. وقيل المعنى وما عدتهم إلا ذكرى للناس ليعلموا غنى الله عن الأعوان والجند فلا يظلوا في استقلال تسعة عشر تجاه كثرة أهل النار. وإنما حملت الآية هذه المعاني بحسن موقعها في هذا الموضع وهذا من بلاغة نظم القرآن ولو وقعت إثر قوله: ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ لتمحض ضمير ﴿ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ ﴾ للعود إلى ﴿ سَقَرُ﴾ وهذا من الإعجاز بمواقع جمل القرآن.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر: ٤٩ – ٥١)

قال **ابن عاشور**: و﴿ قَسْوَرَةٍ ﴾ قيل هو اسم جمع قسور وهو الرامي أو هو جمع على خلاف القياس إذ ليس قياس فعلل أن يجمع على فعللة وهذا تأويل جمهور المفسرين عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهما فيكون التشبيه جارياً على مراعاة الحالة المشهورة في كلام العرب. وقيل القسورة مفرد وهو الأسد وهذا مروي عن أبي هريرة وزيد بن أسلم وقال ابن عباس إنه الأسد بالحبشية فيكون اختلاف قول ابن عباس اختلافاً لفظياً. وعنه أنه أنكر أن يكون قسور اسم الأسد فلعله أراد أنه ليس في أصل العربية وقد عده ابن السبكي في الألفاظ الواردة في القرآن بغير لغة العرب في أبيات ذكر فيها ذلك. وقال ابن سيده: القسور الأسد والقسورة كذلك أنثوة كما قالوا أسامة

وعلى هذا فهو تشبيه مبتكر لحالة إعراض مخلوط برعب مما تضمنته قوارع القرآن فاجتمع في هذه الجملة تمثيلان وإيثار لفظ ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ هنا لصلاحيته للتشبيهين.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر: ٥٦).

أعاد كلمة ﴿أَهْلُ﴾ ولم يقل: «هو أهل التقوى والمغفرة» للإشارة إلى اختلاف المعنى بين أهل الأول وأهل الثاني على طريقة إعادة فعل ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ (النساء: ٥٩)، أفاده **ابن عاشور**.

قلتُ: يعني أنّ المعنى: أنا أهل لأن أُتقَّى، فمن اتقاني فأنا أهلٌ أن أغفر له كما ورد في حديث ـ ضعيف السند ـ عند الترمذي، ولو قال: «هو أهل التقوى والمغفرة» لربما ظُنَّ أنّ المراد: هو أهل لأَنْ يتقي ولأَنْ يُغفر له، وحاشا لله ذلك.



سُورَةُ القِيَامَةِ

قال **أبو حيان**: ومناسبتها لما قبلها أن في آخر ما قبلها قوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾. وفيها تذكرة من أحوال القيامة فذكر هنا يوم القيامة وجملاً من أحوالها.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ (القِيَامَة: ١، ٢).

قال **ابن القيم**: وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة، ومحل الكسب، وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر، ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة، لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره، وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لوماً بحق، قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن، وأنها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح، ولا فلاح بدونه ألبتة، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ (القِيَامَة: ٢٠، ٢١).

قال د. **فاضل**: ثم انظر كيف اختار الفعل ﴿وَتَذَرُونَ﴾ على «تتركون» ذلك أن في ﴿وَتَذَرُونَ﴾ حذفاً وأصله «توذرون» من «وذر» ليدل ذلك على طابع العجلة في الذي يريد أن ينتهي من الشيء في أقرب وقت فاختيار هذا الفعل المحذوف الواو، مناسب لجو العجلة. وقد تقول: ولِمَ لمْ يقل: «تدعون» وهو فيه حذف كما في ﴿وَتَذَرُونَ﴾؟

والجواب ـ والله أعلم ـ: أن اختيار ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ على «تدعون» له سببه ذلك أن الفعل «وذر» في عموم معانيه يفيد الذم، ومنه قولهم: امرأة وذرة أي: يكنى به من القذف. وفي الحديث: «**شر النساء الوذرة المذرة**». بخلاف «ودع» فإن من معانيه الراحة والدعة وخفض العيش. وقد يفيد المدح ومنه قولهم: رجل وديع أي: هادئ ساكن في حين أن الموقف موقف ذم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٢، ٢٣)، فقال: ﴿ رَبِّهَا ﴾ ولم يقل: «إلاهها» لأنّ الإنعام عليهم والإلطاف بالنعم يوم القيامة أليق بصفة الرب الذي خلق ورزق ويربي خلقه باللطف والإنعام، واسم الإله ألصق بالتكليف وهو ينقطع في الجنّة. كما أنّ الرب هو الذي خلق القلوب والنفوس، وهو أعلم بقدر الإيمان فيها، وسعادتهم في نظرهم إلى ربهم على قدر إيمانهم، كما أنّ كثرة مرات هذا النظر وقلته أيضاً على قدر إيمانهم، وهذا الإيمان إنما هو محض فضل ربهم الذي خلق القلوب ورزقها الإيمان.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٥).

قال د. **فاضل**: وذكر لاختيار فعل الظن سبب آخر هو أن الظان لا يعلم نوع العقوبة، ولا مقدارها فيبقى وجلاً أشد الوجل، خائفاً أعظم الخوف من هذا الأمر الذي لا يعلم ما هو ولا مداه ولا كيف يتقيه. ألا ترى أن الذي يعلم ما سيحل به يكون مُوطناً نفسه على ذلك الأمر بخلاف الذي لا يعلم ماذا يتقي، وما مداه. وما نوع تلك الفاقرة. جاء في (**روح المعاني**): «وجيء بفعل الظن ههنا دلالة على أن ما هم فيه وإن كان غايةً في الشر إلّا أنّ ما يتوقع بعده أشد منه وهكذا أبداً.. وإذا كان ظاناً كان أشد عليه مما إذا كان عالماً موطناً نفسه على الأمر».

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ (القيامة : ٣٤، ٣٥).

بيّن د. **فاضل** وجه قوله: ﴿ فَأَوۡلَىٰٓ ﴾ دون ﴿ لَكَ ﴾ كما في الأولى ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ ﴾، فقال: جاء في «فتح القدير»: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ أي: لم يصدق بالرسالة ولا بالقرآن ولا صلى لربه.. وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. أ. هـ . ولا شك أن عدم الصلاة فهو أخف. ذلك أن المؤمن إذا قصر في الطاعات تكاسلاً فقد يغفر الله له أو يتجاوز عنه، لأنه لا يزال في دائرة الإسلام. وقد قال أكثر الفقهاء: أن المسلم إذا ترك الصلاة تهاوناً تكاسلاً غير جاحدٍ لفرضيتها لا يُخرجْه ذلك عن الإسلام. أما إذا لم يؤمن ولم يصدق فلا ينفعه شيء، وإن ضل مظاهر ولذا كانت قوة التهديد بمقابل قوة الوصف. فقال مقابل: ﴿ فَلَا صَدَّقَ ﴾ ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ ﴾. فذكر ﴿ لَكَ ﴾ ومقابل ﴿ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ ﴿ فَأَوۡلَىٰٓ ﴾. بحذف ﴿ لَكَ ﴾ إشارة إلى عظم الإيمان وأهميته، وإشارة إلى أن الصفتين المذكورتين ليستا بدرجة واحدة في الضلال. فهذا الحذف ليس للفاصلة فقط، وإن كانت الفاصلة تقتضيه أيضاً وإنما هو للمعنى وللفاصلة. أ. هـ .

قلتُ: لمّا ذكر صفتين: عدم التصديق وعدم الصلاة، كرر التهديد، فكأنه قال: فلا صدق.. أولى له، ولا صلى... أولى له.

فائدة: قال د. **فاضل السامرائي**: وجاء في «فتح القدير» في قوله: ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴾«قيل: ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات: الويل لك حياً، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار». لذا جاء بالفاء بين الأوليين لقربهما وتعجيلهما فقال: ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴾ فإن ما بين العذابين قريب، وهو عذاب الدنيا وعذاب القبر.

وكذلك جاء ما بين العذابين الأخريين بالفاء، لقربهما من بعضهما وهو ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴾ الثانية فإنهما متصلان بيوم القيامة ودخول النار. فكل عذابين قريبين من بعضهما فصل بينهما بالفاء. وقد فصل بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ للفاصل الزمني البعيد بين كل منهما.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ (القيامة : ٣٧).

قال د. **فاضل**: قوله: ﴿يَكُ﴾ حذف نون «يكن» لسببين والله أعلم:

الأول: مراعاة لجانب العجلة التي طبعت به السورة وتكررت مظاهره في أكثر من موطن، فحذف نون «يكن» للفراغ من الفعل بسرعة وهو الملائم لجو العجلة في السورة. **الثاني**: أن الإنسان لا يكون إنساناً من المني وحده حتى يراق في الرحم ويلتقي بالبويضة. فالمني والبويضة يكتمل الخلق وبهما يتم الإنسان أما المني وحده، فلا يكون منه إنسان وكذلك البويضة وحدها. فنقص من فعل الكون إشارة إلى أن التطوير المذكور في الآيات هذه لا يكون إلا بهما معاً أما المني فهو جزء من السبب ولم يتم الفعل إشارة إلى ذلك. ومعنى ﴿يُمْنَىٰ﴾: يراق في الرحم، فإن لم يمن فلا تكوين. وهذا من مواطن الحذف البديعة.





۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ (الإنسان: ٤).

قال **ابن عاشور**: وأصل ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ أي أعددنا بدالين أي هيئنا للكافرين؛ يقال: أعتد كما يقال أعد قال تعالى: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾. وقد تردد أئمة اللغة في أن أصل الفعل بدالين أو بتاء ودال فلم يجزموا بأيهما الأصل لكثرة ورود فعل أعد وفعل أعتد في الكلام. والأظهر أنهما فعلان نشئا من لغتين غير أن الاستعمال خص الفعل ذا التاء بعدة الحرب فقالوا: عتاد الحرب ولم يقولوا: عداد. وأما العدة بضم العين فتقع على كل ما يعد ويهيأ يقال: أعد لكل حال عدة ويطلق العتاد على ما يعد من الأمور. والأكثر أنه إذا أريد الإدغام جيء بالفعل الذي عينه دال وإذا وجد مقتضى فك الإدغام لموجب مثل ضمير المتكلم جيء بالفعل الذي عينه تاء.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (الإنسان: ٤، ٥)، فلما ذكر الكفار ذكر ما أعدّ لهم فقال: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ ولم يقل: «إنا أعتدنا للأبرار كذا وكذا» ولا قال: «إنّ الكافرين لهم كذا وكذا». وقال مع الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ﴾، وفي ذلك دقة بالغة؛ إذ في الآية ـ والله أعلم ـ احتباك، ويكون مراد الكلام «إنا أعتدنا للكافرين سلاسلاً وأغلالاً وسعيراً ـ ويذوقون فيها أشدّ ألوان العذاب ـ وإنّا أعتدنا للأبرار جنات النعيم ـ يشربون فيها من كأسٍ كان مزاجها كافوراً» فحذف الجملة الثانية ودلّ عليها بالجملة الرابعة وحذف الجملة الثالثة ودلّ عليها بالجملة الأولى.

ويلاحظ أنه قال: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ بناء الفاعلين للدلالة على عظيم ما أعدّ سبحانه للكفار من السلاسل والأغلال وأنواع العذاب والسعير.

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ (الإنسان: ١١)، فقال: ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ ﴾ ولـم يقل: «أعطاهم» ليدل على أنّ هذه النضرة في الوجوه وهذا السرور في القلب إنما يكون أعظم ما يكون ويزداد بلقاءهم ربهم، كما في الحديث أنهّم إذا زاروا ربهم ثمّ عادوا إلى أهليهم يـجدون أهليهم قد ازدادوا جـمـالاً ويـجد أهلهم كذلك.

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الإنسان: ١٢)، فقال: ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ بعد قوله: ﴿ جَنَّةً ﴾ لحكمةٍ عظيمة ـ وهي والله أعلم ـ أنّ مجرد دخول الجنة ولو أن يكون المرء خادماً فيها، فضل عظيم، وهل أعظم من النجاة من النار؟!! فإذا كان من ساكني الجنّة فهذا فضل زائد، فإذا كان مالكاً فهذا فضل زائد، فإذا كان ملكاً فهذا هو الفضل العظيم، وكل أهل الجنّة ملوك، فلما قال: ﴿ جَنَّةً ﴾ احتمل أن يكون خادماً أو مجرد ساكن أو مالكاً، فلما قال: ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ دل على أنهّم فيها ملوك. اللهمّ إنا نرضى بمجرد دخول الجنة ولكن لا تعذبنا بالنار!! ولكن لا غنى بنا عن فضلك ورحمتك في أن تجعلنا من ملوك الجنة بلا عذاب ولا حساب!!

ومن أراد أن يعلم عظيم الفضل في مجرد الزحزحة عن النار ودخول الجنة، فليقرأ ما ورد في حديث آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً فيها، وكيف أنه طلب من ربه مجرد صرف وجهه عن النار ثمّ مجرد القرب من الجنة ثمّ مجرد دخول الجنة، ولعلّ الله قدّر وقوع ذلك قبل دخوله الجنّة واستقراره فيها ليعلم أهل الجنة ـ وهو منهم ـ عظيم الفضل في دخول الجنة.

فائدة: ذكر نعيم أهل الجنة آيةً آيةً دون أن يذكر ذلك في آية واحدة دليل على أنّ مجرد دخول الجنة نعمة عظيمة، وأنّ كل نعيم فيها فضل كبير، ولذا ورد بعد ذكر كل مظهر من مظاهر نعيم الجنة في سورة الرحمن قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ (الإنسان: ١٥، ١٦)

قال د. **فاضل**: فأطلق ﴿ قَوَارِيرَا۠ ﴾ الأولى بالألف وكان حقها ألا تطلق لأنها ممنوعة من الصرف ومن دواعي ذلك ـ والله أعلم ـ أنه أطلق الصوت فيها مناسبة لإطلاق جنسها ونوعها فهو لم يبين نوع القوارير ولا من أي جنس هي فأطلقها لذلك. ولما قيد جنسها في الآية التي تليها فقال: ﴿ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ ﴾ لم يُطْلِقْها.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (الإنسان : ٢١).

قال **أبو حيان**: لما كان قوله: ﴿ خُضْرٌ ﴾ يدل على الخضرة وهي لون ذلك السندس وكانت الخضرة مما يكون لشدتها دهمة وغبش أخبر أن في ذلك اللون بريقاً وحسناً يزيل غبشته ﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ (الإنسان : ٢٤).

قال **ابن عاشور**: أمر الله رسوله بالصبر على أعباء الرسالة وما يلقاه فيها من أذى المشركين وشدّ عزيمته ألّا تخور، وسمى ذلك حكماً لأن الرسالة عند الله لا خيرة للمرسل في قبولها والاضطلاع بأمورها ولأن ما يحف بها من مصاعب إصلاح الأمة وحملها على ما فيه خيرها في العاجل والآجل وملاقاة أصناف الأذى في خلال ذلك حتى يتم ما أمر الله به كالحكم على الرسول بقبول ما يبلغه وبذل منتهى الطاقة إلى أجل معين عند الله. وعدَّى فعل ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ باللام لتضمين الصبر معنى الخضوع والطاعة للأمر الشاق.

❁❁❁

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴾ (المُرسَلات: ٨ - ١١).

قال **ابن عاشور**: كررت كلمة ﴿ وَإِذَا ﴾ في أوائل الجمل المعطوفة على هذه الجملة بعد حروف العطف مع إغناء حرف العطف عن إعادة «إذا» كما في قوله: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ (القيامة: ٧ - ١٠)، لإفادة الاهتمام بمضمون كل جملة من هذه الجمل ليكون مضمونها مستقلاً في جعله علامةً على وقوع ما يوعدون. وبناء هذه الأفعال الثلاثة بصيغة المبني للمجهول لأنّ المقصود الاعتبار بحصول الفعل لا بتعيين فاعله على أنه من المعلوم أنّ فاعلها هو الله تعالى؛ إذ لا يقدر عليه غيره.

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴾ (المُرسَلات: ٣٥، ٣٦).

قال **ابن عاشور**: وعطف ﴿ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴾ على جملة ﴿ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي لا يؤذن إذناً يتفرع عليه اعتذارهم أي لا يؤذن لهم في الاعتذار فالاعتذار هو المقصود بالنفي وجعل نفي الإذن لهم توطنة لنفي اعتذارهم ولذلك جاء ﴿ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴾ مرفوعاً ولم يجيء منصوباً على جوانب النفي إذ ليس المقصود نفي الإذن وترتب نفي اعتذارهم على نفي الإذن لهم إذ لا محصول لذلك؛ فلذلك لم يكن نصب ﴿ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴾ مساوياً للرفع بل ولا جائزاً بخلاف نحو ﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ ﴾ فإن نفي القضاء عليهم وهم في العذاب مقصود لذاته لأنه استمرار في عذابهم ثم أجيب بأنه لو قضى عليهم لماتوا أي فقدوا الإحساس فمعنى الجوابية هنالك مما يقصد. ولذا فلا حاجة هنا إلى ما ادعاه أبو البقاء أن ﴿ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴾ استئناف تقديره فهم يعتذرون ولا إلى ما قاله ابن عطية تبعاً للطبري إنه لم ينصب لأجل تشابه رؤوس الآيات. وبعد فإن مناط النصب في جواب النفي قصد المتكلم جعل الفعل جواباً للنفي لا مجرد وجود فعل مضارع بعد فعل منفي.

سُورَةُ النَّبَإِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ (النَّبَإِ: ٢٧)، فقال ﴿ يَرْجُونَ ﴾ ولم يقل «يتوقعون» ولا «يرقبون» مع أنّ الرجاء اشتهر في ترقب الأمر المحبوب، والحساب ليس خيراً لهم حتى يُجعل من قبيل نفي الرجاء، فكان الظاهر أن يعبر عن ترقبه بمادة التوقع الذي هو ترقب الأمر المكروه، ووجه العدول عن ذلك هو التعريض بالمسلمين الذين يرجون يوم الحساب ويترقبونه ترقب رجاء، فكان نفي رجاء يوم الحساب عن المشركين جامع بصريحه معنى عدم إيمانهم بوقوعه وبكنايته رجاء المؤمنين وقوعه بطريقة الكناية التعريضية تعريضاً بالمسلمين، وهي أيضاً تلويحية لما في لازم مدلول الكلام من الخفاء. وقال ﴿ كَانُوا۟ ﴾ ليدل على أنّ انتفاء رجائهم الحساب وصف متمكن من نفوسهم وهم كائنون عليه، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ (النَّبَإِ: ٣٦)، فقال ﴿ رَّبِّكَ ﴾ للإيماء إلى أنّ جزاء المتقين بذلك يشتمل على إكرام النبي ﷺ لأنّ إسداء هذه النعم إلى المتقين كان لأجل إيمانهم به وعملهم بما هداهم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ (النَّبَإِ: ٤٠)، فقال: ﴿ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ولم يقل: «ينظر إلى» ليضمنها فعل «يتبين» وهو لا يتعدى، ولم يقل: «يتبين» ليدل على أنّ هذا التبين إنما يكون بالنظر إلى عمله مسطوراً مكتوباً، فكأنه قال: «ينظر إلى ما كتب من عمله ويتبين حقيقة ما قدمت يداه»، فاللهمّ استرنا في الدنيا والآخرة!! ولا تجعلنا ممّن عمل أعمالاً ظنها صالحة، فإذا به يتبين حقيقتها الطالحة الفاسدة يوم القيامة!! ومن منا سلم من الرياء والعجب أو المنّ والأذى!!

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴾ (النَّازِعَاتِ : ١).

قال **الشيخ عطية سالم**: النازعات جمع نازعة، والنزع: جذب الشيء بقوة من مقره، كنزع القوس من كبده، والإغراق المبالغة، والاستغراق الاستيعاب. أ.هـ.

قلتُ: فعلى القول المختار ـ والله أعلم ـ وهو أنّ النازعات: هي الملائكة تنزع أرواح الكافرين بشدة، يكون في الآية الدلالة على المبالغة والقوة في نزع أرواح الكافر، وتدل كذلك على استيعاب النزع والألم والشدة والعذاب لكل مفصل وكل عرق وكل جزءٍ، فياله من عذابٍ!! ويا لها من شدة!! اللهمّ توفنا على الإسلام!! اللهمّ آمين!!

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴾ (النَّازِعَاتِ : ٢).

قال **الشيخ عطية سالم**: قيل أصل الكلمة: النشاط والخفة، والأنشوطة: العقدة سهلة الحل، ونشطة بمعنى ربطة، وأنشطه حلّه بسرعة وخفه، ومنه قوله ﷺ: «**فكأنما أنشط من عقال**». اهـ.

قلتُ: فعلى القول المختار ـ والله أعلم ـ وهو أنّ الناشطات: هي الملائكة تنزع أرواح المؤمنين، يكون في الآية الدلالة على سهولة خروج روح المؤمن وخفة معالجة الملائكة لخروجها، وتدل كذلك على نشاط أرواح المؤمنين عند النزع، وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ هو ما تُبشَّر به من الروح والرضوان، ولما تعانيه من علامات الرضا والقبول.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ** عن الكفار: ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴾ (النَّازِعَاتِ : ١٠ - ١٢)، ذكر قولهم الأول بقوله ﴿ يَقُولُونَ ﴾، وقولهم الثاني بقوله ﴿ قَالُواْ ﴾، وذلك لأنّ غرض قولهم الأول الإنكار والإبطال، وهو

حجة ناهضة في زعمهم، فكان يتكرر منهم في كل مقام، فكان الفعل المضارع أدلّ على ذلك، وأمّا مقالتهم الثانية فإنّ غرضهم منها الاستهزاء، لأنهم لا يؤمنون بتلك الكرة فوصفهم إياها بـ ﴿ خَاسِرَةٌ ﴾ من باب الفرض والتقدير، أي لو حصلت كرة لكانت خاسرة، فذكرها بصيغة الماضي للدلالة على أنها لا تتكرر منهم. وكرر ذكر القول فقال ﴿ يَقُولُونَ ﴾، ﴿ قَالُواْ ﴾ للدلالة على اختلاف الغرض بكل قول، ولدفع توهم أن تكون جملة ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ استئنافاً من جانب الله تعالى، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات: ٤٠، ٤١)

قال في **(الظلال)**: ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان وكل تجاوز وكل معصية وهو أساس البلوى وينبوع الشر وقَلَّ أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى فالجهل سهل علاجه ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها.

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة، فالذي (يتكلم) هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها الخبير بدوائها. وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها ويعلم أين تكمن أهوائها وأدواؤها وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها. ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها وأن يستعين في هذا بالخوف؛ الخوف من مقام ربه الجليل العظيم. وكتب له بهذا الجهاد الشاق الجنة مثابة ومأوى ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى.

إن الإنسان إنسان بهذا النَّهي وبهذا الجهاد وبهذا الارتفاع، وليس إنساناً بترك نفسه لهواها. وإطاعة جواذبه إلى دركها بحجة أن هذا مركب في طبيعته. فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه ونهي النفس عنه ورفعها عن جاذبيته وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى.

وهناك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة والتصرف بها في توازن. وهناك حرية حيوانية: هي هزيمة الإنسان أمام هواه وعبوديته لشهوته وانفلات الزمام من إرادته وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداءاً زائفاً من الحرية!

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى وتهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة في درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته ويَرْتد شيئاً توقد به النار التي وقودها الناس ـ من هذا الصنف ـ والحجارة.

وهذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة الأشياء.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ (النازعات : ٤٦).

تنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها. أفمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة؟ ألا إنها الحماقة الكبرى التي لا يرتكبها إنسان يسمع ويرى. أفاده في **(ظلال القرآن)**.

❁❁❁

سُورَةُ عَبَسَ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ (عبس: ١، ٢)، فقال: ﴿ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ لبيان عذره في تكرار سؤاله لرسول الله مع أنه ﷺ كان مشغولاً بمحادثة غيره، وهو أنه لم ير ذلك، ويحتمل كذلك ذكر وصفه الذي يوجب العطف عليه والرفق به، لأنه قد يقال: إن كان لم ير فإنه كان يسمع محادثة الرسول للمشركين، ويحتمل أن يكون وصفه هكذا من أجل التعريض بغيره من صناديد المشركين، لكفرهم رغم وجود حاسة البصر عندهم، ويحتمل أن يكون وجه التعريض هو أنّهم مع كونهم يبصرون رسول الله، فها هو عبد الله بن أمّ مكتوم يؤمن بالحق مع كونه لا يرى وجه رسول الله، ذلك الوجه الذي ليس بوجه كذاب ولا مفترٍ، ولذا صدّقه ابن سلام لمّا رآه.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس: ٣٤ - ٣٧) بينما قال في سورة المعارج: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ (المعارج: ١١ - ١٤).

قال د. **فاضل**: بدأ في سورة عبس بذكر الأخ فالأم فالأب فالصاحبة ثم الأبناء في الأخير وفي سورة المعارج على عكس ذلك فقد بدأ بالأبناء فالصاحبة فالأخ فالفصيلة ثم انتهى بأهل الأرض أجمعين. وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ أن المقام في عبس مقام الفرار والهرب قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ ﴾ والإنسان يفر من الأباعد أولاً ثم ينتهي بألصق الناس به وأقربهم إليه فيكونون آخر من يفر منهم والأخ أبعد المذكورين في الآية من المرء وإنّ ألصقهم به زوجه وأبناؤه. فنحن ملتصقون في حياتنا بأزواجنا وأبنائنا أكثر من التصاقنا بإخواننا وآبائنا وأمهاتنا فقد تمر شهور بل ربما أعوام ونحن لا

نرى إخواننا في حين نأوي كل يوم إلى أزواجنا وأبنائنا. والإنسان قد يترك أمه وأباه ليعيش مع زوجه وأبنائه وهو ألصق بأبنائه من زوجه فقد يفارق زوجه ويسرحها ولكن لا يترك ابنه فالأبناء آخر من يفر منهم المرء ويهرب. وهكذا رتب المذكورين في الفرار بحسب العلائق فأقواهم به علاقة هو آخر من يفر منه فبدأ بالأخ ثم الأم ثم الأب وقدم الأم على الأب ذلك أن الأب أقدر على النصر والمعاونة من الأم وهو أقدر منها على الإعانة في الرأي والمشورة وأقدر منها على النفع والدفع، فالأم في الغالب ضعيفة تحتاج إلى الإعانة بخلاف الأب. والإنسان هنا في موقف خوف وفرار وهرب فهو أكثر التصاقاً في مثل هذه الظروف بالأب لحاجته إليه؛ ولذا قدم الفرار من الأم على الفرار من الأب وقدم الفرار من الأب على الفرار من الزوجة لمكانة الزوجة من قلب الرجل وشدة علاقته بها فهي حافظة سره وشريكته في حياته ثم ذكر الفرار من الأبناء في آخر المطاف ذلك لأنه ألصق بهم وهم مرجوون لنصرته ودفع السوء عنه أكثر من كل المذكورين، أما السياق في سورة المعارج فهو مختلف عما في عبس ذلك أنه مشهد من مشاهد العذاب الذي لا يطاق فقد جيء بالمجرم ليقذف به في هذا الجحيم المستعر وهذا المجرم يود النجاة بكل سبيل ولو أدى ذلك إلى أن يبدأ بابنه فيضعه في درجات لظى فرتب المذكورين ترتيباً آخر يقتضيه السياق وهو البدء بالأقرب إلى القلب والأعلق بالنفس فيفتدي به فضلاً عن الآخرين.

ثم إن اختيار كلمة «مرء» أنسب من كلمة «رجل» أيضاً؛ ذلك أن ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ يشمل الصغار والكبار فهي أعم من كلمة «رجل» التي تشمل الكبار من هذا الجنس (كما) أن مشهد الفرار ينتظم الثقلين أجمعين. فانظر كيف اختار كلمة «مرء» بدل «إنسان» و«رجل» لاعتبارات متعددة فهي أعني ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ تعني الإنسان وتعني الرجل ثم هي لا تخص رجال الإنس بل تعمهم وتم رجال الجن ولا تختص الكبار بل تشمل الكبار والصغار.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ** عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (التَّكْوِيرِ: ١٩، ٢٠)، قال **ابن عاشور**: ذكر ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ بين قوله ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، وقوله ﴿مَكِينٍ﴾ دون أن يقول: «إنه لقول رسولٍ كريم عند ذي العرش ذو قوة ومكين» ليتنازعه كلا الوصفين على وجه الإيجاز، أي هو ذو قوة عند الله، أي جعل الله مقدرة جبريل تخوله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به ممّا يحتاج إلى قوة القدرة وقوة التدبير، وهو ذو مكانة عند الله وزلفى.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التَّكْوِيرِ: ١٩ – ٢١)

قال **الشيخ عطية سالم**: في قوله: ﴿مَكِينٍ﴾ نصٌ في تمكينه من حفظ ما أرسل به وصيانته عن التغيير والتبديل، وفي قوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ بيان أنه مطاع لا يؤثر عليه غيره، وفي قوله: ﴿أَمِينٍ﴾ بيان أنه لا يخون ولا يبدل، فكان القرءان مصوناً من أن يتسلط أحدٌ عليه فيغيره، ومن أن يغيره الذي جاء به.



سُورَةُ الانفِطَار

۞ **قَالَ تعَالَىٰ:** ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ (الانفطار: ١٣، ١٤)، فقال: ﴿ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ على جمع القلة وقال: ﴿ ٱلْفُجَّارَ ﴾ على جمع الكثرة، بينما قال: ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (عبس: ١٥، ١٦)، فقال: ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ على جمع الكثرة، قال د. **فاضل**: لمّا كان الأبرار قلة إذا قيسوا بالفجار، فقال: ﴿ ٱلْفُجَّارَ ﴾ على جمع الكثرة، و﴿ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ على جمع القلة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٣)، وقال: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ (الأنعام: ١١٦)، وأمّا آية عبس فقال: ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ على جمع الكثرة لأنّ الملائكة كلهّم كذلك بخلاف البشر. أ.هـ.

قلتُ: ويحتمل كذلك أن يكون وجه قوله: ﴿ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ على جمع القلة الدلالة على أنّ البار قد لا يخلو من ارتكاب من اللمم، ففي برّه نوع قلة بالنسبة إلى ما هو أكمل إلّا أنّه في نعيم، وأمّا الملائكة فبرهم غير مشوب بمعصيةٍ أصلاً ولا حتى إرادتها، فجيء بجمع الكثرة ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ للدلالة على كثرة هذا البر. ويحتمل كذلك أن تدل كلمة ﴿ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ على أنّ برّ المرء وإن كان قليلاً سينفعه ويكون سبباً لتنعمه ولا يشترط كمال البر طالما كان المرء مسلماً.

فائدة: قال د. **فاضل**: أمثلة جمع القلة «أفعُل» كأشهر، و«أفعال» كأشياخ، و«أفعِلة» كأغربة، و«فِعْلة» كَشِيْخة وفِتْية، وزاد الفراء «فَعَلة» كقوله: «هم أكَلَة رأسي» وردّه بعضهم بأنّ القلة مفهومة من قرينة شبعهم بأكل رأسٍ واحد لا من إطلاق فَعَلة، ونقل التبريزي أنّ منها «أفعلاء» كأصدقاء، غير أنّ الجمهور على الأمثلة الأولى الأربعة.

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ (البقرة: ١٩٧)، وقال: ﴿ **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ** ﴾ (البقرة: ٢٣٤)، وقال: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ (التوبة: ٥)، فقال: ﴿ أَشْهُرٌ ﴾ وهو جمع قلة بينما قال: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ (التوبة: ٣٦)، فقال: ﴿ ٱلشُّهُورِ ﴾ لأنّ السياق في هذه الآية الأخيرة عن جميع الشهور بخلاف الآيات السابقة.

سُورَةُ الانشِقَاقِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾ (الانشقاق: ١٦ – ١٩).

قال **ابن عاشور**: مناسبة الأمور المتسم بها هنا للمقسم عليه أنّ الشفق والليل والقمر تخالط أحوالاً بين الظلمة وظهور النور معها أو في خلالها، وذلك مناسب لما في قوله ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ من تفاوت الأحوال التي يتخبط الناس فيها يوم القيامة أو في حياتهم، أو من ظهور أحوال خير في خلال شر أو انتظار تغير الأحوال إلى ما يرضيهم إن كان الخطاب للمسلمين خاصةً. ولعلّ ذكر الشفق إيماء إلى أنه يشبه حالة انتهاء الدنيا لأنّ غروب الشمس مثل حالة الموت، وذكر الليل إيماء إلى شدة الهول يوم الحساب وذكر القمر إيماء إلى حصول الرحمة للمؤمنين.



سُورَةُ البُرُوجِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ **وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ** ﴾ (البُرُوجِ : ١٤، ١٥).

قال في **(الظلال)**: أما الود.. فيتصل بموقف المؤمنين، الذين اختاروا ربهم على كل شيء. وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم. حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونه إلى مرتبة ودرجة الود من الله لأودائه وأحبائه المقربين.. فماذا تكون الحياة التي ضحوا بها وهي ذاهبة؟ وماذا يكون العذاب الذي احتملوه وهو موقوت؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب؟

إن عبيداً من رقيق هذه الأرض. عبيد الواحد من البشر، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه، أو لمحة رضاء تبدو في وجهه.. وهو عبد وهم عبيد.. فكيف بعباد الله. الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل، الله ﴿ **ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ** ﴾ العالي المهيمن الماجد الكريم؟ ألا هانت الحياة. وهان الألم. وهان العذاب. وهان كل غال عزيز، في سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد.



سُورَةُ الأَعْلَى

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (الأعلى: ٨)، فقال «نيسرك لليسرى» مع أنّ ظاهر النظم أن يقال «ونيسر اليسرى لك»، ولكن عدل إلى ما جاء النظم عليه تنزيلاً للشيء الميسر له، والعكس للمبالغة في ثبوت فعل التيسير للرسول ﷺ على طريقة القلب المقبول، كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الأعلى: ١٦)، ولم يذكر المؤثر عليه وذلك للدلالة على حقارة ودناءة الدنيا، حتى أنّ مجرد إيثارها مذموم بغض النظر عن ذكر المؤثر عليه، وإن كان المراد معلوماً، وهو إيثارها على الآخرة.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ (الغاشية: ١١، ١٢)، فذكر الصفتين دون واو بينهما، قال **ابن عاشور**: إنما لم تعطف الجملتان لاختلافهما بالفعلية في الأولى (أي الجملة الأولى فعلية) والاسمية في الثانية، وذلك الاختلاف من محسنات الفصل، ولأنّ جملة ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴾ مقصود منها التنزه عن النقائص، وجملة ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ مقصودٌ منها إثبات بعض محاسنها.

۞۞۞

سُورَةُ الفَجْرِ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ (الفَجْرِ: ١٠ - ١٤).

قال في (**الظلال**): ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾.. وهي على الأرجح الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان. وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار.

هؤلاء هم ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾.. وليس وراء الطغيان إلا الفساد. فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء. كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة. ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.. إنه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ عندما أفسده طغيانه، فتجادر به مكان العبد المخلوف، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحقد الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية. والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة. وميداناً للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك. وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد.. ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة، لأنها خطر على الطغاة والطغيان. فلابد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازيين، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة.. وهو فساد أي فساد.

فلما أكثروا في الأرض الفساد، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾. فربك راصد لهم ومسجل

لأعمالهم. فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط وبفيضه وغمره ... حين يذكر الصب حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد.

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾. تفيض طمأنينة خاصة. فربك هناك. راصد لا يفوته شيء. مراقب لا يند عنه شيء. فليطمئن بال المؤمن، ولينم ملء جفونه. فإن ربك هناك!.. بالمرصاد.. للطغيان والشر والفساد! وهكذا نرى هنا نماذج من قدرة الله في أمر الدعوة، غير النموذج الذي تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود. وقد كان القرآن. ولا يزال يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك وفق الحالات والملابسات. ويَعُدُّ نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء. لتطمئن على الحالتين. وتتوقع الأمرين. وتكل كل شيء لقدر الله يجريه (كيف) يشاء.

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الفَجْر : ١٧، ١٨)، فقال ﴿ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ ولم يقل «إطعام» ولا «إعطاء طعام» مثلاً ليشمل المعنيين بلفظة واحدة، فإنّ كلمة «طعام» تحتمل أن تكون ـ كما قال **ابن عاشور** ـ اسماً بمعنى المطعوم، والتقدير: لا تحضون على إعطاء طعام المسكين، وتحتمل أن تكون اسم مصدر أطعم والمعنى: ولا تحضون على إطعام المساكين، وهذه دقة قرءانية عظيمة.

وهاهنا فائدة بليغة أخرى، أفادها **ابن عاشور**: وهي أنّ في الآية احتباكاً، لأنّه لمّا نفى إكرام اليتيم وقوبل بنفي الحض على طعام المسكين، عُلم أنهم لا يحضون على إكرام أيتامهم، وعلم أنهم لا يطعمون المساكين من أموالهم، فكأنه قال «بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على ذلك ولا تطعمون المساكين ولا تحضون على ذلك»، فأكرم بحلاوة القرءان العظيم!!!

سُورَةُ البَلَدِ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (البَلَد: ١ - ٤).

قال: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ ولم يقل: ﴿أُقْسِمُ﴾، فقيل: ﴿لَآ﴾ زائدة للتأكيد والتعظيم، والمعنى: ﴿أُقْسِمُ﴾، وقيل: ﴿لَآ﴾ نافية، أي: لا أقسم بهذا البلد في حين أنك مستحَلٌّ قتلك في هذا البلد. أو لا أقسم به وقد جاء أهله بأعمالٍ تستحلُ حرمتهم وتبيح لك الوقيعة بهم. وعلى معنى أنّ القسم مراد، فإنه يكون قد أقسم بهذا البلد لما جمعت من الشرفين شرفها بإضافتها إلى الله تعالى وشرفها بحضور رسول الله ﷺ وإقامته فيها، والأول **نقله ابن عطية والرازي، والثاني ذكره في البحر المحيط**.

قال في **(الكشاف)** في وجه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (البَلَد: ٤)؛ قال ومن المكابدة أنّ مثلك على عظم حرمتك يُستحلُّ بهذا البلد الحرام كما يُستحل الصيد في غير الحرم، وعن شرحبيل: يحرمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة ويستحلُّون إخراجَك وقتلك، وذكر مثله في «**روح المعاني**».

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ (البَلَد: ١، ٢).

وفيها عدة فوائد:

١- قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ﴾ ولم يقل: «وأنت حال» ولا «مقيم»، وفائدة ذلك الدلالة على عدة معانٍ في آنٍ واحدٍ كلها مرادة مطلوبة؛ فإنّ كلمة ﴿حِلٌّۢ﴾ تأتي بمعنى الحال والمقيم، وتأتي بمعنى المستَحَلّ «اسم مفعول»، وتأتي بمعنى الحلال ضد الحرام، وتأتي بمعنى البراءة، وكلها معاني صحيحة، فرسول الله ﷺ حالٌّ مقيمٌ بالبلد الحرام وقت نزول هذه الآيات، وهو كذلك بريءٌ من أفعال المشركين وآثامهم «يقال: أنا في حلٍ من هذا أي بريٌ منه»، وقد كان مستحلَّ الدم والقتل فيها من المشركين ـ لعنهم الله ـ وقد

مكنّه اللهُ بعدُ من أهل مكة وأحلّ له ربه يوم الفتح من الأسر والقتل ما لا يحلُّ لغيره، وهذا على الاستقبال وعلى الوعد بنصره، أفاده بمعناه د. **فاضل السامرائي**.

٢- تكريره قوله: ﴿ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ وذلك لفوائد منها: أنّ العرب إذا عُنيت بلفظٍ كررته كأن يكون ذلك في موطن التشويق أو التحسر أو التعظيم أو التهويل وغير ذلك من مواطن العناية والاهتمام كقول الشاعر:

يـا موقـد النـار بالهنـديِّ والغـارِ ... هيّجـت لي حَزَنـاً يـا مُوقـد النـارِ

فكرر «يا موقد النار»، ومثله قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ (الحاقة: ١، ٢)، وقوله تعالى: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ١، ٢)، فالتكرير في قوله: ﴿ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ لتعظيم بلد الله الحرام.

ومنها: أنّ المقصود بالثاني ﴿ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ غير المقصود بالأول، فالبلد الأول قُصِد به وصف لم يحصل في الثاني وهو مكة، فقوله الأول: ﴿ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ أي البلد المحرم الذي جبلت على تعظيمه قلوب العرب، فالبلد في الأول محرم، وفي الثاني قال: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ أي أحلّ لك ما لم يُحلّ لأحدٍ غيرك وهو القتل والأسر في البلد الحرام، فالبلد في الثاني محلل لرسول الله ﷺ، أفادها د. **فاضل السامرائي نقلاً منه لما جاء في درة التنزيل وملاك التأويل**.

قال د. **فاضل: قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ ولم يقل: «يكابد» أو «مكابداً» ونحوه؛ ذلك أن ﴿ فِى ﴾ تفيد الظرفية والوعاء. «ومعناه: أن الإنسان خلق مغموراً في المشاق والشدائد والصعاب منغمساً فيها كما ينغمر الشيء في الماء وكما يكون الشيء في الوعاء». فالشدائد والمشاق تحيط بالإنسان لا تنفك عنه إلى أن يموت. وبعد الموت إما أن يجتاز العقبة، فيدخل الجنة فتزول عنه الشدائد والمصائب، وإما أن لا يجتازها فيبقى في المشقات والشدائد أبد الأبدين منغمراً في النار وهو أكبر الشدائد وأعظمهمن.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾** (البلد: ٦).

قال د. **فاضل**: وقد عبر عن الإنفاق بالإهلاك، فإنه لم يقل: «أنفقت مالاً» كما هو الشائع في استعمال القرآن الكريم. واختيار تعبير الإهلاك في هذا الموطن أحسن اختيار وأجمله، فإنه المناسب لجو السورة وذلك أنه مناسب لجو المشاق والشدائد التي تؤدي إلى الهلاك وتفضي إليه. وهو مناسب مع ما يعانيه الرسول وأصحابه في البلد الحرام من الشدائد والمحن التي قد أدت ببعضهم إلى الهلاك كياسر وسمية، ومتناسب مع حسبان الإنسان أن لن يقدر عليه أحد فيهلكه، ومتناسب مع ذكر العقبة التي قد تفضي إلى الهلاك ومتناسب مع ذوي المسبغة من اليتامى والمساكين وهلاكهم من الجوع إن لم يطعموا ومتناسب مع خاتمة أصحاب المشأمة التي هي هلاك مقيم.

وعَبَّر عن الإنفاق بالإهلاك لأسباب أخرى غير هذه جاء في «**روح المعاني**»: وعبر عن الإنفاق بالإهلاك إظهاراً لعدم الاكتراث وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع فكأنه جعل المال الكثير ضائعاً. وجاء في «**التبيان**»: ثم أنكر سبحانه على الإنسان قوله: ﴿ **يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا** ﴾ وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه إذ لو أنفقه في وجوهه التي أُمِرَ بإنفاقه فيها ووضعه مواضعه لم يكن ذلك إهلاكاً له بل تَقرُّباً إلى الله وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه وذلك ليس بإهلاك له فأنكر سبحانه افتخاره وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه بها إهلاك له. أ. هـ.

وقال د. **فاضل** أيضاً: واختيار «اللبد» في الآية مكان «الكثير» اختيار دقيق ذلك أن اللبد معناه الكثير المجتمع من تلبد الشيء إذا اجتمع. وهو متناسب مع اجتماع الكفرة لإيذاء الرسول والمسلمين لصدهم عن دعوتهم كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴾ (الجن: ١٩). فاجتماع المال في الإهلاك مناسب لاجتماع

الكفرة على الرسول لإهلاكه وإهلاك دعوته وهو حلٌ بهذا البلد فانظر حُسْنَ هذا الاختيار وعلو هذا التعبير.

ثم انظر جو الاجتماع الذي تفيد كلمة «لبد» وشيوعه في السورة في الوالد وما ولد وفي العينين وفي اللسان والشفتين في آلة النطق وفي النجدين وليس نجداً واحداً فإنه ذكر نجدين ولم يذكر نجداً واحداً كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ (عبس: ٢٠)، وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان: ٣). وفي تفسير العقبة بجملة أمور في ذكر المؤمنين بصيغة الجمع ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ واجتماعهم على التواصي بالصبر والمرحمة أي: يوصي بعضهم بعضاً ثم في اجتماع أهل الكفار في جهنم وإيصاد النار عليهم.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد: ١٠).

قال د. **فاضل**: واختيار كلمة «نجد» للطريق ههنا اختيار لطيف مناسب، فإنه لم يقل كما قال في مواطن أخرى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ (الإنسان: ٣)، أو ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ (عبس: ٢٠) أو ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة: ٦) أو ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ (المائدة: ١٦) ذلك أن التعبير مناسب لجو السورة فإن سُلوك النجد فيه مشقة وصعوبة لما فيه من صعود وارتفاع فهو مناسب للمكابدة والمشقة التي خلق الإنسان فيها، ومناسب لاقتحام العقبة وما فيه من مشقة وشدة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ (البلد: ١١)، فقال: «لا» التي تنفي الاستقبال، ولم يقل: «لم» التي تنفي الماضي، ثمّ إنّه لم يكرر «لا»، مع أنّ «لا» إذا نفت الفعل الماضي المعنى، وجب تكرارها إلّا ما ندر نحو قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ (القيامة: ٣١)؛ فقال **الألوسي**: المتيقن عندي أكثرية تكرارها، وأما وجوبه فليس بمتيقن، وذكر **العز بن عبد السلام** أنّ اختيار «لا» لأنّ النفي بها أبلغ؛ إذ يفيد نفي الماضي والمستقبل، قال د. **فاضل**: والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أنّ الآية جمعت معاني عدة في آنٍ واحد،

فهي تدل على المضي، وأنّ هذا الإنسان لم يقتحم العقبة، فهو لم يؤمن، كما أن هذا الإنسان فرداً كان أم صنفاً لا يقتحم العقبة في المستقبل لأن من كان هذا وصفهُ لا يقتحم العقبة، إلا إذا آمن وغيَّر من حاله فهو لم يقتحم العقبة في الماضي ولا يقتحمها في المستقبل، بل هو باق على حاله على وجه الدوام.

ويحتمل أن هذا التعبير دعاء على هذا الصنف أو الشخص بألا يقتحم العقبة كما في قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (الهمزة : ١) وقوله: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٠) فإن من كان هذه صفته لا يستحق الدعاء له بالخير.

كما يحتمل الاستفهام المراد به التنديم والتوبيخ على ما فرطوا أو الحض على الإنفاق بمعنى «ألا اقتحم العقبة» وقد حذفت منه الهمزة ونحو هذا وارد في القرآن الكريم والفصيح من كلام العرب، فقد جاء فيه قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (الأعراف : ١١٣، ١١٤) بدلالة قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (الشعراء : ٤١، ٤٢).

ونحو قول الشاعر:

«**قالوا: تحبها؟ قلت: بهراً**» أي: أتحبها، وقول الكميت:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطربُ ... ولا لعباً منى وذو الشيب يلعبُ

أي: أو ذو الشيب يلعب؟

قال د. **فاضل**: وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة، فقد جمع هذا التعبير عدة معان في آن واحد: المضي والاستقبال والتوبيخ والحض والدعاء فهو أخبر أنه لم يقتحم العقبة فيما مضى من عمره، وأنه لا يقتحمها في المستقبل، وأنه وبخه على ذلك، ودعا عليه بعدم اقتحامها.

وقال **ابن القيم** في «**التبيان في أقسام القرآن**»: ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه التي لا يصل إليها، حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقِه بفك الرقبة، وهو تخليصها من

الرق، ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه، وبإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالإخلاص له سبحانه بالإيمان الذي هو خالص حقه، وهو تصديق خبره وطاعة أمره وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالصبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها فيكون صابراً رحيماً في نفسه معيناً لغيره على الصبر والرحمة.

قال د. **فاضل**: واختيار هذا التعبير أنسب شيء ها هنا، فاختيار ﴿ٱلْعَقَبَةُ﴾ بعد ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ اختيار بديع، وهو كما قال **الألوسي**: إنّ ذكرها بعد النجدين جعل الاستعارة في الذروة العليا من البلاغة، وذلك أن النجد: وهو الطريق العالي المرتفع يؤدي إلى العقبة، وهي الطريق الوعر في الجبل فإن العقبة تقع في النجاد غالباً.

واختيار لفظ «الاقتحام» وما فيه من شدة ومخاطرة هو المناسب لبيان وعورة وصعوبة هذه العقبة، فإنه لم يعبر عن ذلك بالاجتياز ونحوه، ومما يدل على شدة هذه العقبة. فانظر كيف أن كلَّ لفظة وقعت في مكانها المناسب وأن اختيار كل لفظة اختيار مناسب لجو السورة. فكل من الاقتحام والعقبة مناسب لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾. وذلك أن من معاني «الكبد» المشقة والقوة، وأن اقتحام العقبة فيه مشقة وتعب كما أن هذه الآية تناسب ما بعدها من المشقات والشدائد التي يعانيها المسكين واليتيم، في اليوم ذي المسغبة.

ثم انظر علاقة هذه الآية بأول السورة وخاتمتها، وهو كيف أن الرسول كان في حال اقتحام للعقبة، وهو حال ببلد الله الحرام، يلقى ما يلقى من العنت والمشقة في تبليغ دعوة ربه. وبخاتمتها وهم الذين لم يقتحموا العقبة فيقعوا في عقبة جهنم أبد الأبدين، وكانت عليهم مؤصدة.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ (البَلَد: ١٧ – ٢٠).

قال د. **فاضل**: ثم انظر من ناحية أخرى كيف قدم التواصي بالصبر على التواصي بالمرحمة ذلك لأنه تقدم ما يحتاج إلى الصبر من المكابدة والمشقة وانغمار الإنسان فيها، واقتحام العقبة وذكر النجدين. وأخَّر المرحمة لما جاء بعد ذلك من فك الرقاب واطعام الأيتام والمساكين فقدم التواصي بالصبر لـمّـا تقدم ما يدعو إليه.

وقد تقول: ولِمَ لمْ يقل كما قال في سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾؟ فقد ذكر التواصي بالحق ثم ذكر بعده التواصي بالصبر. والجواب: أن المقام مختلف ففي سورة العصر كان الكلام على خسارة الإنسان على وجه العموم، فجاء بالتواصي بالحق على وجه العموم. ولما كان الكلام في سورة البلد على جزء من الحق وهو ما يتعلق بالرحمة والإطعام قال: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾. وقدم الحق في سورة العصر: لأنه الأهم ولأن الصبر إنما يكون صبراً على الحق. إذاً ليس المهم هو الصبر وإنما المهم أن يصبر على ماذا ، ثم إن التمسك بالحق والتواصي به يحتاج إلى صبر، فقدم الحق لذلك بخلاف سورة البلد، فإنه قدم الصبر على الرحمة لما ذكرنا.

وقد يقال لِمَ لمْ يقل أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال كما في مواطن أخرى من القرآن الكريم؟ **والجواب**: أن اختيار هذين اللفظين له عدة فوائد منها: أن الميمنة والمشأمة جمعت عدة معان، وهي كلها مرادة مطلوبة في آن واحد، ولو قال: أصحاب اليمين أو أصحاب الشمال لأعطى معناً واحداً. فأصحاب الميمنة هم أصحاب جهة اليمين التي فيها السعداء وهم الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم، فيذهبون إلى الجنة، وهم أصحاب اليمن والخير والبركة على أنفسهم وعلى غيرهم، فإنهم أفاضوا خيرهم ومالهم على الفقراء والمحتاجين وتواصوا بالرحمة على خلق الله وهم ميامين على أنفسهم بأن رضي الله عنهم وأدخلهم الجنة.

وكذلك أصحاب المشأمة فهم أصحاب جهة الشمال التي فيها الأشقياء وهم الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم، ويساقون إلى النار وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم وعلى غيرهم في الدنيا والآخرة.

سُورَةُ الشَّمْسِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ (الشمس: ١١).

قال **ابن القيم**: لم يذكر سبحانه في هذه السورة تكذيب أمةٍ غير ثمود؛ قال شيخ الإسلام: هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومدين، وقوم لوط، وغيرهم، ولهذا لما ذكرهم وعادا قال: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت: ١٥ - ١٧). وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة كاللواط وبخس المكيال والميزان والفساد في الأرض كما في سورة هود والشعراء وغيرهما فكان في قوم لوط ـ مع الشرك ـ إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها، وفي قوم عاد ـ مع الشرك ـ التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا وشدة البطش وقولهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾. وفي أصحاب مدين ـ مع الشرك ـ الظلم في الأموال وفي قوم فرعون ـ مع الشرك ـ الفساد في الأرض والعلو.

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم. فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، والتي لا يقوم لها شيء. وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمّةً غيرهم. فجمع لهم من الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم، بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان. وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال. أ. هـ.

قال **ابن القيم**: وقد يظهر في تخصيص ثمود هنا بالذكر، دون غيرهم معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ (فصلت : ١٧)، وقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء : ٥٩). أي موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم. فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد، ولهذا لـمّـا قام قرنهم بقوم عاد قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾. ثم قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾. ولهذا أمكن عاد المكابرة وأن يقولوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ (هود : ٥٣). ولم يمكن ذلك ثمود وقد رأوا البينة عياناً، وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه. وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض والله أعلم.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ اللَّيْلِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (الليل : ٤).

قال **ابن القيم**: فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار، ليس هو مرادفاً للفظ العمل، كما ظنه طائفة بل هو عمل مخصوص يهتم به صاحبه ويجتهد فيه. ولهذا قال في الجمعة: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وهذه أحسن من قراءة من قرأ «فامضوا إلى ذكر الله» وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وائتوها تمشون، وعليكم السكينة. فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا**» (رواه البخاري ومسلم).

فلم ينه عن السعي إلى الصلاة فإن الله أمر بالسعي إليها، بل نهاهم أن يأتوا إليها يسعون، فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه، والإتيان فعل البدن وسعيه عدو البدن، وهو منهي عنه. وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة، من بيع وغيره، والإقبال بالقلب على السعي إليها، وكذلك قوله في قصة فرعون لما قال له موسى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾. فهذا اهتمام واجتهاد في حشر رعيته ومناداته فيهم. وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ (البقرة : ٢٠٥). فهو عمل بهمة واجتهاد ومنه سُمِّي الساعي على الصدقة، والساعي على الأرملة واليتيم. ومنه قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾. وهو العمل الذي يقصده صاحبه ويعتني به ليترتب عليه ثواب أو عقاب، بخلاف المباحات المعتادة، فإنها لم تدخل في هذا السعي. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل : ٥ - ١٠). ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (الإسراء : ١٩). وقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ (المائدة : ٣٣).

سورة الشرح

۞ **قَالَ تعَالَىٰ:** ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ (الشرح : ٧، ٨)، فقال ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ عدّاه بحرف «إلى» لتضمينه معنى الإقبال والتوجه تشبيهاً بسير السائر إلى من عنده حاجته كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الصافات : ٩٩)، أفاده **ابن عاشور**.

سورة التين

۞ **قَالَ تعَالَىٰ:** ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ (التين : ١ – ٥).

قال **ابن القيم**: فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة، فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما: وهو أرض بيت المقدس. فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً، وقد قال جماعة من المفسرين: أنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيها. فإن التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص لا عجم له وهو على مقدار اللقم وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم ويدخل في الأدوية ومزاجه من أعدل الأمزجة وطبعه طبع الحياة الحرارة، والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة، ويوافق الباءة وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطباً ويابساً. وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر، فإن عوده يخرج ثمراً، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للآكلين، وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى. وشجره باق عبر السنين المتطاولة. وورقه لا يسقط وهذا الذي قالوا حق، ولا ينافي أن يكون منبته مراداً. فإن

منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة. فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين: وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل. فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم. ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى «جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران». فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع. ثم ثنى بنبوة المسيح ثم ختمه بنبوة محمد ﷺ. وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها ونبوة محمد ﷺ بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم، ولما كان الغالب على بني إسرائيل حكم الحسّ ذُكر ذلك عندهم مطابقاً للواقع. ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي.

سورة القدر

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ عن ليلة القدر:** ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ (القدر : ٥)، فقال ﴿ حَتَّىٰ ﴾ ولم يقل «إلى» لإدخال الغاية لبيان أنّ ليلة القدر تمتد بعد مطلع الفجر بحيث إنّ صلاة الفجر تعتبر واقعة في تلك الليلة لئلا يتوهم أنّ نهايتها كنهاية الفطر بآخر جزءٍ من الليل، وهذا توسعة من الله في امتداد الليلة إلى ما بعد طلوع الفجر، أفاده **ابن عاشور**.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزلة : ١)، قال **ابن عاشور**: إضافة كلمة ﴿زِلْزَالَهَا﴾ إلى ضمير الأرض يفيد تمكنه منها وتكرره حتى كأنه عرف بنسبته إليها لكثرة اتصاله بها، أفاده **ابن عاشور**.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ (العاديات : ١ – ٥)، فقال ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ فعلين ماضيين ولم يأتيا على نسق الأوصاف قبلهما بصيغة اسم الفاعل للإشارة إلى أنّ الكلام انتقل من القسم إلى الحكاية عن حصول ما ترتب على تلك الأوصاف الثلاثة مما قصد منها. فالفاء في قوله ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ عاطفة على وصف المغيرات والمعطوف بها من آثار وصف المغيرات وليست عاطفة على صفة مستقلة مثل الصفات الثلاث التي قبلها لأنّ إثارة النقع وتوسط الجمع من آثار الإغارة صبحاً، وليس مقسماً بهما أصالةً وإنما القسم بالأوصاف الثلاثة الأولى، أفاده **ابن عاشور**.

۞ **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات : ١ – ٦).

قال **د. الخضيري**: أقسم الله على شدة جحود الإنسان بالعاديات ضبحاً. ومناسبة ذلك تذكير الجاحد بأن الخيل لا ينسى فضل مالكه عليه فيورد نفسه المهالك لأجله تقديراً لنعمة المنعم فلا تكن البهيمة خيراً وأوفى منك أيها الإنسان. «**تدبر مجموعة (١)**».

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (العاديات: ٦ – ٨).

قال في (**الظلال**): ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾.. فهو شديد الحب لنفسه، ومن ثَمَّ يحب الخير. ولكن كما يتمثله مالاً وسلطة ومتاعاً بأعراض الحياة الدنيا. هذه فطرته. وهذا طبعه. ما لم يخالط الإيمان قلبه. فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته. ويحيل كنوده وجحوده اعترافاً بفضل الله وشكراناً. كما يبدل أثرته وشحّه إيثاراً ورحمة. ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح. وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا.

إن الإنسان ـ بغير إيمان ـ حقير صغير. حقير المطامع، صغير الاهتمامات. ومهما كبرت أطماعه. واشتد طموحه، وتعالت أهدافه، فإنه يظل مرتكساً في حمأة الأرض، مقيداً بحدود العمر، سجيناً في سجن الذات. لا يطلقه ولا يرفعه إلا الإتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، وأعظم من الذات.. عالم (خلقه) الله (الأول)، ويعود إلى الله (الباقي)، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء.

❁❁❁

سُورَةُ القَارِعَةِ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ١ - ٣)، فقال: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ بالتأنيث، وكذا نجد الأغلب على أسماء الحشر التأنيث مثل: ﴿ ٱلطَّآمَّةُ ﴾ و﴿ ٱلصَّآخَّةُ ﴾، قال د. **فاضل**: قد تزاد التاء للمبالغة في الوصف كقولهم: راوية لكثير الرواية، وإنما أنثوا المذكر لأنهم أرادوا أنه غاية في ذلك الوصف، وكذا كان الأغلب على أسماء الحشر التأنيث لما فيها من معنى المبالغة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أنّ ما ختم بالتاء على وزن «فاعلة» كالداهية والقارعة والنازلة والقاصمة ممّا لم يرد به تأنيث «فاعل» يدل على العموم والشمول والشدة والمبالغة، فليس كل ما ينزل يسمى نازلة حتى يكون عاماً مستطيراً وشديداً قاهراً؛ تقول: حلّت بهم نازلة أو جائحة: إذا عَمَّتهم بالبلاء، ولذا كانت أغلب أسماء الحشر مؤنثة لما فيها من العموم والشمول والشدة والقهر. أ.هـ .

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

۞ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ (التكاثر: ١، ٢).

عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ (التكاثر: ١، ٢) فبكى ثم قال: يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة ولا بد للزائر أن يرجع إلى منزله في الجنة أو النار.

وقال د. **ناصر**: في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ (التكاثر: ٢).

إذا كانت الإقامة في القبر مجرد زيارة مع أنها قد تمتد آلاف السنين فبم نصف إقامتنا في الدنيا التي لا تتجاوز عدد سنين؟ تأمل ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ (المؤمنون: ١١٣) فيا طول حسرة المفرطين. «**تدبر مجموعة (١)**».

سُورَةُ العَصۡرِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ (العَصۡر: ١ - ٣).

قال في **الظلال**: والتواصي بالحق ضرورة. فالنهوض بالحق عسير. والمعوقات عن الحق كثيرة: هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة، وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين.. والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة. فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف. تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه وينجحه ويقف معه ويحبه ولا يخذله.. وهذا الدين ـ وهو الحق ـ لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال.

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة. فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة. ولا بد من الصبر. لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير. والصبر على الأذى والمشقة. والصبر على تبجح الباطل و(تسلّط) الشر. والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبعد النهاية! والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتساند الجميع وتزودهم بالحب والعزم والإصرار.. إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها، ولا تبرز إلا من خلالها.. وإلا فهو الخسران والضياع.

❁❁❁

سُورَةُ الهُمَزَةِ

۞ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ (الهُمَزَة : ٤، ٥).

قال د. **فاضل**: لماذا لم يقل كما قال في سورة الهمزة: ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾ فذلك له أكثر من سبب، وكل تعبير هو أليق بمكانه من نواحٍ عدة منها:

١- إنه توسع في سورة الهمزة في ذكر صفات المعذَّب وتوسع في ذكر العذاب، فقال: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾.

فقال في ذكر صفات المعذب، أنه ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾، وأنه ﴿ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾، في حين لم يزد في سورة البلد على قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ولما توسع في صفات المعذب توسع في ذكر عذابه فقال: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾. فناسب ذلك ذكر الزيادة في سورة الهمزة دون سورة البلد.

٢- إنه ذكر في أول الهمزة ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ فدعا عليهم بالهلاك الدائم الذي لا ينقطع. ورفع ﴿ وَيْلٌ ﴾ يفيد الثبوت، فناسب الدلالة على الدوام، أن يقول: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾ للدلالة على الاستيثاق من غلق الأبواب عليهم.

٣- ذكر في سورة الهمزة أن هذا الكافر يجمع المال ويعدده ويحفظه فكلما حفظ المال وجمعه وأغلق عليه الأبواب، واستوثق من حفظه أغلقت عليه أبواب جهنم واستوثق منها بأنها مدت عليهم الأعمدة. فناسب الاستيثاق من حفظ المال وإيصاد الأبواب عليه الاستيثاق وإطباق الأبواب عليه في النار. في حين أنه ذكر في سورة البلد أنه أهلك مالاً لبداً. فذلك أهلك المال وأنفقه، وهذا جمع المال وحفظه، فناسب ذكر الحفظ وشدة الاستيثاق في سورة الهمزة ذكر الاستيثاق من غلق باب النار عليه، والجزاء من جنس العمل.

كما أنّه ذكر في سورة الهمزة أن هذا الكافر ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ في الدنيا وأبقاه، وأنه لا يفارق المال، فعوقب بذلك بالخلود في النار، وإطباق أبوابها عليه والاستيثاق بالعمد الممدة عليها، للدلالة على خلوده في النار أبد الآبدين فحسبانه الخلود في الدنيا مقابل لحقيقة الخلود في النار. فهناك ظن وهنا يقين. وهناك خلود مظنون في الدنيا وهنا خلود واقع حقيقة في النار. كما أنّه ذكر في سورة الهمزة أن هذا الكافر يتعدى على الآخرين، فهو لم يكف آذاهُ عنهم، ولم ينلهم من خيره شيء، فهو يهمزهم ويلمزهم ويمنع خيره عنهم، فلم ينفق من ماله شيئاً. فلما اعتدى على الآخرين وآذاهم انبغى له الحبس لتخليص الناس من شره وعدوانه.



سُورَةُ الفِيلِ

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ (الفيل: ١)، قال ابن عاشور: إيثار ﴿كَيْفَ﴾ دون غيره من أسماء الاستفهام أو الموصول، فلم يقول: ألم تر ما فعل ربك، أو غيرها، للدلالة على حالة عجيبة يستحضرها من يعلم تفصيل القصة ـ وأوثر لفظ ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ دون غيره لأنّ مدلول هذا الفعل يعم أعمالاً كثيرة لا يدل عليها غيره وقال ﴿ رَبُّكَ ﴾ مضافاً إلى ضمير النبي ﷺ إيماءً إلى أنّ المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبي ﷺ إرهاصاً لنبوته إذ كان ذلك عام مولده.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

فائدة: ولما ذكر قبلها في سورة الماعون وصف المنافق بالبخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة قابل في هذه السورة البخل بـ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾. والسهو في الصلاة بقوله: ﴿ فَصَلِّ ﴾ والرياء بقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ ومنع الزكاة بقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أراد به التصدق بلحم الأضاحي فقابل أربعاً بأربع.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر: ٣).

فوصفه بكونه شانئاً كأنه تعالى يقول هذا الذي يبغضك لا يقدر على شيء آخر سوى أنه يبغضك. والمبغض إذا عجز عن الإيذاء فحينئذ يحترق قلبه غيظاً وحسداً فتصير العداوة من أعظم أسباب حصول المحنة لذلك العدو. أفاده الرازي.

۞ **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ (الكوثر: ٢).

ولم يقل: «فصلِّ لنا» لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه. أفاده **ابن عاشور**.

سُورَةُ النَّاسِ

فائدة : قال **أبو حيان**: ولما كانت مضرة الدين وهي آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت جاء في سورة الناس الاستعاذة منها بصفات ثلاث: «الرب والملك والإله» وإن اتحد المطلوب. وفي سورة الفلق الاستعاذة من ثلاث: «الغاسق والنفاثات والحاسد» بصفة واحدة وهي الرب وإن كثر الذي يستعاذ منه.



« الفَهرِس »